البناء الحضاري في القصص القرآني

إعداد

إيمان عبد اللطيف شلبي

المشرف

الأستاذ الدكتور أحمد شكري

قدمت هذه الأطروحة استكمالاً لمتطلبات الحصول على درجة الدكتوراه

في التفسير

كلية الدراسات العليا

الجامعة الأردنية

كانون الثاني، ٢٠١٢

تعتمد كلية الدراسات العليا
هذه النسخة من الرسالة
التوقيع ..... التاريخ ٢/١/٢٠١٢

قرار لجنة المناقشة

نوقشت هذه الرسالة (البناء الحضاري في القصص القرآني). وأجيـزت بتاريخ ١٥/١٢/٢٠١١م.

أعضاء لجنة المناقشة	التوقيـــــــع
الأستاذ الدكتور أحمد خالد شكري / مشرفا أستاذ – التفسير–أصول الدين	.....
الأستاذ الدكتور محمد خازر المجالي /عضوا أستاذ – التفسير – أصول الدين	.....
الأستاذ الدكتور أحمد فريد أبو هزيم / عضوا أستاذ – التفسير– أصول الدين	.....
الدكتور أحمد إسماعيل نوفل /عضوا أستاذ– التفسير – أصول الدين	.....
الأستاذ الدكتور نائل ممدوح أبو زيد /عضواً خارجياً (من جامعة مؤتة)	.....

تعتمد كلية الدراسات العليا
هذه النسخة من الرسالة
التوقيع ..... التاريخ ٢/١١/٢٠١٢

أنـا إيمان عبداللطيف شلبي ، أفـوض الجامعـة الأردنيـة بتزويـد نـسخ مـن رسـالتي /أطروحتي للمكتبات أو المؤسسات أو الهيئات أو الأشخاص عند طلبهم حسب التعليمات النافذة في الجامعة.

التوقيع:

التاريخ: ٢٠١٢/١/٢

الجامعة الأردنيــــة
كلية الدراسات العليا

التاريـــخ: / /

نموذج رقم (١٦)
اقرار والتزام بالمعايير الأخلاقية والأمانة العلمية وقوانين الجامعة الأردنية وأنظمتها وتعليماتها لطلبة الدكتوراه

أنا الطالب: أيمان عبد اللطيف عبد اللطيف سلوى الرقم الجامعي: (٩٠٩٠٠٩٣)
تخصص: التفسير - أصول دين الكليـــــة: الشريعة

عنوان الاطروحة: البناء الحضاري في القصص القرآني

اعلن بأنني قد التزمت بقوانين الجامعة الأردنية وأنظمتها وتعليماتها وقراراتها السارية المفعول المتعلقة باعداد اطروحات الدكتوراه عندما قمت شخصيا" باعداد اطروحتي وذلك بما ينسجم مع الأمانة العلمية وكافة المعايير الأخلاقية المتعارف عليها في كتابة الأطروحات العلمية. كما أنني أعلن بأن اطروحتي هذه غير منقولة أو مستلة من أطاريح أو كتب أو أبحاث أو أي منشورات علمية تم نشرها أو تخزينها في أي وسيلة اعلامية، وتأسيسا" على ما تقدم فانني أتحمل المسؤولية بأنواعها كافة فيما لو تبين غير ذلك بما فيه حق مجلس العمداء في الجامعة الأردنية بالغاء قرار منحي الدرجة العلمية التي حصلت عليها وسحب شهادة التخرج مني بعد صدورها دون أن يكون لي أي حق في التظلم أو الاعتراض أو الطعن بأي صورة كانت في القرار الصادر عن مجلس العمداء بهذا الصدد.

توقيع الطالب: .... التاريخ: ٣ / ١ / ٢٠١٢

تعتمد كلية الدراسات العليا
هذه النسخة من الرسالـــة
التوقيع.......... التاريخ ٢٠١٢/١/٣

الموضوع	الصفحة
قرار لجنة المناقشة	ب
الإهداء	ج
شكر وتقدير	د
فهرس المحتويات	هـ
الملخص بالعربية	ز
المقدمة	١
الفصل الأول: **تعريفات**	٧
المبحث الأول:**مفهوم الحضارة**	٨
المبحث الثاني:**القصة القرآنية** المطلب الأول: أهمية القصة القرآنية المطلب الثاني:خصائص القصة القرآنية المطلب الثالث:أغراض القصة القرآنية المطلب الرابع:البناء التنظيري لمفهوم البناء الحضاري في القصص القرآني	٢٠ ٢٠ ٢٢ ٢٥ ٢٦
الفصل الثاني:**مقومات البناء الحضاري في القصص القرآني.**	٣٠
المبحث الأول: **فاعلية الاعتقاد** المشهد الأول:قصة سحرة فرعون المشهد الثاني:أصحاب الكهف المشهد الثالث:قصة طالوت وجالوت	٣١ ٣٥ ٤٧ ٥٣
المبحث الثاني:**سموّ الأخلاق** المشهد الأول:يوسف عليه السلام وامرأة العزيز المشهد الثاني:موسى عليه السلام والمرأتين المشهد الثالث:قصة قوم لوط عليه السلام	٦٢ ٦٣ ٧٢ ٧٨
المبحث الثالث:**الإعداد المادي المتين**	٨٨

المشهد الأول:ذو القرنين	٨٩
المشهد الثاني:قبيلتا عاد وثمود	٩٤
المشهد الثالث:نوح عليه السلام	١٠٣
المشهد الرابع:داود عليه السلام	١٠٧
المبحث الرابع:**الروح الجماعية**	١١١
المطلب الأول:الحياة الجماعية فطرة	١١٢
المطلب الثاني:أهمية هذه الروح	١١٣
المطلب الثالث:الأساس الذي يجب أن تنطلق منه هذه الروح	١١٦
المطلب الرابع:صور من تغلغل هذه الروح في قلوب أصحابها	١٢٢
المطلب الخامس:مفارقة لا بد منها	١٣٣
المبحث الخامس:**سموّ العلم**	١٣٨
المطلب الأول:الأنبياء علماء وبناة حضارة	١٤١
المطلب الثاني:صفات طالب العلم	١٤٥
المطلب الثالث:تفعيل العلم لتحقيق الغاية	١٥٦
الفصل الثالث:**خصائص البناء الحضاري في القصص القرآني.**	١٦٣
المبحث الأول:شمولية الفهم والصياغة	١٦٤
المبحث الثاني:واقعية الطرح	١٧٦
المبحث الثالث:مرونة التطبيق	١٨٣
المبحث الرابع:تأصيلية الفكرة	١٩٣
المبحث الخامس:حقيقية المضمون	٢٠٥
المبحث السادس:امتداد النفع	٢١٠
المبحث السابع:القدرة على التأثير	٢١٤
الفصل الرابع:**معوّقات البناء الحضاري وآليات الخروج منها، من خلال القصص القرآني**	٢٢٠
المبحث الأول:الطغيان السياسي وآلية الخروج منه	٢٢٢
المبحث الثاني:الطغيان الاقتصادي وآلية الخروج منه	٢٣٩

المبحث الثالث:الطغيان الفكري وآلية الخروج منه	٢٦٢
الخاتمة	٢٨١
أهم نتائج الدراسة	٢٨٣

البناء الحضاري في القصص القرآني

إعداد

الطالبة:إيمان عبد اللطيف شلبي

المشرف

الأستاذ الدكتور:أحمد شكري

ملخص

تستعرض هذه الدراسة مفهوم الحضارة من خلال القصة القرآنية، محاولة وضع اليد على أهم المقومات والأسس التي تحتاجها في مرحلة بنائها وتشييد أركانها، وذلك من خلال بسط الحديث حول كيفية تفعيل هذه المقومات، ونقلها من ميادين التنظير إلى وقائع الحياة العملية، ضمن إطار واحد، يتمثل في فكرة الربانية، التي تعتبر الفقه الخاص الذي يميّز هذه الحضارة، ومنطقها الداخلي الذي تتحكم به سيرورتها.

على أن هذه القواعد والأسس تمتلك من الخصائص ما يجعل لها سمة خاصة تعرف بها، تميزها عن كل ما سواها من الأطروحات، هذه الخصائص من واقعية وشمولية ومصداقية طرح وغيرها، جعلت لهذه الحضارة جذوراً عميقة تمتد ضاربة في شعاب التاريخ، عصيّة على الزوال والفناء رغم كل ما تعرضت له من فاتكات مهلكات، لو تعرّض غيرها لعُشْرها لما صمد أمامها،

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه الغرّ المحجلين وسلّم تسليماً كثيراً.

أما بعد :

فإن الهمّ الذي لازال يشغل أذهان المسلمين منذ زمن ليس بالقريب هو إيجاد المسلك الصحيح والطريق الأمثل للعودة بهذه الأمة إلى ما كانت عليه سابق عهدها ... وإذا ما تأملنا في نظرة عجلى الحضارات على مر التاريخ سنلحظ أنها قامت متمحورة حول فكرة ما حملها أصحابها بعد أن آمنوا بها، وجدّوا في سبيل تحقيقها، حتى وصلوا إلى ما تاقت إليه نفوسهم، والحضارة الإسلامية كان لها ضمن السنن الكوني لتسيير الأحداث ذات المدرج، حيث تبلورت ذاتها وكينونتها حول فكرة آمن بها رجالها فكان أن أوجدوا {كُنتُمۡ خَيۡرَ أُمَّةٍ أُخۡرِجَتۡ لِلنَّاسِ }" آل عمران١١٠"

ذلكم أن فكرتها تلك لم تكن من عقول البشر ونتاج تفكيرهم، وإنما هي توجيه رباني، وأمرٌ إلهي اختلج أعماق وقلوب سامعيه فعاشوا له، وشمّروا من أجله، وحشدوا الطاقات والإمكانات حرصاً على ترسيخه وتثبيت معالمه، وكان لهم شرف القمة التي تبوأتها أمتهم في زمانهم .

إنها غاية الوجود. {وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ }" الذاريات٥٦ "بمعناها الواسع وأبعادها اللامتناهيه كي يتجلى تميُّز هذا الدين في شموليته من جهته، وواقعيته من جهة

ثانية، لتتحول كل جزئية فيه ميداناً عملياً توّرث العامل من السعادة والأمن في ظلال العزة والكرامة الإنسانية القَدْر الذي يملأ عليه حياته.

وتأتي هذه الدراسة مسلطة الضوء على هذه المعاني، مظهرة ما عليه الآيات القرآنية من خلال ميدان قصصها، مثبتة أنها علامات كونيه يهتدي بها السائر في طريقه إلى بناء حضارة وإرساء معالمها فهي ليست تاريخاً مضى وإنما منارات للحاضر والمستقبل، على أني بذلت جهدي في الإحاطة بالموضوع وربط أجزائه، والغوص في بحار معانيه، إلا أن ذلكم الجهد كله لا يعد خاتمة المطاف، وإنما هو المفتاح، أو الإضاءة الخاطفة التي تفتح المجال لكل ناظر ومتأمل أن يضيف ويحذف، ويبدع في تجديد العرض وترتيب المعروض، واستنطاق القصة القرآنية، على اعتبار أن طبيعة المادة العلمية في هذه الدراسة تحتمل تباين الطرح، وتعدد الآراء.

مشكلة الدراسة:

تحاول الدراسة الإجابة عن الأسئلة التالية:

أولاً- ما معنى البناء الحضاري في القرآن الكريم؟

ثانياً- ما أهم الأسس والركائز التي يمكن أن يستند إليها البناء الحضاري لأمة القرآن؟

ثالثاً- ما هي خصائص وسمات البناء الحضاري من خلال المنظور القرآني؟

رابعاً- ما أهم العوائق التي تعترض باني الحضارة القرآنية؟

خامساً- ما السبل التي تخرج الأمة من وطأة ما تحياه من أزمة؟

أهمية الدراسة:

تبرز أهمية هذه الدراسة في:

أولاً- الدعوة إلى إعادة النظر في قراءة كتاب الله الكريم، لتفعيله في ميادين الحياة والارتقاء بمفاهيمها.

ثانياً- إعادة صياغة جوهر الحياة ضمن القيم المعيارية المثالية التي رسمتها الآيات القرآنية في أفقها السامي.

ثالثاً- التأكيد على كون القرآن الكريم بكل ميادينه وجوانبه هو كتاب حياة، لا تقف دون والأحياء سبحانه. حيويته وسهولة تطبيقه عوائق من زمان أو مكان، لأن مُنزّله هو خالق الحياة

رابعاً- بيان كون القصص القرآني تجسيداً عملياً للعقيدة في أسمى صورها، كما أنه مرآة هذه الأمة وذاكرتها الجمعية، وبها تظهر البدايات، وتتجلى النهايات، وتُرسم المعالم التي تكون للناظر نبراس في سيره إلى بناء أمته وتشييد معالم حضارتها من جديد. المتبصر خير

أهداف الدراسة:

تهدف هذه الدراسة إلى جملة من الأهداف أبرزها:

أولاً- استنتاج معنى البناء الحضاري وأسسه وميزاته.

ثانياً- تقديم خطة عملية للبناء الحضاري للأمة الإسلامية، من خلال الوقوف على المعالم العامة التي عرضتها الآيات القرآنية، وما تفضي إليه من جزئيات من خلال استنطاق هذه الآيات.

ثالثاً- محاولة الوقوف على نماذج من الثغرات التي أُتيت الأمة من قبلها، والتي كانت سبباً في ارتكاسها، ومقابلتها بنماذج قصصية قرآنية، وتبيان سبيل الخروج كما رسمته الآيات باقياً حياً عبر السنين.

رابعاً- فَهْم المقومات والدعائم الأساسية التي تكون بمثابة ركائز البناء الحضاري الذي نسعى إلى تشييده من خلال هذه الدراسة.

خامساً- إدراك أهم الخصائص التي تمتاز بها المنهجية القرآنية في أطروحاتها النهضوية، والوقوف على أهم ما يميزها عن كل طرح آخر أنّى كان مشربه.

<u>الدراسات السابقة:</u>

شكّل ميدان القصص في القرآن مساحة واسعة للباحثين والدارسين كي يجولوا في أرجائه ويقطفوا من يانع ثماره.

وقد تنوعت الدراسات وتعددت، فلا يكاد جانب من الجوانب ممكن أن يقتطف من القصة إلا وتتوول بالاستقراء لاستكمال دراسة قرآنية حوله.

فدُرست المرأة في القصص القرآني، وكذلك الشخصية، وقيم اليهود، وشخصية الحاكم، والمبادئ التربوية، والاستخلاف الإلهي للإنسان، وغير ذلك كثير، وكان لكل دارس نصيبه في إثراء المكتبة الإسلامية بما جمع واستقصى وأبدع.

ولم أقف في بحثي على دراسة قامت حول البناء الحضاري من خلال القصص القرآني، رغم أن البحث في موضوع الحضارة وتشييدها، وإعادة شهودها على واقع الأرض من خلال منهجية القرآن الكريم عامة، له حضوره الكبير في المكتبة الإسلامية، دون أن يتجاوزوا في أطروحاتهم التنظير والتأصيل العام.

وتأتي هذه الدراسة في طرحها لتجلية مفهوم البناء الحضاري من خلال نماذج من القصص القرآني تُعنى بدراستها وتحليلها، واستنباط القِيَم منها، والتي تُشكّل بمجموعها عوامل البناء الحضاري للأمم على مرّ تاريخها.

ويعتبر{التصوير الفني في القصص القرآني} لسيد قطب، من المؤلفات الهامة في هذا الميدان، حيث أعاد للقصة حيويتها بفهمه، وقرّبها لأذهان المتأملين بنظريته، كي تكون ميداناً لاستجلاب واستنطاق الكثير من المعاني المستكنة فيها.

على أن المؤلفات التي كُتبت في القصص القرآني من الكثرة بحيث لا تحصى، وهي من الدراسات التي يُستأنس بها في الدراسة، وذلك من مثل:

١-منهج الدعوة إلى العقيدة في ضوء القصص القرآني، منى بنت عبد الله بن داود.

٢-القصص القرآني بين الآباء والأبناء، عماد زهير حافظ.

٣-شخصية الحاكم في ضوء القصص القرآني، رأفت محمد رائف.

٤-الاستخلاف والحضارة-دراسة في الاستخلاف الإلهي للإنسان في ضوء القصص القرآني، محمد عباد عبد الله.

٥-سورة يوسف-دراسة تحليلية-أحمد نوفل.

٦-القصص القرآني تفسير اجتماعي، راشد البرّاوي.

٧-المبادئ التربوية والأسس النفسية في القصص القرآني، شاهر ديب أبو شريخ.

٨-القصص القرآني في سورة الكهف وبناء الشخصية الإسلامية، عارف كامل عبد الله.

وتكمن الفائدة في هذه الدراسات بإسهابها في شرح وبيان الفكرة التي اقتصرت كل دراسة عليها، ومن ثم يكون الميدان أمام بحثي واسعاً ليستفيد في بعض جوانبه التي حددها من خلال ما توّسع في طرحه في هذه الدراسات.

بالإضافة إلى الكتب التي استنبطت المفاهيم الحضارية من خلال النظر في آيات القرآن الكريم،كمثل:

١-فقه التحضر،وعوامل التحضر، عبد المجيد عمر النجار.

٢-فقه التحضر فهما وتنزيلا، عبد المجيد النجار.

٣-الحضارة الإسلامية أسسها ومبادئها، أبو الأعلى المودودي.

٤-روح الحضارة الإسلامية، محمد الفاضل بن عاشور.

٥-إنسانية الإسلام، مارسيل بوازار.

٦-القيم الحضارية في الإسلام، محمد عبد الفتاح الخطيب.

ومن الملاحظ أن كل ما ورد من دراسات عن موضوع الحضارة، سواءً بذكر ظاهرة من ظواهره، أو تبيان عوائقه، أو ذكر مجالاته، لم تكن قرآنية المنطلق بشكل أساس، بمعنى لم يكن اعتمادها على آيات القرآن الكريم وتناولها بالبحث والتحليل ومن ثمّ الاستعانة بكتب الفكر لتجليتها، وإنما على العكس من ذلك، كانت أقرب إلى الدراسات الفكرية، ومن هنا يأتي تميّز هذه الدراسة-كما سبق ذكره-باقتصارها على القصص القرآني، لمحاولة استخلاص ما يمكن أن يصب في مشروع بناء للأمة، ضمن إطار شخصيتها المستقلة المتفردة، لتصل في النهاية إلى حقيقة كون الإسلام هو الحضارة.

ولا بد من الإشارة إلى أن الدراسة قرآنية في أصلها وأساسها وغايتها، ومن ثمّ تعتبر الدراسات التفسيرية عموماً هي الأساس المعتمد عليه في مصادر هذا البحث ومراجعه، سواء منها التفاسير أو ما تخصص في جوانب خاصة محددة في جزئيات من تفسير القرآن الكريم، كمثل:دراسات قرآنية لمحمد قطب.

منهج البحث:

اعتمدت الدراسة أثناء طرحها المناهج التالية:

أولا- المنهج الاستقرائي القائم على استقراء مفهوم الحضارة عموماً، والوقوف على الجانب القرآني الذي يسعى إلى تأصيله وتجليته.

ثانياً- المنهج التحليلي القائم على تحليل معاني الآيات القرآنية واستخراج المعاني التي تصب في دائرة البحث، والعمل على استنطاق الآيات للوصول إلى إثبات كون القصص القرآني ليس تاريخاً مضى، وإنما هو بما يحويه من قيم ممتد عبر الأزمان.

ثالثاً- المنهج المقارن القائم على المقارنة بين النهج الرباني في تشييد بناء حضاري للأمم، وبين الأمم المختلفة متنوعة المشارب والمذاهب من خلال الآيات القرآنية.

وتجدر الإشارة إلى ضرورة التركيز على عدة نقاط دارت حولها آلية عملي أثناء الدراسة:

أولاً- منهج البحث أشبه بخط بياني يشير فيه الباحث ولا يحصي، يرشد ولا يستقصي.

ثانياً- تم الاعتماد في الرجوع إلى المصادر والمراجع الحرص على تنوعها، لتجمع بين القراءات التفسيرية والفكرية، مجتهدةً في الدمج بينهما من خلال التقاط المتقارب من الأفكار ليأتي التعبير من خلال بوتقة لفظية تجمع المعنى في سياق متوائم يجلّي الفكرة المقصودة.

ثالثاً- التوثيق في الحواشي قد يأتي في كثير من الأحيان جامعاً لأكثر من مصدر أو مرجع أو كليهما معاً، بحيث تحمل العناوين المشار إليها المعنى المقصود، وإن لم يكن ذات العرض واللفظ.

رابعاً- إذا أُفرد المؤلف بالذكر دون إتباعه بعنوان مُؤَلَّفه فالمقصود كونه مُفَسِّراً.

خامساً- كلمة ينظر في الحاشية، تشير إلى اقتباس المعنى، أو حتى مجرد الفكرة، وفي حال عدم وجودها يكون المقصود أن الاقتباس حرفيّ، ويرمز له بأقواس التنصيص تنبيهاً إليه.

سادساً: مالم يذكر من معلومات حول أيّ من المصادر أو المراجع فبسبب عدم توفره، كما أنه قد تم الحرص على التقيد بتعليمات الدراسات العليا أثناء التوثيق.

وقد اقتضت طبيعة البحث في هذا الموضوع تقسيمه إلى مقدمة وأربعة فصول وخاتمة على النحو التالي:

المقدمة: وتشتمل على أهمية الدراسة وأهدافها والدراسات السابقة التي تناولتها، وتعمل على بسط المشكلة التي قادت إلى الخوض في مثل هذا البحث والسعي إلى تأطيره وتأصيله.

الفصل الأول: تعريفات عامة، ويتضمن المباحث التالية:

المبحث الأول: مفهوم الحضارة

المبحث الثاني: القصة القرآنية، أهميتها وأهدافها وأغراضها.

الفصل الثاني: مقومات البناء الحضاري في القصص القرآني، ويتضمن المباحث التالية:

المبحث الأول:فاعلية الاعتقاد

المبحث الثاني:سموّ الأخلاق

المبحث الثالث:الإعداد المادي المتين

المبحث الرابع: الروح الجماعية

المبحث الخامس:سموّ العلم

الفصل الثالث: خصائص البناء الحضاري في القصص القرآني،ويتضمن المباحث التالية:

المبحث الأول:شمولية الفهم والصياغة.

المبحث الثاني:واقعية الطرح.

المبحث الثالث:مرونة التطبيق.

المبحث الرابع:تأصيلية الفكرة.

المبحث الخامس:حقيقية المضمون.

المبحث السادس:امتداد النفع.

المبحث السابع:القدرة على التأثير.

الفصل الرابع: عوائق البناء الحضاري من خلال القصص القرآنـــي، ويتضـــمن المباحـــث التالية:

المبحث الأول:الطغيان السياسي وآلية الخروج منه

المبحث الثاني:الطغيان الاقتصادي وآلية الخروج منه

المبحث الثالث:الطغيان الفكري وآلية الخروج منه

الخاتمة:وتظهر فيها أهم نتائج الدراسة.

الفصل الأول: التمهيدي

المبحث الأول: مفهوم الحضارة

المبحث الثاني: القصة القرآنية

الفصل الأول: التمهيدي:

المبحث الأول:مفهوم الحضارة:

يمر العالم اليوم بأزمة مفاهيم ومصطلحات حدت في كثير من الأحيان بأتباعها إلى تحميل اللفظ مالا يحتمله من المعاني والقيم التي يكتنفها المصطلح أو المفهوم، مع الأخذ بعين الحسبان أن المفاهيم في حقيقتها ما هي"إلا مستودعات كبرى للمعاني والدلالات، وكثيراً ما تتجاوز البناء اللفظي وتتخطى الجذر اللغوي لتعكس كوامن فلسفة الأمة".[1]

والحضارة إحدى أهم المفاهيم التي اختلفت العقول في تناولها وطرحها، تبعاً للقيم والمبادئ التي تنبثق منها تلك الأفهام، ومفهومها من أكثر المفاهيم التي تعرضت لعملية التلبيس والتشويه نظراً لطبيعة المقومات التي يعتمد عليها بنيانه، والأسس التي منها تتكون أطره، حيث أصبح يطلق على"أشياء ونظم وأنساق وأفكار متعارضة في نتائجها وغاياتها، كما في عناصرها ومكوناتها مما اقترب بهذا المفهوم إلى مِثل مفاهيم الحداثة والتقدم والرقي[2]."

ولا بد بداية قبل التفصيل في الآراء المختلفة حول مفهوم الحضارة، كي نصل منه إلى التأصيل الذي تبنى عليه الدراسة، أن نقف على الدلالات اللغوية والاصطلاحية لمفهوم التحضر من جهة، وتجلية المقياس القيمي الذي يحكمه من جهة أخرى.

المدلول اللغوي:

جاء في(لسان العرب) لكلمة"حضر"معان سبعة، فهي أولاً:بمعنى شهد، أي الحضور كنقيض للمغيب، والحضارة بمعنى الشهادة، وثانياً:كنا بحضرة الماء، وقَرُب الشيء إذا كنت بحضرة الدار، وثالثاً:جاء أو أتى أي حضرت الصلاة، ورابعاً:الحضر

---

[1] -عارف، نصر محمد(١٩٩٤)، **الحضارة-الثقافة المدنية**-دراسة لسيرة المصطلح ودلالة المفهوم،ص٧، المعهد العالمي للفكر الإسلامي:عمان،ط٢.

[2] -المصدر السابق، ص١٥

خلاف البدو، وخامساً:الحضارة الإقامة في الحضر، وسادساً:الحاضرة: الحيّ العظيم، وسابعاً:الحاضر ضد المسافر[٣].

ويزيد الفيروزآبادي عند ذكره للمصدر(الحضارة) بأنها مظاهر الرقيّ العلميّ والفني والأدبي والإجتماعي في الحضر[٤].

ويمايز الزمخشري بين الحاضرة والبادية فيقول:"وهو حضريٌّ بيّن الحضارة، وبدويٌّ بيّن البداوة[٥]"*وكأنه بذلك يحدد مفهوم الحضر بأنه مضادٌّ للبدو والإقامة في البادية*.

وهذا المسلك الذي انتهجه الكثير اليوم في نظرتهم للحضارة وتحديدهم لمفهومها، مما انحرف بهم عن المسلك القويم بإهمالهم الوقوف على حقيقة أبعاد مدلولات الجذر اللغوي لهذه الكلمة، حيث أن هذا المعنى كان الخامس في ترتيبه عند ابن منظور-هذا من ناحية-ومن ناحية أخرى غدوا في نهجهم ذاك سائرين في ركاب الحضارة السائدة بمفاهيمها الغالبة بوصفها-أي الحضارة-"مادة محسوسة في آلة تخترع، وبناء يقام، ونظام حكم محسوس يمارس، ودين له شعائر ومناسك* وعادات ومؤسسات، فالحضارة مادية[٦]"في نظرهم لا تتجاوز هذا القدر من الفهم.

ولو بحثنا عن الدلالات القرآنية لهذا المفهوم، لوجدنا أن حضر في القرآن الكريم تعني شهد:(كُتِب عَلَيۡكُمۡ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ)[البقرة١٨٠](وَإِذَا

---

[٣]-ينظر:ابن منظور، جمال الدين محمد مكرم، **لسان العرب**، ج ٤، ص١٩٦-١٩٨، دار صادر: بيروت.

[٤]-ينظر:الفيروز آبادي، محمد بن يعقوب، **القاموس المحيط**، ج ٢،ص ١٠، دار الجيل: بيروت.

[٥]-الزمخشري، محمود بن عمر(١٩٦٥)، **أساس البلاغة**،ص ١٣٠، دار صادر: بيروت.

*ينظر للمعنى اللغوي:إبراهيم مصطفى، أحمد حسن الزيات، حامد عبد القادر، محمد علي النجار،**المعجم الوسيط**، **ص١٨٠،تحقيق:مجمع اللغة العربية، دار الدعوة، وينظر:الرازي،محمد بن أبي بكر بن عبد القادر(١٩٩٥)، مختار** الصحاح، ص١٦٧،ت:محمود خاطر، مكتبة لبنان: بيروت، وينظر:البستاني، بطرس(١٩٨٣)، **محيط المحيط** ، مكتبة لبنان: بيروت.

*هذا التحديد من الزمخشري لا يخدش بفهمه، لأن ما نود تأصيله والوصول إليه من خلال الدراسة، هو من المسلمات والثوابت عنده، باعتبار أن دين الله أصل الحياة وسر ارتقائها.

[٦]-موسى، سلامة(١٩٢٧)، **الثقافة والحضارة**، ص١٧١، مجلة الهلال: القاهرة، *أصحاب هذا الرأي ينظرون إلى الدين نظرة منفصلة تماما عن الحياة، فهو شعيرة تؤدى لا حياة تمارس، ومن ثمّ فهو لن يعدو بهذا الفهم الوصف المادي له.

حَضَرَ ٱلۡقِسۡمَةَ أُوْلُواْ ٱلۡقُرۡبَىٰ){النســــــــــــاء٨} (فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهۡرَ فَلۡيَصُمۡهُ){البقــرة١٨٥} (حَاضِرِي ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ){البقــرة١٩٦} (وَأُحۡضِرَتِ ٱلۡأَنفُسُ ٱلشُّحَّ){النساء١٢٨} وجميعها تؤدي معنى الشهادة أو الحضور، ويسهب الفيروزآبادي في تقسيمه للشهادة، وتفصيل مصطلحها إلى معان سبعة، فهي بالإضافة إلى كونها الحضور مع المشاهدة، تأتي كذلك على أنها قول صادر عن علم، كما تأتي بمعنى العلم ذاته، وهي شهادة الله بمعنى إيجاد، ومن معانيها:الشهيد حيث يطلق على المشاهد والشاهد، والشهداء جمع شهيد، وتأتي بمعنى من يشهد، وبمعنى الأعوان، وآخر ما ذكره من المعاني،الشهادة:أي شهادة التوحيد.[٧]

ومن خلال هذه المعاني المستبطنة للمدلول اللغوي نجد أنه من الممكن الخروج بدلالات أربع للشهادة متحدة بعضها مع بعض من غير تجزئة أو تهاون في إحداها لتؤدي متكاملة معنى الحضارة ، وتلكم الدلالات هي:

١-الشهادة بمعنى التوحيد والإقرار بالعبودية لله، وهي محور العقيدة الإسلامية(شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلۡعِلۡمِ قَآئِمَۢا بِٱلۡقِسۡطِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ)**{آل عمران١٨}**

٢-الشهادة بمعنى قول الحق وسلوك طريق العدل، وتعد مدخلاً من مداخل العلـــــم(رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلۡتَ وَٱتَّبَعۡنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكۡتُبۡنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ)**{آل عمران٥٣}**

[٧]-ينظر:الفيروز آبادي،مجد الدين محمد بن يعقوب(١٣٨٧)، **بصائر ذوي التمييز في كتاب الله العزيز**،ت:محمد علي النجار ج٥، ص٣٥٠.

٣-الشهادة بمعنى التضحية والفداء، وتقديم النفس في سبيل الله دفاعاً عن تحرير الإنسان من عبادة العباد إلى عبادة الله **{**إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ) **{آل عمران: ١٤٠}**

٤-الشهادة كوظيفة لهذه الأمة (وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ)**{البقرة١٤٣}**

لنجد أن هذه المعاني مجتمعة قادرة على إيجاد أنموذج إنساني يحقق لها سعادتها في دنياها وآخرتها، وذلك بحسن علاقة الفرد مع ربه سبحانه أولاً، ومع أخيه الإنسان أنّى كان مذهبه ومشربه ثانياً، ومع الكون من حوله ثالثاً، منطلقا على هذه الأرض تعميراً وتحسيناً، مؤدياً دوره خليفة كما شاء له مولاه.

ونخلص من هذا إلى أن الحضارة في القرآن الكريم: هي الحضور والشهادة، ومن ثمّ فإن الحضارة بالمعنى الذي سبقت الإشارة إليه هي حضارة الإسلام، أو حضور الإسلام في الكون، وهذا لا يمنع حضور غيره من الخبرات والتجارب البشرية، لتكون الحضارة بمفهومها العام مطلق الحضور في أماكن تصلح للحضارة، على أن تقدم كل حضارة من الحضارات الأنموذج الأجدر بالاتباع، متجاوزة بذلك أسطورة القول بوحدة الأصل الإنساني، ومن ثمّ وحدة معارفه وعلومه، والتي تجعل من علوم الحضارة الغالبة علوماً عالمية، لأن الإنسان لم يولد ومعه هذه العلوم، وإنما اكتسبها من خلال تفاعله مع

بيئتـه، إذاً فهـذا المفهـوم للحضـارة يعطـي لكـل تجربـة بشـرية خصوصـيتها دون أن يعلـي إحداها على الأخرى إلاّ طبقاً لما تقدمه من أنموذج يتسق مع الفطرة البشرية.[٨]

وهذا ما يقودنـا إلـى البحث فـي المعنـى الاصـطلاحي للمفهوم ومـا دار حولـه مـن اختلاف في الآراء والنظرات حسب القيم والمنطلقات.

المدلول الاصطلاحي:

تفاوتت الآراء في التعريف الاصطلاحي لهذا المفهوم نظراً لتفاوت المنطلقات التـي اعتمـد عليهـا أصـحابها فـي تحديـدهم لمعنـاه ولطبيعتـه وحقيقـة تكوينـه، حيـث يـراه بعضهم وصفاً موضوعياً، بينمـا يـراه آخـرون قيمـة حقيقيـة، ويخلـط فريـق ثالـث بـين هذا وذاك، وسوف أعرض بعضاً من هذه التعريفات:

١-يعرّف ديورنت(*william james Durant*)♦الحضـارة أنهـا: "نظـام اجتمـاعي يعين الإنسـان علـى الزيـادة مـن إنتاجـه الثقـافي وأنهـا تتـألف مـن عناصـر أربعـة:الموارد الاقتصادية، والنظم السياسية، والتقاليد الخلقية، ومتابعة العلوم والفنون، وهـي تبـدأ حيث ينتهي القلق والاضطراب، لأنه إذا ما أمن الإنسـان مـن الخـوف تحـررت فـي نفسـه دوافـع التطلع وعوامل الإبداع والإنشاء[٩]".

ومن الملاحظ أن التعريف جاء جامعاً ومعه شرحه، علماً بـأن ديورنـت خيـر مـن اعتنى بالحضارة، وكتابه(قصة الحضارة)خير شاهد.

٢-أمـا اشـوايتزر♦ *albert aschweitzer* فيُعدُّ الحضـارة" فـي جوهرهـا أخلاقيـة، وكل العناصـر الجماليـة والتاريخيـة والاتسـاع الرائـع فـي معارفنـا الماديـة وقوانـا لا يكوّن جوهر الحضارة، وإنما يتوقف هذا الجوهر على الاستعدادات العقلية عند الأمم والأفراد،

---

[٨]-ينظر:عارف،محمد عارف،**الحضارة**،ص٥٧-٦٢.

♦فيلسوف، ومؤرخ وكاتب أمريكي، من أشهر مؤلفاته قصة الحضارة، وقد شاركته زوجته أريل ديورانت في تأليفه، توفي عام١٩٨١، عن عمر يناهز المائة.

[٩]-ول وإيريل ديورانت(١٩٨٨)، **قصة الحضارة،نشأة الحضارة**،ج١،ص٣،تقديم:د.محيي الدين صابر،ترجمة:د.زكي نجيب،دار الجيل:بيروت .

♦فيلسوف وطبيب وعالم ديني،وموسيقي وفيزيائي ألماني،حصل عام ١٩٥٢ على جائزة نوبل لفلسفته عن تقديس الحياة،من خلال مؤلفه الكبير"فلسفة الحياة" ، من أشهر أعماله تأسيس وإدارة مستشفى في وسط أفريقيا، توفي عام١٩٦٥ عن عمر يناهز التسعين

وما عداها فليس إلاّ ظروفاً مصاحبة للحضارة لا شأن لها بجوهرها[١٠]" فهو يعرّف الحضارة بأنها التقدم الروحي والمادي للأفراد والجماهير على السواء، ويرى بأنها مزدوجة الطبيعة فهي تحقق نفسها في سيادة العقل على قوى الطبيعة، وعلى نوازع الإنسان، ويؤكد أن النوع الثاني هو التقدم الحقيقي في الحضارة[١١].

٣-"وهناك من يرى أن الحضارة في مفهومها العام هي ثمرة كل جهد يقوم به الإنسان لتحسين ظروف حياته، سواءً كان المجهود المبذول للوصول إلى تلك الثمرة مقصوداً أم غير مقصود، وسواءً كانت الثمرة مادية أم معنوية[١٢]."

٤-أما ابن خلدون*-وهو فارس الميدان وأول من أصّل في هذه المسألة-فقد أشار في تعريفه للحضارة إلى الارتباط بين استقرار الحياة وبين المنجزات الناشئة عنه، فعرّفها بأنها:" نمط من الحياة المستقرة ينشئ القرى والأمصار، ويضفي على حياة أصحابه فنونا منتظمة من العيش والعمل والاجتماع، والعلم، والصناعة، وإدارة شؤون الحياة والحكم، وترتيب وسائل الراحة وأسباب الرفاهية[١٣]".

وفي موطن آخر يركز ابن خلدون في تعريف الحضارة على ثمار الاستقرار فيقول: "الحضارة كما علمت هي التفنن في الترف واستجادة أحواله، والكلف بالصنائع التي تؤنق من أصنافه وسائر فنونه[١٤]".

وبالرغم من أننا نلمح من خلال تعريف ابن خلدون أثر الاستقرار كثمرة للجهد الذي يبذله الإنسان لتحسين ظروف حياته، إلاّ أنه يركز على الحضارة بشقّها المادي ومظهرها الفاني، حتى كأنما غدا التحضر عنده قيمة حقيقية يسعى الفرد من خلالها إلى امتلاك كل ما من شأنه أن يرفع من مستوى عيشه، ويحقق له الترف والراحة والاستقرار، لا أن يتخذ من هذه المظاهر وسائط يحقق من خلالها الماهية الحقيقية

---

[١٠]-ينظر:اشفيتسر،إلبرت(١٩٨٠)، **فلسسفة الحضارة**،ص٣،ترجمه عن الألمانية:عبد الرحمن بدوي،دار الأندلس،ط٢.

[١١]-ينظر:المصدر السابق/ص٣٤.

[١٢]-مؤنس،حسين(١٩٨٧):**الحضارة**،ص٣،المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب: الكويت،ولم يذكر صاحب التعريف المصدر مكتفياً بعرضه من غير نسبة.

* أخرت تعريف ابن خلون-رغم كونه أقدمهم زمناً-باعتباره حاملاً للقيمة التي تنطلق منها الدراسة، رغم أن مفهومه جاء بعيداً عنها، ليتم بذلك بيان المفارقة، والربط بين المعنى الاصطلاحي والجوهر القيمي.

٢- ابن خلدون،عبد الرحمن بن محمد(١٩٦٧)،**المقدمة**، ص٢٥٩، دار الكتاب اللبناني:بيروت.

٣-المصدر السابق نفسه، ص١٦٢.

لوجوده، وأن يجعلها الوصف الذي يمكن أن يطلقه على كيفية معاشه دون أن يتجاوزه ليغدو القيمة والهدف والغاية التي يسعى لها على أرضه،وهذا ما يقودنا للحديث عن المقياس القيمي لمفهوم التحضر لنصل من خلاله إلى ماهية المدلول الاصطلاحي الذي تبنى عليه الدراسة.

المقياس القيمي للتحضر:

ما المقياس القيمي الذي به يحكم على هذه المنجزات-بشقيها المادي والمعنوي- ليطلق عليها وصف الخيرية والصلاح، أو الشر والفساد؟

إن أول ما يتبادر إلى الأذهان عند ذكر كلمة الحضارة والتحضر كل معالم الخير ومعاني الصلاح، والحياة الهانئة الهادئة المترفة، هذا المعنى الذي سيطر على التفكير من جرّاء انبهاره بالحضارة الغربية التي غدت الأنموذج الأوحد للبشرية اليوم في آثارها ومنجزاتها وقوة تواجدها، وهذا بالضرورة يقودنا إلى أن نكشف النقاب عن الجانب الآخر الأكثر كلاحةً وقتامةً لهذه الحضارة في بعدها الأخلاقي والإنساني، والذي يدفعنا إلى تقرير الحقيقة الماثلة، وهي كون التحضر وصفاً وليس قيمة، لأنه لا يحمل بذاته كل معاني الخير ومعالمه، بل قد يقود مجتمعه الذي حلّ فيه إلى هاوية الدمار وأراذل الحياة، مما قد يجعل أيّ مجتمع آخر لم يصل إلى ما وصل إليه أكثر حضارةً منه، بما استطاع أن يحققه لأفراده من تآخ وتعاون وتآلف.

ومن هنا يمكننا تقرير واقع أن المنجزات المادية-أيّاً كانت ضخامتها وعظمتها وقوتها-لا يمكن أن تُعدّ مقياساً قيمياً نطلق من خلالها على أصحابها أنهم أصحاب حضارة، فالأهرامات-مثلا-وهي منجزٌ ماديّ ضخم عظيم-لا يمكننا عدّه مقياساً قيمياً للحضارة الفرعونية وقد شُيّدت على أكتاف العبيد واستنزاف إنسانيتهم، كما أنه كم من بناء ضخم بالغ الجمال ما هو في حقيقته إلاّ سجن تسام به الإنسانية ألوان العذاب.

إذاً فالمقياس الحقيقي للتحضر هو ما يحققه لأصحابه من راحة نفس، وهناءة بال، وكرامة عيش، وحسن وصال، أما تلكم المظاهر التي تجلب معها الخوف والقلق والهم والاضطراب فلا يمكن أن تكون بحال من الأحوال تحضُّراً على الحقيقة[١٥]،"

---

[١٥]-ينظر:السامرائي،نعمان عبد الرزاق(٢٠٠١)، **نحن والحضارة والشهود**،ج١،ص١١٧،ط١،وزارةالأوقاف: قطر

فالحضارات إنما تقاس بمدى قدرتها على تحقيق إنسانية الإنسان وتنمية مواهبه وإطلاق ملكاته وانسجامه مع الكون والحياة، والارتقاء به ليُحسن القيام بدوره في البناء الحضاري الذي يكرّم الإنسان ويكرَّم به[16]"، وهذا لن يتأتى إلا من خلال الأسس والمنطلقات التي تقوم عليها الحضارات، لتغدو هذه المظاهر مقاييس ومعايير تدل على صواب المسير واستقامة النهج.

قاعدة تأصيلية:

عملية البناء الحضاري تتطلب قيماً ومعايير مستمدة من مصدر يتساوى الناس أمامه ولا يملك أحدٌ الحق فيها دون الآخر، إلاّ من يؤمن بها ويعمل لها، والإيمان بها متاح للجميع، إنها القيم الخالدة الثابتة المستمدة من خالق الإنسان الذي يعلم حاجاته وخصائصه وطاقاته وغرائزه وما ينفعه وما يضره،(**وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا**){العنكبوت٦٩}[17]،هذه القيم تكمن في فكرة هذا الدين، هذه الفكرة هي "الفكرة الإسلامية، ومصدرها هو الوحي، متمثلاً في نصوص القرآن والحديث، وهذه المصدرية هي مصدرية بناء لمادة الفكرة في كلياتها وجزئياتها، كما أنها مصدرية طاقة لحفظ ذلك البناء والإبقاء على تأثيره وفاعليته في النفوس[18]"وذلك لاشتماله على كل المبادئ والقيم والأخلاقيات اللازمة لانبثاق نظم حضارية في مجالات الحياة كافة، بمنهجية مبتكرة وغير مسبوقة من الحضارات السابقة واللاحقة، وهذا يقودنا بالضرورة عند البدء بدورة حضارية جديدة أن ندرك أهمية الانطلاقة الفكرية لتكون هي ركيزة البنيان وعنصر التأسيس لكي يرتكز الجانب المادي لما نقيمه من حضارة على الجانب الفكري[19].

ومن هنا يمكننا أن نقف على حقيقة سر بقاء بذرة الحضارة الإسلامية نضرةً طريّةً رغم ما لحق بسنة التداول الحضاري بعالم الأشياء في الأمة الإسلامية، ذلكم أن

وينظر:النجار،عبد المجيد(١٩٩٩)، **فقه التحضر الإسلامي**،الجزء الأول من سلسلة الشهودالحضاري،ص٢٣-٢٤،دار الغرب الإسلامي:بيروت،ط١.

[16] -ابن عاشور،محمد الفاضل(٢٠٠٥)، **روح الحضارة الإسلامية**،ص١،الدار العربية للعلوم: بيروت،المعهد العالمي للفكر الإسلامي،الولايات المتحدة الأمريكية،ط٤.

[17] -السامرائي،نحن والحضارة والشهود،ج٢،ص٨٤.

[18] -النجار،**فقه التحضر**،ج١،ص٢٦.

[19] -ينظر:سفر،محمود محمد(١٩٨٠)،**الحضارة تحد**،ص٤٤-٥١،تهامة:السعودية،ط١.

عـالم أفكارهـا وقيمهـا ليسـت مـن وضـعها، وليسـت ملكـاً لهـا، ومـن ثـمّ بقـي الإمكـان الحضاري كامناً فيها.[٢٠]

فالانقطاع الذي تبدت آثاره جليّةً واضحةً اليوم، ليس تاريخياً وإنما هو حضـاريّ، بمعنـى أن"حركـة الحضـارة هـي التـي أصـابها الانقطـاع، أي أن المنظومـة الحاكمـة للحضارة، وجملة المبادئ والقيم الأساسية فيها قد أصابها الانقطاع فلم تعد سائدة ومؤثرة بل تراجعت وظهر بدلا منها منظومة أخرى قُدّر لها أن تحوز قدراً هامّاً من السيادة والسيطرة على مصير الأمة[٢١]".

ويرجع السبب في ذلك إلى خمود الفاعلية وانطفاء شعلة الإيمان، وضلال منهج الفهم، وعدم القدرة على التعامل مع القيم الثابتة وتنزيلها على حياة الناس في الواقع عقيدةً مُوجّهةً لجميع مناشط الإنسان[٢٢]"، وتقويم سلوكهم ومجتمعاتهم بها، وإبداع البرامج والأوعية لحركة الحياة[٢٣]"، إننا لا نزال نعيش مرحلة الشعارات في معظم المجالات، مع الاستمرار في حالة العجز عن الوصول إلى البرهان وتحويل هذه الشعارات إلى برامج وخطط تأخذ في اعتبارها الإمكانات المتاحة، والظروف المحيطة،والزمن المطلوب، فنحن كثيراً ما نحسن الموت في سبيل الله ولكننا قليلاً ما نحسن الحياة في سبيل الله[٢٤].

فالحضارة ليست أماني،وأحلام يقظة ومكوثاً في غرفة الانتظار، وإنما هي أمانة استخلاف وعزمة بناء، وتراكم معرفي، واكتشاف للسنن الفاعلة في الأنفس والآفاق، وممارسة لعملية التسخير[٢٥].

وإنما يتحقق البناء الحضاري بحفظ الله لاستمرار قيم الوحي سليمة، والتي كلما تفاعل معها الإنسان بشكل صحيح أثمرت الحضارة، وكلما أصيب منهج العقل في

---

[٢٠]-ينظر:السامرائي،**نحن والحضارة والشهود**،ج٢،ص١٩-٢١.

[٢١]-المصدر السابق،ج١،ص١٦٧.

[٢٢]-ينظر:النجار،عبد المجيد،**فقه التدين فهماً وتنزيلا**،ج٢،ص٨-١٥، رئاسة المحاكم الشرعية والشؤون الدينية: قطر،ط١.

[٢٣]-السامرائي،**نحن والحضارة والشهود**،ج١،ص١٦.

[٢٤]-ينظر:حسنة،عمر عبيد(٢٠٠٣)،**الوراثة الحضارية**،ص٨-١٠،المكتب الإسلامي:بيروت،دمشق،عمان،ط١.

[٢٥]-ينظر:المصدر السابق،ص٣١.

التعامل معها كان التخلف، وهذا لا ينفي إمكانية إعادة البناء في كل زمان ومكان كلما توفرت وسائل إحداث التفاعل بين الإنسان والإسلام[٢٦].

ورسوخ هذا البناء الحضاري ما هو إلاّ تعبير أصيل عن قيم الأمة وتجسيدٌ حيٌّ لكيانها، وبقاء الحضارات وديمومتها رهنٌ دائماً بوجود هذه القيم، وديمومة تلك المبادئ[٢٧].

وأخيراً أقول:

حين تكون الحاكمية العليا في مجتمع لله وحده، تكون هذه هي الصورة الوحيدة التي يتحرر فيها البشر تحرراً كاملاً وحقيقيّاً من العبودية للبشر، وتكون هذه هي الحضارة الإنسانية التي تقتضي قاعدة أساسية من التحرر الحقيقي الكامل للإنسان، ومن الكرامة المطلقة لكل فرد في المجتمع،وهذا لن يكون في مجتمع بعضه أرباب يُشرّعون، وبعضه عبيد يطيعون.

ومن ثمّ فإنه يمكننا القول، إن المجتمع الإسلامي الذي يحيا الإسلام بروحه وجسده وكيانه كله هو وحده المجتمع المتحضر{إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۚ أَمَرَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ }[٢٨]"يوسف٤٠"

---

[٢٦]-ينظر:ابن عاشور،**روح الحضارة**،ص٥-٨.

[٢٧]-ينظر:سفر،محمود محمد(١٩٨٨)، **دراسة في البناء الحضاري**،ص٤٧، رئاسة المحاكم الشرعية: قطر،ط١.

[٢٨]-ينظر:قطب،سيد(١٩٦٤)،**معالم في الطريق**،ص١٣٩-١٤٨،مكتبة وهبة:مصر،ط١.

المبحث الثاني: القصة القرآنية

المطلب الأول:أهمية القصة القرآنية:

ترجع أهمية القصة القرآنية-من منظور هذه الدراسة- إلى اعتبارها مخزناً للتجارب البشرية، وميداناً تعرض فيه السنن النفسية والاجتماعية، ومقياساً تظهر من خلاله شروط قيام المجتمعات ونهوضها وتدهور الأمم وسقوطها، حتى جاز لنا أن نقرن بين القصص والسنن[٢٩]، ومن هنا فإن على كل طامح لإحداث تغيير في مجتمعه وإعادة بناء حضارة لأمته أن يلم بهذا التاريخ الإنساني العظيم ليتجنب الوقوع في عثرات مميتة، وسقطات قاتلة تهوي به قروناً أُخر، ليدرك من خلالها أن القصة في القرآن ما هي إلا قانون اجتماعي إذا حدثت مقدماته وقعت نتائجه، تماماً كأن يكون مصير كل فرعون جديد هوالمصير ذاته لفرعون القديم.

فالتجربة الحضارية التاريخية الإنسانية المتجلية من خلال القصة القرآنية، تجربة غنية بكل النماذج البشرية، مؤطرة بأعظم القيم المعيارية المتأتية من معرفة الوحي والخارجة عن دائرة إدراك الإنسان وعلومه الضيقة، لترسم معالم الانحراف والاستقامة بعيداً عن وضع الإنسان ومسوّغاته وانحيازه لإنتاجه، الأمر الذي يجعل من هذا المخزون الضخم أعظم رصيد حضاري لتقويم مسيرة الحاضر وإبصار المستقبل[٣٠] إذ إن بدء التجربة دائماً من نقطة الصفر ما هو إلا إهدار لطاقة الجماعات وجهدها ووقتها[٣١].

والسائر في درب البناء لا ينفك عن النظر في الماضي السحيق مغترفاً من علومه وتجاربه ليجد في سيرة أنبياء الله ورسله خير مرجع له، إذ تشكّل بمجموعها النموذج الكامل للحياة البشرية بكل تقلباتها وتطورها وتنقلاتها من طور إلى طور[٣٢]، ناهيك عن اهتمام طرح هذه العروض التاريخية في القرآن لدور الأقوام كجماعات تلعب

---

[٢٩]-ينظر:زايد،فهد خليل(٢٠٠٧)،**أسرار القصة القرآنية**،ص٢٩،دار يافا العلمية،الأردن:عمان، وينظر:الغزالي،عبد الحميد(٢٠٠٠)،**حول أساسيات المشروع الإسلامي لنهضة الأمة/**قراءة في فكر الإمام البنا،ص٢٢، المركز الإسلامي للدراسات والبحوث:دار التوزيع والنشر الإسلامية

[٣٠]-ينظر:حسنة،**الوراثة الحضارية**،ص٣٩-٤٠

[٣١]-ينظر:خليل،عماد الدين(٢٠٠٥)،**التفسير الإسلامي للتاريخ**،ص٦،مطبعة الميناء:بغداد،ط٢

[٣٢]-ينظر:الزين،سميح عاطف(٢٠٠٥)، **قصص الأنبياء في القرآن الكريم**،ص٨-٩،مجمع البيان الحديث،دار الكتاب المصري:القاهرة،ط٧

دورها الحاسم في حركة التاريخ[٣٣]، فهي في مجملها تبين كيف تقدمت الأمم وتوسعت الحضارات حين أخذت بهدي السماء، وماذا أصابها من تأخر وسقوط حين تركت شرع الله، لتتجلى منهجية القرآن في الربط بين عمارة الأرض والأخذ بهدي الأنبياء عليهم السلام[٣٤] **"وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ"{النحل ١١٢}**

وقد ورد التعبير عن القصص في القرآن الكريم في مجال الأخبار الواردة عن الأمم السالفة وذلك بناءً على تحليل المادة اللغوية لها، "فالقص:هو تتبع الأثر واقتفاؤه، يقال:قصّ أثره أي:تتبعه[٣٥]" و"القصة هي الخبر، وقصص الحديث:روايته على وجهه[٣٦]" ليكون في بيان هذا الأصل ردٌّ على أولئكم الذين ادّعوا أسطورة القصة القرآنية وخيالية العناصر التي بنيت عليها، وأن كلَّ ما يمكن استنباطه من أهداف من خلال عرضها إنما يأتي بعيداً عن صدق تاريخيتها أو تحقق وقوعها[٣٧].

وقد حوى القرآن الكريم كلَّ ما تحتاجه البشرية عبر حياتها على وجه الأرض بأساليب متنوعة وطرائق متعددة، لتكون القصة أحد أبلغ أساليبها بما فيها من حبكة مشوّقة، وأحداث مؤثّرة ونسج بلاغي فريد متميز، حتى إنه ليبدو للقارئ للقصة يتبدى له أنه يقرأ واقعا يحيا فيه، لأن مشكلات العالم مهما تباينت الظروف واختلفت الأزمان، واحدةٌ في أصلها، متكررةٌ بصور شتى[٣٨] يصل المتأمل فيها إلى امتلاك القدرة على بلورة المشكلة وإعطائها حجمها المناسب لها، لا كما ادّعى المدّعون أنها محضُ خيال لا أصل له في الواقع، ليبتروا بقولهم هذا ثلث القرآن الكريم عن واقع الحياة، وهي النسبة التي يشكّلها القصص في كتاب الله سبحانه.

---

[٣٣]-ينظر:عماد الدين خليل،**التفسير الإسلامي للتاريخ**،ص١٠٢

[٣٤]-ينظر:السامرائي،**نحن والحضارة والشهود**،ص١١١

[٣٥]-الأصفهاني،الحسين بن محمد(٢٠٠٥)،**المفردات في غريب القرآن**،ص٤٠٥،ت:محمد خليل عيتاني،دار المعرفة:بيروت،ط٥

[٣٦]-الكفوي،أبو البقاء أيوب بن موسى(١٨٣٧)،**الكليات**،ص٧٣٤،دار الطباعة:القاهرة

[٣٧]-ينظر:خلف الله،محمد أحمد(١٩٩٩)،**الفن القصصي في القرآن الكريم**،ص٢٩،ت:خليل عبد الكريم،دارسيناء،ط٤

[٣٨]-ينظر:الوكيل(١٩٩٤)، **نظرات في أحسن القصص**،ج١،ص٦-٨،دار القلم: دمشق،ط١

على أنه-أي القصص-جاء ليواجه مقتضيات الحركة والمعركة وسيرها في مراحلها المختلفة مواجهةً فاعلة[٣٩]، مُخرجاً للبشرية دقائق الأحداث التي كان لها الأثر الكبير على استمرار الوجود الإنساني[٤٠]، لتشرق نفس المؤمن وتعلو همته بنسبه العريق الضارب في شعاب الزمن، إنه واحدٌ من ذلكم الموكب الكريم الذي يقود خطاه ذلك الرهط الكريم نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد صلّى الله عليه وسلم[٤١] **"وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ"**{المؤمنون٥٢}

المطلب الثاني:خصائص القصة القرآنية:

يعرف القصص القرآني بخصائص لا مثيل لها من حيث الأسلوب والمحتوى الذي يتميز بالتفصيل تارةً، والإيجاز تارةً أخرى، ضمن إطار لفظي عام يصبغه بالسلاسة دونما تعقيد، ليحمل بين طياته الهدف الأصيل الذي سيق له والذي سبقت الإشارة إليه، ألا وهو التركيز على العوامل والأسباب الحاسمة التي تؤدي إلى حدوث صدع ما في مجتمع من المجتمعات، ومن ثمّ محاولة الوقوف على طرائق علاجها وسُبل رأبها، حيث تستخدم هذه القصص معايير للمعالجة لتشابه المشكلات في جوانبها المتعددة، مع تباين الأزمنة واختلاف الظروف[٤٢].

لذلك نجد أنّ هذه السنن والنواميس المنبثة في قصص القرآن الكريم "لا تتحدد بجزئيات وتفاصيل موقوتة، بل تمتد وتمتد مرنة منفتحة شاملة لكي تضمَّ أكبر قدر من الوقائع، وتلامس أكبر عدد من التفاصيل والجزئيات، وتبقى دائماً الحصيلة النهائية والدلالات الكبرى لحركة التاريخ[٤٣]"، فلا تتعرض بأكثر مما قُصد منها سواءً من موعظة وتربية، أو لبيان كيفية نشوء المجتمعات الإنسانية ودورات الرقي والانحطاط فيها، مصيبةً الهدف الذي سيقت لأجله دونما زيادة مملة أو نقصان مخلّ[٤٤]، لنصل إلى تأكيد حقيقة أن الحذف في القصة ليس للإيجاز، وإنما لتحقيق معنىً مهمّ بتكثيف أحداث

---

[٣٩]-ينظر:مقلد،طه عبد الفتاح،**القصص القرآني بين المفسرين والقصاص قديماً وحديثاً**،ص٦١،دون(ط-ت)

[٤٠]-ينظر:الزين،**قصص الأنبياء في القرآن**،ص١٣

[٤١]-ينظر:الطيبي،عكاشة عبد المنان(١٩٩٢)، **قصص القرآن من ظلال القرآن**، ص٥، دار اليوسف: بيروت، لبنان

[٤٢]-ينظر:الدجاني،زاهية راغب(١٩٩٣)، **أحسن القصص بين إعجاز القرآن وتحريف التوراة**،ص٦-٧،دار التقريب بين المذاهب الإسلامية:بيروت،ط١

[٤٣]- عماد الدين خليل،**التفسير الإسلامي للتاريخ**،ص١٠٩

[٤٤]-ينظر:الدجاني، **أحسن القصص**،ص٧،وينظر:الزين،**قصص الأنبياء**،ص٣١

العرض وإبراز رؤوسها والإبانة عن دقائقها، لضمان أكبر قدر من الإثارة والتأثير في المتلقي[٤٥]، وهذا ما يؤكده قوله تعالى: **"وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ"{غافر٧٨}**من أن كتاب الله ما جاء مستقصياً محصياً وإنما مقدماً الخطوط العريضة لمسيرة التاريخ البشري[٤٦].

وممّا يبدو للمتأمل في قصص القرآن جليّاً واضحاً ما أطلق عليه مصطلح(التكرار)والذي عمد كثيرٌ من علمائنا إلى بيان أسبابه، وتجلية أغراضه، ممّا لا ميدان لذكره في دراستنا، إلاّ أنه من الجدير بالذكر الوقوف على طرف يعنينا في هذا المجال، فإن تكرار القصة في مواضعها المختلفة من القرآن الكريم إنما جاء لاستكمال مشهدها في جوانبه المتعددة، مسلطاً الضوء في كل مرة على زاوية تنطق ألفاظها بسنة كونية تبقى ما بقيت الحياة، بعيدة كل البعد عن تكرار ألفاظها، ذلكم لأنّ الوقوف على السنن الاجتماعية وإدراكها، وبيان عوامل نهضة الأمم والتبصُّر بها، وهلاك المجتمعات ومعرفة أسبابها، لمن الأمور الشّاقة التي تحتاج إلى أجيال وأجيال[٤٧]، تمعن النظر في كتاب الله وتستنطق آياته،مستخرجة ما فيها من عبر.

وإذا كانت تلك المعاني والدلائل قد جاءت في السور القرآنية متفرقة في مواضع شتّى، فإنها وردت على هذا النحو لتلائم الظروف والأحداث[٤٨]، وترمي إلى تذكير الإنسان بالمعية الإلهية في كل حال[٤٩]، وتدله على ما يمكن أن نسميه(وحدة التاريخ)من وجه و(وحدة الإنسان)أو الإنسان الواحد من وجه آخر، ليقف على هذه الوحدة منتفضاً مما علق به من اختلاط عالم الأشياء بعالم الأفكار، ظنّاً منه أنّ أولاهما تغني عن الأخرى[٥٠]، ليبرز من خلال ذلكم كله الطابع الأزلي لتلك القصص والتي يصلح تطبيقها في كل زمان ومكان[٥١].

---

[٤٥]-ينظر:الظواهري،كاظم(١٩٩١)، **بدائع الإضمار القصصي في القرآن**،ص٧،ط١

[٤٦]-ينظر:عماد الدين خليل، **التفسير الإسلامي للتاريخ**،ص١٠٦

[٤٧]-ينظر:زايد،**أسرار القصة القرآنية**،ص٢٩

[٤٨]-ينظر:الزين،**قصص الأنبياء في القرآن الكريم**،ص٩

[٤٩]-ينظر:الدجاني،**أحسن القصص**،ص٧

[٥٠]-ينظر:زايد،**أسرار القصة**،ص٥٢-٥٣

[٥١]-ينظر:الدجاني،**أحسن القصص**،ص٧

وبذلك يمكننا أن نخلص إلى القول بأن الأسلوب الفني في العرض والتحليل ليس سوى جسر تحمل عليه العروض والنتائج النهائية لأية ممارسة في حقول التاريخ[٥٢].

المطلب الثالث:أغراض القصة القرآنية:

القصص القرآني ليس لمجرد التسلية والاستمتاع وإنما هو معروض لتحقيق أهداف عقدية وعلمية وفكرية وتربوية ودعوية **"لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب"**{يوسف١١١".

وقد تعددت أغراض القصة بدءاً من تثبيت العقيدة في النفوس وإثبات صدق الرسول صلى الله عليه وسلم وما جاء به، وبيان منزلة المهتدين، وحال الضالين، وإظهار مواطن الأسوة الحسنة والنماذج الرائدة وتتبع آثارهم، وتوجيه الدعوة الإسلامية في طريقها الشائك الطويل والكشف عن نهاية هذا الطريق ورسم معالمه في مراحله جميعاً، بل إنها تناولت جميع أنواع التربية والتوجيه على الإطلاق، تربية الروح والعقل والجسد بوسائلها المختلفة، القدوة تارةً والموعظة تارة أخرى وفصّلت في أسباب السعادة الروحية وأسباب الرقي المادي، وأن التدين الحق لا ينفك عن الحياة العملية، وعلّمت أدب الحوار والمناقشة، إضافة إلى تضمنه الكثير من الحقائق العلمية المتعلقة بالكون والإنسان والحياة والأحياء في السماوات والأرض[٥٣].

إلاّ أن الحكمة من وراء هذه العروض تكمن في بلورة عدد من المبادئ الأساسية في حركة التاريخ البشري، مستمَدّةً من صميم التكوين الحدثي لهذه العروض، تلك المبادئ سمّاها القرآن(سنناً) ودعانا إلى تأملها في أفعالنا الراهنة ونزوعنا المستقبلي، **"سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا "{الأحزاب٦٢}** فالقرآن

---

[٥٢]-ينظر:عماد الدين خليل، **التفسير الإسلامي للتاريخ**،ص٩

[٥٣]-ينظر:عباس،فضل حسن(١٩٩٢)،**القصص القرآني إيحاؤه ونفحاته**،ص١٠-١١،دار الفرقان:عمان،الأردن،ط٢ وينظر:حافظ،عماد زهير،**القصص القرآني بين الآباء والأبناء**،المقدمة،دار القلم:دمشق،وينظر:قطب،محمد(١٩٨١):**منهج التربية الإسلامية**،ج١،ص١٩٤،دار الشروق:بيروت،القاهرة،ط٥، وينظر:مقلد،**القصص القرآني**،ص٤-٢٤،وينظر:الظواهري،بدائع الإضمار،ص٢٣- 24 ،وينظر:الخالدي،صلاح(١٩٨٨)، **القصص القرآني عرض وقائع وتحليل أحداث**،ج١،ص٣١-٣٦،دار القلم: دمشق،الدار الشامية: بيروت،ط١.

الكريم لا يؤكد ثبات هذه السنن وديمومتها فحسب ولكنه يحوّلها في الوقت نفسه إلى دافع حركي يفرض على الجماعة المدركة الملتزمة تجاوز مواقع الخطأ التي قادت الجماعات السابقة إلى الدمار، مثيرة الفكر البشري دافعةً إيّاه إلى التساؤل الدائم والبحث الدائب عن الحق، بما تقدمه من خلاصة التجارب البشرية،عبراً يسير على هديها أولو الألباب لتزيح بذلك ستار الغفلة والنسيان في نفس الإنسان وتصقل ذاكرته وقدرته على المقاومة، إضافة إلى ما تقدمه من دليل على علم الله الواسع الذي أحاط بحركة التاريخ ماضياً وحاضراً ومستقبلاً، لنلتقي بآياته سبحانه وهي تطلب من أية جماعة معاصرة أن تسير في الأرض لكي تنظر لا أن تنظر فحسب، وأن تتعلم من هذا السير السنن التي حاقت بالذين خلوا من قبل من أجل بناء عالم لا تدمره تجارب الخطأ والصواب التي دمرت أمماً وجماعات وشعوباً **"قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ "{آل عمران١٣٧}**هذا النظر لن يفيد منه إلاّ أولئكم الذين يشحذون حواسّهم وقدراتهم العقلية كافة كي يستخلصوا المعنى والمغزى ويسيروا على هداها **"فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ "{النمل٥٢}**[٥٤]

المطلب الرابع:البناء التنظيري لمفهوم"البناء الحضاري في القصص القرآني":

مفهوم البناء الحضاري في القصص القرآني يراد به في هذه الدراسة:إنزال التنزيل على الواقع، وبيان التأثير الإيجابي والحركة الفاعلة للآيات في جنبات الحياة، وذلك من خلال النظر العميق الذي يشمل باتساعه الأزمان الثلاثة:الماضي استفادة وعبرة، والحاضر معطيات وأوضاعاً يقصد علاجها، والمستقبل آثاراً ومظاهر باعتبار أن هذه الأزمان الثلاثة إنما هي وحدة حيوية تحكمها قوانين واحدة[٥٥].

ويتحرك هذا المفهوم ضمن ثلاث دلالات محورية هي:

١-المنطق الداخلي الذي يحكمه والذي يجعل منه هيكلاً قائماً بذاته يصعب ذوبانه في غيره من المفاهيم، والروح الإيمانية التي تهيمن عليه مظهرةً أن لا صلاح

١-ينظر:خليل،**التفسير الإسلامي للتاريخ**،ص٩٧-١١٣

[٥٥]-ينظر:النجار،**فقه التحضر**،ص٦٣،وينظر: خليل،عماد الدين، **التفسير الإسلامي للتاريخ**، ص١٤

لهذه الأرض ولا راحة للبشرية ولا تناسق مع سنن الكون إلاّ من خلال منهج الله سبحانه، فالتاريخ بالنسبة له "هو التجسيد العملي للعقيدة، والتجلي أو الاستجابة للقيم في سائر الأنشطة الإنسانية، كما أنه المختبر الحقيقي للمبادئ والأفكار[٥٦]" لذا فهو لا يقيم وزناً لأولئكم الزاهدين في التراث والذين يرون فيه عقبةً كبيرة لاهثين وراء حضارة اليوم رامين خلف ظهورهم كل انتماء لهم أو تميز لهويتهم[٥٧]، كي يحقق بهذا الفهم للأمة حضورها الحيّ الذي يعلو على وجودها القائم، ذلكم الحضور الذي يستلزم تقديم نموذج للإنسانية يصلح الاقتداء به[٥٨].

٢-الإطار المرجعي الذي تؤول إليه منطلقات هذا المفهوم وتقف تحت سقفه مع الأخذ بعين الحسبان أن "التاريخ لا يكتسب أهميته الإيجابية إلاّ بأن يُتّخذ ميداناً للدراسة والاختبار[٥٩]"،فصناعة المستقبل يبدأ رسمها ونسجها من خيوط الحاضر، ويستشرف لها الماضي بكل عبره ودروسه[٦٠]،وهنا لا بدَّ من الاعتراف أنّ الحضارة الغالبة اليوم هي تلكم التي تمكنت من تحقيق إنجازاتها المادية على أعلى المستويات حتى وصلت إلى الحد الذي يصعب معه مجاراتها، ناهيك عن السطوة عليها،هذا السبق الذي أورثها لوناً من الارتهان الثقافي للأمم الأخرى والذي بدأ يغرق حياتهم، وخطورة الأمر تكمن في أن الوجهة الكونية للحضارة المعاصرة تحاول جعل التداول الحضاري-والذي هو سنة كونية-تتحرك على محورها وتدور في فلكها[٦١].

وعند هذه النقطة تتجلّى أهمية الرجوع إلى مرجعية تُثبّت القيم في النفس وتحفظ التوازن للروح حين نرى أن اتّباع القوانين الطبيعية يؤدّي إلى النجاح مع مخالفة القيم الإيمانية، إلاّ أنّ الحقيقة تكمن في نهاية الطريق، حيث تظهر النتائج، فهذه الحضارة بكل زخرفها تتهاوى في قيعان القلق والاضطراب والأمراض النفسية[٦٢]، ذلكم أن مفهوم الرؤية الوضعية للحضارة المعاصرة كان يقتصر على الاقتباس أو الاختيار من الماضي

---

[٥٦]-حسنة، **الوراثة الحضارية** ،ص٨٥

[٥٧]-ينظر:السامرائي، **نحن والحضارة والشهود**،ص٨٩

[٥٨]-ينظر:عارف،نصر،**الحضارة**،ص٦٠

[٥٩]- خليل،عماد الدين،**التفسير الإسلامي للتاريخ**،ص٩

[٦٠]-ينظر:حسنة،**الوراثة الحضارية**،ص٩١

[٦١]-ينظر:المصدر السابق نفسه،ص٥٣-٥٤

[٦٢]-ينظر:الطيبي، **قصص القرآن**،ص١٢

معزّزاً وجهات نظره الحاضرة، أما الرؤية القرآنية والمرجعية الأصلية فتدعو إلى الإحاطة بالماضي لترجمته إلى قواعد وسنن تطرح بين يدي أبناء الحاضر[٦٣].

٣-المقاصد الحركية لهذا المفهوم من خلال ترجمة منطلقاته إلى وقائع تعمل في ميادين الحياة وتدير دفتها، فالقصص القرآني والذي يمثل تاريخ النبوّات ويُبصّر بتضاريس السقوط والنهوض، حدثنا عن الأنبياء الذين سعوا دوماً إلى أن يقدّموا لأقوامهم الدور المفقود في حياتهم والمطلوب لسعادتهم، لا أن يسابقوهم في اقتناء المُتع والتقلب بين اللذائذ[٦٤].

إن القفز فوق التجارب السابقة وعدم اعتبارها والالتفات إليها والنظر في علل الأشياء التي أوجدتها، يعني المزيد من التعثر والإخفاق[٦٥]، لأجل ذلك يلفت القرآن الأنظار دوما إلى إمكانية ترتيب النتائج على مجموعة وقائع معينة من التاريخ اعتماداً على استمرارية السنن التاريخية ودوامها وتأكيداً على ثباتها وبيان كونها من صميم التركيب الكوني[٦٦]، تلكم السنن التي لا تحابي أحداً ليكون للمتأمل فيها القدرة على الانتفاع بها.

وأخيراً:

يمكننا أن نخلص من خلال قوله تعالى:"**وتلك الأيام نداولها بين الناس**. . ."إلى عموم هذا القانون أو السنة التي لا محيص عنها، ويدلنا على ذلك قوله سبحانه(**بين الناس**)حيث توحي هذه المداولة بالحركة الدائمة والتجديد والأمل الذي يرفض السكون[٦٧] ويرغب في الانطلاق نحو الفعل الحضاري الإيجابي الذي يمكّنه من استعادة ذاتيته الحضارية، هذا الشهود الذي يتطلب "تحديد المداخل الحضارية ومنح الحضارة حاجتها المفقودة لاسترداد إنسانية الإنسان والتحوّل من الاهتمام بأشياء الإنسان-وهي مهمة بلا شك-إلى التوجه لترقية خصائص الإنسان وتحقيق سعادته[٦٨]".

---

[٦٣]-ينظر: خليل،عماد الدين،**التفسير الإسلامي للتاريخ**،ص١٤

[٦٤]-ينظر:حسنة،**الوراثة الحضارية**،ص٥٥-٨٦

[٦٥]-ينظر:الفاضل ابن عاشور،**روح الحضارة الإسلامية**،ص١٠

[٦٦]-ينظر: خليل،**التفسير الإسلامي**،ص١٠٩

[٦٧]-ينظر:الغزالي،عبد الحميد،**حول أساسيات المشروع الإسلامي لنهضة الأمة**،ص٧١

[٦٨]-حسنة،**الوراثة الحضارية**،ص٥٦

الفصل الثاني: مقوّمات البناء الحضاري في القصص القرآني:

المبحث الأول: فاعلية الاعتقاد

المبحث الثاني: سموّ الأخلاق

المبحث الثالث: الإعداد المادي المتين

المبحث الرابع: الروح الجماعية

المبحث الخامس: سموّ العلم

المبحث الأول: فاعلية الاعتقاد

إذا نظرنا إلى أيّ بناء فإننا ندرك وعلى الفور أنّ المقوّم الرئيس لوجوده والقدرة على استكماله إنما تَكْمن حقيقتها في هذا الإنسان، الإنسان الذي على يديه تشهد الحياة بناء حضارات وانهيارها،علوّها وسقوطها، الإنسان الذي بإرادته وهمته وعمق إيمانه يستطيع أن يبدّل الموازين ويقلب المعالم، كما أن بارتكاسه وانهزامه يستطيع أن يضيّع كلَّ عظيم ويفني كلَّ ثمين.

غير أنَّ هذا الإنسان لا شكَّ محكومٌ بمعايير، ومحاطٌ بقدر غير قليل من القيم والثوابت، التي تصنع منه عامل هدم أو عامل بناء.

فنهضة الأمم ورقيّها تتوقف على جهد الأفراد وكدحهم وثمرة بذلهم، إضافةً إلى المنهج الذي يضبط جماعتهم، ويقوّم سيرهم، وليس كعقيدة الإيمان بالله منهجاً يمكن للحياة أن ترقى في ظلّه.

إلاّ أن هذا لا يعني أن الأمم التي تنحرف بسيرها عن الله مع استمرار أفرادها في بذل الجهد والطاقة أنها لن تتمكن من النهضة أو الرقيّ، فإن سنة الله جارية في خلقه ويبقى الفارق:

أن أهل الإيمان تبقى حضارتهم ما تألقت عقيدتهم، وأهل البغي لا تكاد حضارتهم تبلغ ذروتها حتى تتبدّى عوامل زوالها بانتكاس الإيمان بها في قلوب أبنائها(وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ) {الأعراف:٩٦}

ومن هنا جاء الحديث عن المقوّمات-بمعنى الدعائم- التي لا بد منها للفرد الإنسان، كي يتمكن في ظلها من ممارسة البناء الذي يرجوه لأمته، هذه المقوّمات التي ما توفرت في جيل من الأجيال إلا وتحقق على يديه حضارةٌ كانت أنموذجاً للبشرية ومرآةً لمن بعده.

"وإذا تسنّى لنا بالتحليل والتدبر أن نكتشف في الإيمان عناصر قوة فعّالة، أمكننا أن نفسّر سوالف النهضات الدينية، ونقدّر إمكانات في المستقبل على أساس من الإيمان، مع مراعاة الظروف الراهنة في كل عصر"[٦٩] **(مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) {النحل:٩٧}**

ولنبدأ بأولى هذه المقوّمات وأهمها والأصل فيها على الإطلاق...**العقيدة**

وعندما نتحدث عن العقيدة – باعتبارها مقوّماً من مقوّمات بناء حضاري- وتشييد أمة تتسم بأعظم ما اتسمت به الأمم السابقة أو المعاصرة لها، فإننا نتحدث بذلك عن أساس يقوم عليه ذلكم البنيان المُطمح تشييده، كما أننا في ذات الآن نتحدث عن سقف يظله وسياج يحيط به من كل حدب وصوب.

فهي في حقيقة الأمر جوهر البناء وغايته، وأفقه وأمله، وحاميه والضامن لبقائه وارتقائه، لذا سنلمح هذا المقوّم لا يكاد يفارقنا في دراستنا كلها، في أدق دقائقها،وأسمى مطالبها،وسنرى أنفسنا واقفين إزاءه وقفة الجزيء الصغير أمام المركّب الكبير الذي لا يملك عنه فكاكا، وإلا فقد بفقدانه كل خصائصه وسماته التي بها وجوده وأصل كيانه.

"فالعقيدة مسرحها الحياة الإنسانية جميعاً، وحيثما وجد المؤمن نفسه فعليه أن يمارس دينه، أن يعبد الله، أن يحقق عقيدته ويزكيها متفاعلاً مع واقع الوجود، فالدين لم يشرَّع للإنسان في فراغ، وإنما يتحقق من خلال العيش في الأرض والتفاعل مع أشيائها وبشرها، ولئن كان من العبادة أشكال مقررة مسنونة أدعى وأخلص لذكر الله فإنما ذلك هو النصاب الأدنى الذي يضمن للإنسان أصلاً من التدين، ثمّ يلتمس وجوه العبادة وراء

---

[٦٩]- الترابي، حسن(١٩٨٣):**الإيمان وأثره في حياة الإنسان**،ط١٣ص١٣،الكويت:دار القلم.

ذلك عبر مختلف أشكال الحياة وأعمالها، فإذا كمل إيمان المرء وخلصت عبوديته لله سرت روح الدين في حياته جميعاً[٧٠]".

"فالعقيدة-وهي عالم الأفكار والرؤى-كانت وما تزال المحور الأساس الذي يتمحور حوله الإنتاج الفكري والثقافي، ويشكّل في الوقت نفسه الدافع السلوكي والمحرّض الحضاري ودليل العمل[٧١]".

ونحن في هذا المبحث سنتحدث عنها كقوّة دافعة تثور في أعماق صاحبها، لتحيل منه طاقةً فذّة تصنع من خلاله العجائب، يرسم لها التاريخ صوراً تبقى ما بقيت الحياة، إلاّ أنها لا تدخل عالم المستحيل لأنها قابلة للتجدد والتوالد متى وجدت أعماقاً نقيّة قادرة على احتضان هذه العقيدة، والسير بها،والصبر على تكاليفها، وبذل الغالي ثمناً لها.

ولو تتبعنا بدايةً العقيدة باعتباره مفهوماً له دلالته اللغوية، وإيماءاته كمصطلح، لوجب علينا أن نقف عنده لنرسم معالم محدودة له، حيث ذكرت القواميس اللغوية عند مادة (عقد)أن هذا الفعل "يفيد معاني عديدة مثل:الربط،والإبرام، والإحكام، والإلزام، والتأكيد، والتوثيق، والشد بقوة، والتصديق، والضم، والجمع بين أطراف الشيء، والإلصاق[٧٢]".

أما في الاصطلاح:فالعقيدة "هي الأمور التي يجب أن تصدّق بها النفوس، وتطمئن إليها القلوب وتكون يقيناً عند أصحابها، لا يمازجها ريب ولا يخالطها شك[٧٣]".

وبذا نلمح أن التعريف الاصطلاحي إنما كان امتداداً في حقيقته لما ورد في التعريفات اللغوية،من معان وأبعاد.

والعقيدة الإسلامية -على وجه الخصوص-تشمل الاعتقاد بأركان الإيمان، أو ما تعرف بأصول العقيدة، وهي التي حددها الرسول –صلى الله عليه وسلم-في حديث

---

[١]- الترابي، **الإيمان وأثره في حياة الإنسان**، ص١٠، بتصرف.

٢- حسنة، **الوراثة الحضارية**، ص/٧٩.

١- ينظر:ابن منظور،جمال الدين محمد مكرم،**لسان العرب**،مادة عقد،ج٤،ص٣٠٣١-٣٠٣٢،وينظر:الأصفهاني، **المفردات**،ص٣٤١،وينظر:أبو جيب،سعدي(١٩٨٢):**القاموس الفقهي لغة واصطلاحا**،ط١،ص٢٥٥-٢٥٦،دمشق:دار الفكر.

[٧٣]- الأشقر،عمر سليمان(١٩٨٣):**العقيدة في الله،ط٤**،ص٩،مكتبة الفلاح، الكويت،بتصرف يسير.

جبريل المشهور، إذ ورد فيه: "فأخبرني عن الإيمان، قال صلى الله عليه وسلم:أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشرّه"[٧٤]

إلاّ أن هذه الأركان ما جاءت على لسان قائد هذه الأمة-صلى الله عليه وسلم- لتكون في صورة نظرية باهتة، تحفظها الألسن لتنطق بها دون أن تعيها أو تتفاعل معها، وإنما أنزلت لتكون الشعاع الذي يلامس أفئدة معتنقيها فتحيل منهم عناصر فاعلة، تدفع بمقدرات أمتهم نحو القمة، وتياراً دافقاً يوجه مسار التاريخ، ليتلاحم الإنسان في جانبه الفطري والإرادي من جهة ، مع الكون من جهة أخرى، ممثلاً بذلك قمة التقدم الذي يمكن للبشرية أن تصل إليه أو تتناهى عنده.

يقول ابن خلدون: "إن المعتبر في هذا التوحيد ليس هو الإيمان فقط الذي هو تصديقٌ حكمي،

وإنما الكمال فيه حصول صفة منه تتكيف بها النفس[٧٥]"وتكيُّف النفس بالتوحيد إنما المقصود به انفعاله بشدة تأثير الفكرة القائمة على التوحيد فيها، انفعالاً يدفع إلى الإنجاز العلمي بترجمة المقتضيات النظرية للفكرة إلى عمل واقعي[٧٦]"،هذا المعنى ذاته يتجلى في الكثير من القصص القرآني، والذي ارتأيت اقتطاف مشاهد ثلاث منه لتجلية الفكرة، متمثلة في:سحرة فرعون، وأصحاب الكهف، وطالوت وجالوت، مبتدئة بقصة السحرة في لقطاتها الثلاث لندرك من خلالها سرَّ دعوة القرآن إلى التأمل فيما مضى من سير الأمم.

١- قصة سحرة فرعون:

وردت قصة السحرة في ثلاث سور:الأعراف وطه والشعراء. لتأتي بمشاهدها الثلاثة متكاملة متعانقة،معطية صورةً كاملة عن الحدث الرهيب الذي لازال مفصلاً رئيساً في دراسة أثر هذه العقيدة في تغيير مسار الحياة، وقلب ملامح التاريخ.

وعلى الرغم من وجود بعض التباين في ألفاظ القصة في كل موضع، إلاّ أنها توصل المتتبع لها إلى ما ينشده من هدف جرّاء بحثه فيها.

٧٤- صحيح مسلم،ج١،ص٢٨،كتاب الإيمان،باب(١)،ح(١).

٧٥- ابن خلدون،المقدمة،ص٥١٠.

٧٦- النجار،فقه التحضر الإسلامي،ص٣٣.

يقول تعالى في سورة الأعراف:{فَوَقَعَ ٱلۡحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿١١٨﴾ فَغُلِبُواْ
هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُواْ صَٰغِرِينَ ﴿١١٩﴾ وَأُلۡقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿١٢٠﴾ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ
ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٢﴾ قَالَ فِرۡعَوۡنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبۡلَ أَنۡ ءَاذَنَ
لَكُمۡۖ إِنَّ هَٰذَا لَمَكۡرٞ مَّكَرۡتُمُوهُ فِي ٱلۡمَدِينَةِ لِتُخۡرِجُواْ مِنۡهَآ أَهۡلَهَاۖ فَسَوۡفَ
تَعۡلَمُونَ ﴿١٢٣﴾ لَأُقَطِّعَنَّ أَيۡدِيَكُمۡ وَأَرۡجُلَكُم مِّنۡ خِلَٰفٖ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمۡ أَجۡمَعِينَ
﴿١٢٤﴾ قَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنۡ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا
لَمَّا جَآءَتۡنَاۚ رَبَّنَآ أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا صَبۡرٗا وَتَوَفَّنَا مُسۡلِمِينَ ﴿١٢٦﴾ وأما في سورة طه
فيقول الحق سبحانه: {فَأُلۡقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدٗا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ ﴿٧٠﴾
قَالَ ءَامَنتُمۡ لَهُۥ قَبۡلَ أَنۡ ءَاذَنَ لَكُمۡۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِي عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحۡرَۖ
فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيۡدِيَكُمۡ وَأَرۡجُلَكُم مِّنۡ خِلَٰفٖ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمۡ فِي جُذُوعِ ٱلنَّخۡلِ
وَلَتَعۡلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابٗا وَأَبۡقَىٰ ﴿٧١﴾ قَالُواْ لَن نُّؤۡثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ
ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِي فَطَرَنَاۖ فَٱقۡضِ مَآ أَنتَ قَاضٍۖ إِنَّمَا تَقۡضِي هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَآ

﴿٧٢﴾ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغۡفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكۡرَهۡتَنَا عَلَيۡهِ مِنَ ٱلسِّحۡرِۗ وَٱللَّهُ

خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓ ﴿٧٣﴾ }

وأمـــا في الشـــعراء: { فَأُلۡقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿٤٦﴾ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ

﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿٤٨﴾ قَالَ ءَامَنتُمۡ لَهُۥ قَبۡلَ أَنۡ ءَاذَنَ لَكُمۡۖ إِنَّهُۥ

لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِي عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحۡرَ فَلَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَۚ لَأُقَطِّعَنَّ أَيۡدِيَكُمۡ وَأَرۡجُلَكُم

مِّنۡ خِلَٰفٖ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴿٤٩﴾ قَالُواْ لَا ضَيۡرَۖ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ

﴿٥٠﴾ إِنَّا نَطۡمَعُ أَن يَغۡفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٥١﴾ }

جاءت هذه الآيات في العهد المكي والمسلمون لا زالوا قلة يطرقون أبواب النهوض والارتقاء طرقات خافتات، جاءت لتعلمهم آلية العقيدة التي يريدها منهم مولاهم، إنه-سبحانه-لا يريد تراتيل تتحرك بها ألسنتهم أو حركات تتراقص معها جوارحهم، ولكنه التفاعل الذي تتناغم به حياتهم كلها فتسري في عروقهم مسرى الدماء، وتتخلل وجودهم لتغدو بالنسبة لهم كالهواء، ليس لهم بعيداً عنها حياة وتهون دونها المهلكات حتى لو بلغت حدَّ الفراق لأهل أو وطن، أو حتى لذات الحياة{قَالَ مُوسَىٰ

لِقَوۡمِهِ ٱسۡتَعِينُواْ بِٱللَّهِ وَٱصۡبِرُوٓاْۖ إِنَّ ٱلۡأَرۡضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۖ

وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلۡمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾(الأعراف)

هذه هي القاعدة، بل هي في ذات **الآن** الهدف والغاية والمأمل، صبرٌ فثبات، ويقينٌ فنصر**"والعاقبة للمتقين".**

يقول الكاتب الأمريكي روبرت ويلتزrobert waltz: "يمثل الاعتقاد أكبر إطار للسلوك، وعندما يكون الاعتقاد قوياً ستكون تصرفاتنا متماشية مع هذا الاعتقاد[٧٧]"

تبدأ القصة بدعوة فرعون "لرؤساء السحرة ومعلميهم لتتجلى حقيقة المواجهة، معركةٌ بين الحق والباطل، حقٌّ أبلجٌ مجردٌ من كل قوة إلاّ قوّةً يمدّه بها ربُّ السماء، وباطلٌ يحشد قواه ويجمع أجناده كي يستأصل كل من يعاديه غير مبال بصواب فكرة أو صدق حاملها.

"لقد جاءوا بكل ما لديهم من الكيد، وجمعوا أساتذة السحرة ، ممن يعلمون السحر جيداً ولا تنطلي عليهم حركات السحرة وألاعيبهم[٧٨]"،لتتراءى الدنيا أمامهم بكل بريقها وزخرفها، فليس المال الجمّ الكثير بانتظارهم فحسب، وإنما هي المناصب الرفيعة، والوداد والقرب من الفرعونية الحاكمة والتي لا مطمح لطامح بالقرب منها.

وتبدأ المناظرة التي ما يفتأ المنادي معلناً عن بدئها حتى تتخايل نهايتها، تقويضاً لعرش فرعون وطعناً لألوهيته على أيدي من جلبهم ليكونوا له عزاً وعونا، "لأن الفكرة حين تحلُّ في النفس حلولاً إيمانياً يكون حلولها الإيماني هو الدافع النفسي للعمل، والحلول الإيماني للفكرة إنما هو ذلك الوضع الذي تكتسبه في النفس بالغاً فيها من العمق درجةً تصبح بها مسيطرةً على كل كيان الإنسان، فتوجه قدرات ذلك الكيان توجيهاً موحداً لتحقيقها في الواقع[٧٩]، فلم يتمالك السحرة أنفسهم رغم كل إغراءات الأرض إلا أن ألقوا سجّدا والإلقاء: "مستعملٌ في سرعة الهويّ على الأرض[٨٠]" لذا "لم يقل الحقُّ سبحانه وسجد السحرة، ولكنه قال:(وألقي) فخرورهم للسجود ليس برأيهم ولكنه عملية انبهارية مما حصل أمامهم[٨١]"،"كأنما ألقاهم ملق[٨٢]" "فقد كانوا أعلم الناس بالسحر فلا

---

[٧٧]- الفقي،إبراهيم(٢٠٠٠):**قوة التحكم في الذات**،المركز الكندي للتنمية،ص٤٢،،دمشق:دار منار.

[٧٨]- الشعراوي،**تفسير الشعراوي**،ص٥٧١٦.

[٧٩]- ينظر:النجار،**فقه التحضر**،ص٣٣.

[٨٠]- ابن عاشور،محمد الطاهر(٢٠٠٠):**التحرير والتنوير**،ط١،ج٨،ص٢٣٨، بيروت:مؤسسة التاريخ العربي.

[٨١]- الشعراوي،ص٣٠٠٦.

[٨٢]- الزمخشري،محمود بن عمر،**الكشاف**،ج،٢ص١٤١،بيروت، دار الكتاب العربي.

يخفى عليهم ما هو خارجٌ عن الأعمال السحرية[٨٣]"، وحين رأوا العصا وما فعلت بسحرهم لم يخالطهم شك في أنها معجزة بعيدة عما يصنعونه من السحر، لذلك سارعوا ولم يترددوا في إعلان إيمانهم بموسى وهارون، "فقد فاجأت صولة الحق صحوة الفطرة، فلم يملكوا إلاّ أن خرّوا لله ساجدين.

يقول الزجّاج في هذا الموقف: "عجيبٌ أمر هؤلاء فقد ألقوا حبالهم وعصيَّهم للكفر والجحود، فإذا بهم يلقون أنفسهم للشكر والسجود[٨٤]".

وجاءت الصيغة هنا بالجمع(ألقي السحرة) "لأنهم كانوا يداً واحدةً فلم يشذّ منهم أحد، كما أن إعلان إيمانهم جاء بالفعل المرئي المشاهد للجميع(فألقي السحرة سجدا)ثمَّ بالقول المسموع(قالوا آمنّا بربّ العالمين)[٨٥]"، لقد خالط قلوبهم معنى الربوبية فنطقت بها ألسنتهم متعالين عن جواذب الأرض وعوالق الطين، الربوبية بكل ما تحمله من معاني التربية والعناية والرعاية في هذا الموقف الرهيب، عناية الله بقلوب عباده الضّالّة وتبصيرهم سبل الحق والنور، وتوجيه عقولهم الشّادّة ومخاطبتها باللغة التي تفقهها كلُّ هذه المعاني تجلّت بهيّةً واضحة. . فخرّوا ساجدين. . ناطقين معلنين:(**آمنا بالله ربّ العالمين)**

لقد انجلت الفطرة وزال عنها ما ران عليها من أكداس الهوى وأثقال الاستعباد، فبدت مشرقةً وضّاءة تعلن عن ذاتها بقوّة غير عابئة بما يعترضها من تهديدات وتوعدات، وتلكم هي العقيدة التي تحمل صاحبها لتبوّئه مكانة البناء والتعمير، فهي"ليست مفاهيم تنحصر قيمها في التصديق القلبي، وإنما ما تحدثه من أثر شامل في حياة الإنسان الفكرية والعلمية والعملية[٨٦]".

لقد بادروا بالسجود-وهي الحال التي أقرب ما يكون فيها العبد من ربه-بادروا به قائلين:(آمنا بربّ العالمين)أي: "ساجدين قائلين ف(قالوا)في موضع الحال من الضمير في(ساجدين)أو من(السحرة)وعلى التقديرين فهم ملتبسون بالسجود لله، وبالقول -الذي

---

[٨٣]-ابن عاشور،**التحرير والتنوير**،ج٨،ص٢٣٨.

[٨٤]-الزمخشري،ج٢،ص٥٤٥.

[٨٥]-الشعراوي،ص٥٧١٦.

[٨٦]-النجار،**عوامل التحضر**،ص١٢١.

لابدَّ منه للقادر عليه-إذ الدخول في الإيمان إنما يدلّ عليه القول[٨٧]"،ولم تكن قدرتهم على القول آتيةً من يسر الموقف المحيط بهم، إذ إنهم يقفون بين يدي فرعون لا يرى نفسه إلاّ إلهاً ويسحق كل من يدّعيها لسواه، "ولكنها الأفكار التي تسيطر على نفوس أصحابها فتدفع بهم إلى العمل الموّحد مع شيء من إنكار الذات والزهد في المغنم[٨٨]".

يقول ريتشارد باندلر(richard wayne bandler)♦: "إن للاعتقادات قوة كبيرة، فإن استطعت أن تغير اعتقادات أي شخص فإنك من الممكن أن تجعله يفعل أي شيء[٨٩]"حتى وإن تعاظم أمر الصنم الذي يقفون بين يديه، ليصل الاستكبار-بما آتاه الله وحباه من فضله-حدَّ استعلاء الروح، كي تعلن الجحود بالغةً درجة تأليه ذاتها "إنه الافتتان بالذات، يغشى فطرة الإيمان ويحجبها عن وعي الإنسان[٩٠]"، فيجعله ينطق بكبره الذي ملأ عليه كيانه**{آمنتم به قبل أن آذن لكم}**هذا في الأعراف وفي طه والشعراء**{آمنتم له}**فهو وحده-بزعمه- الذي يأمر وينهى يسمح ويمنع ولا أحد سواه.

وتتجلى روعة البيان القرآني مصوّرةً في المشاهد جميعها لذات المشهد حالة الفزع الفرعونية، التي اعترت هذا الصنم، والتي لا تزال حيّةً ماثلة في كل صنم متأله نراه على مرّ الأيام، لأنها السنة الخالدة التي لا تزول ولا تتغير.

لقد أراد أن يعطي للقوم من حوله صورة المتماسك الذي لم تؤثر فيه هذه الأحداث، فقال:(**آمنتم له**)، "وكلمة(آمنتم)ترجع مادتها إلى الفعل الثلاثي(أمن)وتأتي مزيدة بالهمزة(آمن)ويظهر الفرق بين الفعلين من خلال قوله تعالى على لسان يعقوب لأبنائه:**{ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمِنْتُكُمْ عَلَى أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ }(يوسف ٦٤)**

فجاءت بالصيغة الثلاثية(أمن)عندما كانت تجربة أولى، وزيدت الهمزة لمزيد من الاحتياط في المرة الثانية[٩١]"الاحتياط الذي سعى إليه يعقوب عليه السلام في محاولة

---

[٨٧]-أبو حيان،محمد بن يوسف،**البحر المحيط**،ج٤،ص٣٦٢،دار الفكر.

[٨٨]-السامرائي،**نحن والحضارة والشهود**،ج١،ص١٤٧.

♦عالم ريلضيات، ومن دارسي علم النفس السلوكي، ومبرمج للحاسوب، كان صاحب مقدرة بالغة في تقليد الآخرين، ويعتبر من الواضعين الأوائل لتقنيات البرمجة اللغوية العصبية، من مواليد عام١٩٥٠م.

[٨٩]-إبراهيم الفقي،**قوة التحكم**،ص٤٢.

[٩٠]-النجار، عبد المجيد(١٩٩٧):**الإيمان بالله وأثره في الحياة**،ط١،ص٤٢،دار الغرب العربي.

[٩١]-الشعراوي،ص٥٧١٨،بتصرف.

الأب المفجوع لذب الأذى عن ابنه، وكأن فرعون يشير إلى مؤامرة أعلن عنها آنفا بقوله(**إنه لمكرٌ مكرتموه في المدينة**)فهو يقول لهم:إن إيمانكم بموسى واطمئنانكم إلى ما يزعمه، ليس بحديث عهد ولا وليد الساعة، وإنما هو أمرٌ مبيّتٌ بليل، وما هذا الذي بدا منكم إلاّ تدبيرٌ وتخطيطٌ بينكم وبينه.

إنها الأنانية الفردية التي أعمى حبُّ الذات عندها قدرتها على التفكير في أي اتجاه آخر، فكأن تغيير اعتقاد أيّ فرد من الأفراد يجب أن يكون رهن إرادته، وإلاّ فهو العداء المطلق والدمار الأكيد، والافتراءات التي تعصف بالأفكار وتُعتّم الحقائق وتُغشي الحياة بظلمة الجهل والتزييف.

(**آمنتم له**)تارة و(**آمنتم به**)تارةً أخرى أي "حصل عندكم الإيمان لأجله، والإيمان بسببه[٩٢]"، فأما الإيمان لأجله فهو تصديقه، وأما الإيمان به فهو اعتقاده[٩٣]"، وهذه حقيقة أنطقها الله على لسان فرعون تصويراً لحال السحرة وما يجول في أعماقهم ويكتنف نفوسهم في مكنوناتها، فقد آمنوا للتوّ بالله ولله بسبب ما رأوه من عظمته، ولأجل ما يستحقه سبحانه لإحقاق حقه على أرضه، إيماناً قويّاً ثابتاً لا تهزّه ريح جبروت أبداً.

ولكن الطغاة لا يفتُرون عن إيجاد مخرج يخرجون من كل مأزق يجدون أنفسهم فيه، فيطلقون الأكاذيب التي لا زالت تخترق أسماعنا:(**قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ**) إنها الحريات المزعومة التي يدّعون دوماً فتح ساحاتها لشعوبهم كي يمارسوا على حلبتها إنسانيتهم(**قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ**) وليس قبل أن آمركم، و"فرقٌ كبير بين الأمر والإذن، فالأمر بالشيء يعني أنه يحب ما أمر به ويجب عليك تنفيذه، أما الإذن فقد يكون في أمر لا يحبه ولا يريده، فهو الآن يأذن، لأنه لا يقدر على الأمر، وممن يصدر هذا الإذن!!من فرعون الآمر الناهي[٩٤]" موهماً سامعيه بذلك أيّ درجة من حرية الاعتقاد يفتحها أمام أبناء شعبه، تماماً كتلك الدرجة التي وردت في إحدى نصوص الدستور السوفيتي والتي تشير إلى عدم تسليم بطاقة تموين للفرد يسد بها رمق حياته، إلا إذا دان بمعتقده لمن يمنحوه إياها-وليس هناك من وسيلة غير هذه البطاقة لتحصل على الطعام والشراب والكساء-

---

[٩٢]-ابن عاشور،**التحرير والتنوير**،ج١٦،ص١٥١.

[٩٣]-الشعراوي،ص٥٧١٨.

[٩٤]-الشعراوي،ص٥٧١٨.

ولـك بعـدها أن تعبـد الله كمـا تحـب، فأنـت ومـا تشـاء المـوت جوعـاً مـع الله، أو الحيـاة الحيوانية مع ستالين[٩٥].

وتمادى الظالم في غيّه بقوله:(**إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَـــةِ**)مشيراً إلى ذات الحجج التي يطلقها المستبدون على مرّ الأيام وتتابع الأزمان، هو انقلابٌ ضدُّ الحكم، مؤامرةٌ تهدف إسقاط الحاكم، ولا شيء غير ذلك.

وجاء البيان القرآني ب(في)الظرفية "ليجعل مكرهم كأنه موضوع في المدينة كما يوضع العنصر المفسد[٩٦]"تأكيداً لكلامه الآنف (آمنتم) وليس(أمنتم)فالوكر الإرهابي ممتد الجذور في مدينته، ثابت الأركان في بنيان مملكته، وهذا كاف كي يمارس ما يشاء من فنون الإفناء، كي يستأصله وينتزع أصوله:

لأقطعنّ. .لأصلبنّكم. . في جذوع النخل. .

إنها أفانين التعذيب تأتي بصور تعجز الذهن عن تصوّرها ناهيك عن تحمُّلها، ويعين البيان القرآني بدقائق إعجازه على تجلية المشهد، ليغدو صورةً حيّة مشاهدة كأنما تعانق سمعك زفرات فرعون وهي تأمر المطارق لترتفع مؤذنةً بالتقطيع، بهذه الصيغة البيانية(**لأقطعنّ**) "ومرجع المبالغة إلى الكيفية[٩٧]" "ووقوع الجمع معرّفاً بالإضافة يكسبه العموم، فيعمُّ كلَّ يد وكلَّ رجل من أيدي السحرة[٩٨]".

ويزداد المشهد حرارة، ويبلغ الحقد الفرعوني مداه، فتتعالى نبرات الغيظ نسمعها في صوته يتردد آمرا(**ولأصلبنكم في جذوع النخل**)إنه الأمر كي تُصلَّب أجساد المؤمنين، وعلى أيّ جذوع!إنها النخل "وجذع النخلة هو أخشن جذع من جذوع الشجر، والتصليب عليه أشدُّ من التصليب على غيره[٩٩]"ويأتي الأمر بالتصليب بعد التقطيع، وبينهما من الزمن مدّةً لا ندريها، ولكنها (ثمّ)[١٠٠]التي تعتنق بين حرفيها معانيَ من الألم تصَّعَّد في قلوب هؤلاء المؤمنين، وهم ينتظرون بثبات العقيدة الراسخ في أعماقهم ألوان الموت

---

[٩٥]-ينظر:قطب،سيد(١٩٨٤):**في التاريخ فكرة ومنهاج**،ص٦٥، بيروت،القاهرة:دار الشروق.

[٩٦]-ابن عاشور،**التحرير والتنوير**،ج،٨ص٢٣٩.

[٩٧]-المصدر السابق،ج١٦،ص١٥٢.

[٩٨]-المصدر السابق،ج٨،ص٢٤٠.

[٩٩]-الشنقيطي،محمد الأمين بن محمد(١٩٩٥):**أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن**،ج٤،ص٣٦،بيروت:دار الفكر.

[١٠٠]-ينظر:ابن عاشورنالتحرير والتنوير،ج٨،ص٢٤٠.

المجهول، كما أنها(الواو) في(ولأصلبنّكم)بما تحمله من مجرد الاشتراك في الحدث، مظهرةً الهول، دون الالتفات إلى الابتداء بتقطيع أو تصليب، إنه الموت، والموت البطيء.

هذا التنكيل بكل هذه العنجهية ما زاد على ألسنتهم إلاّ أن قوبل(**إنا إلى ربنا منقلبون**)إنه رجاء الآخرة وأجرها العظيم، سرُّ امتياز المؤمنين بالاستعداد للبذل والعطاء، وهو سرُّ فاعلية الإيمان في تجنيد طاقات البشر وتعبئتها بصورة هائلة[١٠١]، بلغ حقد الحاقدين درجة تصليبهم بعد تقطيعهم حتى تبدو أجسادهم من شدة الدق وكأنها في الجذوع لا عليها[١٠٢].

بل إنَّ درجة التحرر الذي أوصلهم إليه الإيمان بلغت حدّاً نزعت عنهم قيود كل متسلط يكبل إرادتهم، فإذا بهم يستشعرون في ذواتهم عزّةً وقوّة ينظرون من خلالها نظرة استعلاء على جلاديهم واستقصار لهم، تلكم النظرة التي تقطع الطريق دون كل مستبد، إن تمكنت في ذوات أصحابها حينما يتحمل حاملوها الشدائد والمحن، بما يفضي إلى الموت استشهاداً في سبيل أن يكون مخلص العبودية لله وحده، متحرراً من كل مذلة لسواه[١٠٣]، فما كان على أفواههم إلاّ(**لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا**).

يقول الحسن: " سبحان الله قوم كفار ثبت في قلوبهم الإيمان طرفة عين فلم يتعاظم أن قالوا في ذات الله:(**فاقض ما أنت قاض**) والله إن أحدهم ليصحب القرآن ستين عاماً ثمّ ليبيع دينه بثمن غبن[١٠٤]".

فإن كانت المعركة في نظر الطغاة بينهم وبين حملة الحق على الأرض، فإنّ هؤلاء المؤمنين يوجهون المعركة ويصوّبون المسيرة، فالمعركةُ بينكم وبين الله في

---

[١٠١]-ينظر:الترابي،أثر الإيمان،ص٨٥.

[١٠٢]-ينظر:الخضري،محمد الأمين(١٩٨٩):**من أسرار الحروف في الذكر الحكيم**،ط١،ص١٢٧،القاهرة:مكتبة وهبة، وينظر:ابن عاشور،**التحرير والتنوير**،ج١٦،ص١٥٢.

[١٠٣]-ينظر:النجار،**الإيمان بالله**،ص١٧٤.

[١٠٤]-النيسابوري،الحسن بن محمد(١٩٩٦):**غرائب القرآن ورغائب الفرقان**،ط١،ج٤،ص٥٥٩،(ت:زكريا عمران)،بيروت:دار الكتب العلمية.

عليائه[١٠٥]، "ولن تؤثّر أرضٌ بمن فيها على الفاطر سبحانه[١٠٦]"، يقول الرسول صلى الله عليه وسلم: **"ثلاثٌ من كنّ فيه وجد حلاوة الإيمان،أن يكون الله ورسوله أحبَّ إليه مما سواهما،وأن يحب المرء لا يحبه إلاّ لله،وأن يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يلقى في النار"**[١٠٧]" فنعيم الدنيا مهما بلغ إنما يتهدده أمران: إما أن تفوته أو يفوتك، أما نعيم الآخرة فإنه باق دائم لا تفوته ولا يفوتك[١٠٨]".

"إنه الأثر المتفرد الذي ينشئه التصور الإسلامي في ضمير المسلم وفي حياته، إنه تحرير الإنسان، أو هو بتعبير آخر ميلاد الإنسان[١٠٩]"، هذا الإنسان بهذا العمق وذلكم الثبات هو وحده الذي يصلح أن يكون لبنة بناء أولى لمجد أمة قادم.

فحين تحيط به الكروب أو تدلهم من حوله الظلمات، يلجأ إلى معتقده في أعماقه، يستمد منه قوة تدفعه قدما نحو الغاية،**(ربنا أفرغ علينا صبراً)** والإفراغ أن ينصب شيء على شيء ليغمره، وكأنهم يقولون: يارب أعطنا كل الصبر وأكثره علينا حتى يفيض ويغمرنا، كما يُفرغ الماء إفراغاً، فإن ذلك الوعيد مما لا تطيقه النفوس، فإن كان الإفراغ صبَّ جميع ما في الإناء، فإن في الكلام كناية عن طلب قوّة الصبر التي تستلزم إفراغه كله عليهم حتى لا يبقى منه لسواهم شيء مما كان محتوىً فيه[١١٠].

والصبر إنما هو انضباط النفس لئلاّ تستخفّها النزعات الأولية التي تَحدث ردّاً للمؤثرات الطارئة، وأثره الإيجابي ألاّ ينخذل المؤمن إذا اعترضت سبيله المخاوف، وألاّ يقعد إذا أثخنته المصائب بل يحتمل المشقة الزائدة بعزم متناصر وجدّ متواصل، كادحاً في سبيل الله[١١١]، ولسان حاله يهتف قائلاً: **{وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى}(طه٨٤)**

إنه الطور الأول من أطوار الحضارة، الطور الذي تروَّض فيه الغرائز، وتُسلك في نظام خاص، تُكبح فيه الجماح، وتتقيد عن الانطلاق، إنها سيطرة الفكرة التي تجرد

---

[١٠٥]-ينظر: الشعراوي،ص٥٧٢٠.

[١٠٦]-ابن عاشور،**التحرير والتنوير**،ج١٦،ص١٥٣.

[١٠٧]-أخرجه البخاري،**كتاب الإيمان**،باب حلاوة الإيمان،رقم(١٦)،ج(١)،ص(١٠)،**ومسلم**،ج(١)،ص٤٨،ح(١٧٤).

[١٠٨]- الشعراوي،ص٥٧٢٠.

[١٠٩]-قطب،سيد(١٩٦٨)،**خصائص التصور الإسلامي**،ص٢٢٩،ط٣.

[١١٠]- ينظر:الزمخشري،ج٢،ص١٠٤،وينظر:ابن عاشور،ج٨،ص٢٤٢،وينظر:الشعراوي،ص١٠٦٨.

[١١١]-ينظر:الترابي،**الإيمان بالله**،ص٤٨،بتصرف.

الفرد جزئياً من قانون الطبيعة المفطور في جسده ليمارس حياته وفق قانون الروح{**لا ضير إنا إلى ربنا منقلبون**}رغم كل ما يلوح أمامهم يعلنوها باطمئنان رفيف:لا مضرة. .إنه ذات القانون الذي كان يحكم بلالاً ولسانه يدوّي قائلاً:أحدٌ أحد. .هذه الصيحات لا تمثل صوت الغريزة، فصوت الغريزة قد صمت، ولكنه لم يُلغ بواسطة التعذيب، كما أنها لا تمثل صوت العقل، فالألم لا يتعقل الأشياء، ولكنها صيحة الروح التي تحررت من إسار الغرائز بعدما تمت سيطرة العقيدة عليها نهائياً في ذاتية حامليها على مرّ الزمان،إنها الروح في صوت السحرة المؤمنين وفي صوت بلال هي التي تتكلم وتتحدى بلغتها اللحم والدم[١١٢]فتخلُّص الأجيال اليوم من تبعية الخوف والوهن التي ورثوها عن آبائهم وأجدادهم، وهي جديرةٌ بأن يُنظر إليها من زاوية تُشكّل جانباً كبيراً من الأهمية في خلع عباءة النكوص للتقدم نحو القمة.

فحين تتراجع الفكرة من منزلة تكييف النفس بها إلى منزلة مجرد الإيمان، حينها يمكننا تفسير دخولنا الأندلس باثني عشر ألف مقاتل لنحكمها قروناً طويلة مقيمين فيها أروع حضارة، لنخسرها ونحن أكثر من أربعة ملايين مأزوم مهزوم، لقد صرنا-بفقدنا لحرارة الفكرة في أعماقنا-غثاءً كغثاء السيل والسيل متى جاء حمل معه ما خفَّ وزنه وقلَّ نفعه، أما النافع فيبقى في أرضه ولا يفلح السيل في جرفه[١١٣].

(وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖۖ فَإِنۡ أَصَابَهُۥ خَيۡرٌ ٱطۡمَأَنَّ بِهِۦۖ وَإِنۡ أَصَابَتۡهُ فِتۡنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةَۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ ﴿١١﴾) **الحج**

---

[١١٢]-ينظر:مالك بن نبي(١٩٦٩):**شروط النهضة**،ط٣،ص١٠١-١٠٢،(ترجمة:عمر كامل مسقاوي،عبد الصبور شاهين)،دار الفكر وينظر،الأصفهاني،المفردات،ص٣٠٣.

[١١٣]-ينظر:السامرائي،**نحن والحضارة والشهود** ج١،ص١٤٨.

٢-قصة أصحاب الكهف:

إن كان إيمان سحرة فرعون-بطرفة عين-لامست فيها أنوار الحق شغاف قلوبهم فجعلت منهم شهداء بررة بعد أن كانوا سحرةً كفرة، مثالاً لأنموذج قامت عليه حضارةٌ زمناً ممتداً في شعاب الزمن على يد من آمن بموسى عليه السلام إلى أن نكبوا الطريق وشوهوا الفطرة، فإن النماذج تترى متعاقبة لتسجّل لنا وجهاً آخر من وجوه حضارة♦قامت على أساس من فكرة حق، نطقت بها أفواه فتية باعوا حياتهم لله.

وإنما أعني بالفكرة: "تلك الرؤية الشاملة في تفسير الوجود، وتقويم حياة الإنسان، انتهاءً إلى تحديد غاية لهذه الحياة يسعى المجتمع إلى تحقيقها، فالفكرة إنما تمثّل العامل الأساس في كلّ ظاهرة تحضّر، بحيث لا تنشأ حضارة على غير أساس من فكرة[١١٤]".

إنهم أصحاب الكهف الذين قال الله سبحانه فيهم:

نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا۟ فَقَالُوا۟ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَا۟ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا ۖ لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا ﴿١٤﴾ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمُنَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ۖ لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَٰنٍۭ بَيِّنٍ ۖ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴿١٥﴾ } الكهف.

♦كان هؤلاء الفتية يحيون في أمة تفوقت مادياً،وقد أحاط بهم الثراء من كل حدب وصوب،ولكن خواءها الروحي أفناها لتقوم على أنقاضها أمة مؤمنة استفادت من حضارة سابقتها، مثبتة أركانها بقوة معتقدها. ينظر:ابن عطية،ج٣،ص٤٩٨.

٢ - النجار،**فقه التحضر**،ص٢٦ - ٢٧،بتصرف.

هم(فتية)بهذا الوصف كما وصفهم الله تعالى،" والفتية جمع قلّة[١١٥]"،بما تلفت إليه الأفهام من أهمية البدء بالكيف لا الكم،" والفتى هو الشاب المكتمل، إيماءً إلى ما فيه من اكتمال خلق الرجولية المعبَّر عنه بالفتوّة، الجامع لمعنى سداد الرأي وثبات الجأش والدفاع عن الحق[١١٦]"-وتلكم هي أدق الصفات التي لابد من ملازمتها لبناة الأمة- " فالشباب أقبل للحق وأهدى للسبيل من الشيوخ الذين قد عتوا وانغمسوا في دين الباطل[١١٧]".

لقد انساب نور الإيمان إلى أعماقهم فحرَّكها جامعاً لها، لتغدو هذه العقيدة الجديدة جنسيةً تضمّهم وتجمعهم، فإذا هم خليّةٌ حيّةٌ وسط جسد ميّت، إنها آثار العقيدة التي لا تكاد تلامس روح أصحابها حتى تتجلّى ملامحها عليهم، وحدة في الفكر، وحدة في الاتجاه والمسير، محبةٌ تؤلف بين القلوب وتشدُّ المؤمنين بها بعضهم إلى بعض فتجعلهم يداً واحدة[١١٨]، لتظللهم المعيّة الربانية**"وزدناهم هدى" "وربطنا على قلوبهم"،"**لقد رجّحوا جانب الله على جانب أنفسهم[١١٩]"فمنحهم الله من فضله تثبيتا على الإيمان، وتوفيقاً للعمل الصالح، وانقطاعاً إلى الله عز وجل، وزهداً في الدنيا[١٢٠].

ويأتي الالتفات من الغيبة إلى التكلم(زدناهم-ربطنا)بعد(إنهم فتية آمنوا بربهم)للتعظيم من أمر هذه الزيادة وهذا الربط[١٢١]، لقد قوّاهم الله بالصبر فلم تزحزح قلوبهم عواصف فراق الأوطان، وترك الأهل والنعيم والخلاّن، ولم يزعجها الخوف من ملكهم الجبار، ولم يُرعها كثرة الكفار[١٢٢]،"والفرار بالدين إلى بعض الغيران، ومخالفة

---

[١١٥]-الشوكاني،محمد بن علي،**فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير**،ج٣،ص٢٧٢،بيروت:دار المعرفة.

[١١٦]-ابن عاشور،**التحرير والتنوير**،ج١٥،ص٢٤.

[١١٧]-ابن كثير،إسماعيل بن عمر(١٩٩٩):**تفسير القرآن العظيم**،ط٢،ج٥،ص١٤٠،(ت:سامي محمد سلامة)،دار طيبة.

[١١٨]-ينظر:الوكيل،محمد(١٩٨٦)، **قواعد البناء في المجتمع الإسلامي**،ط١،ص١٩-٢٣،دار الوفاء للطباعة،بتصرف.

[١١٩]-القاسمي،محمد جمال الدين(١٩٨٧):**محاسن التأويل**،ط٢،ج٧،ص١١،ت:محمد فؤاد عبد الباقي،بيروت:دار الفكر.

[١٢٠]-ينظر:ابن عطية،عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن(١٩٩٣):**المحرر الوجيز**،ط١،ج٣،ص٤٢٥، (ت:عبد السلام عبد الشافي محمد)، دار الكتب العلمية،وينظر:الألوسي،محمود بن عبد الله(١٤١٥ه):**روح المعاني**،ج/٨-ص/٢٠٨،(ت:علي عبد الباري عطية)،دار الكتب العلمية،وينظر:القاسمي،**محاسن التأويل**،ج٧،ص١١.

[١٢١]-ينظر:الألوسي،ج٨،ص٢٠٨.

[١٢٢]-ينظر:المصدر السابق نفسه.

الـنفس وهجـر المألوفـات[١٢٣]"،إلا أن هـذه المعيـة الربانيـة لـن تـأتي إلا بالحركـة الحيـة الفعالة(**إذ قاموا فقالوا**)وقد جاء الظرف(إذ)للربط مبيناً أن حقيقته كانت وقت قيامهم♦، فالقلق والخوف مما ينزعج به القلب ولولاه لما أقدموا على ذلك العمل وذلك القول[١٢٤]

ولا يزال وعد الله قائماً لكل خلية مؤمنة عقدت العزم على أن تقوم ببناء أمتها من النقطة الأصل والبؤرة الأم، لبّ الاعتقاد، مكمن الإيمان، **التوحيد**، ليربط الله على قلبها ويزوي حب الدنيا من أعماقها ويصغّر لذائذها أمام عينيها فلا ترى شيئاً يبعدها عن عزّتها بذي قيمة أبدا، وإن كثر بريقه، واشتد لمعانه، إنه وعد الله الأزليّ إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، "فالعقيدة تطلب من المسلم أن يعقد قلبه عليها، ويكون مصدقاً تصديقاً لا يداخله الشك بحال[١٢٥]".

والعقائد لا تتحرك بنفسها، وإنما من خلال أصحابها الذين كلما زاد إيمانهم بها واعتناقهم لها، كان لها الأثر المشهود المنظور في واقع الحياة، رافضة الوقوف عند حد العبادة والشعيرة، منطلقة لتبدع الوجود وفق تصورها[١٢٦].

وقد روي عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال: "كان الرجل منا إذا تعلم عشر آيات لم يجاوزهن حتى يعرف معانيهن والعمل بهن"[١٢٧].

بهذا الإدراك الكامل لوظيفة القرآن شيدت حضارة حقق الإسلام فيها ذاته، منبثقة من عالم النفس والضمير، مستقرة في عالم الواقع عبر الزمان وفي كل مكان.

يقول(كان مكس مولرmax muller)♦: إن دين الرسالة هو الذي يسمو فيه نشر الحق وهداية الكفار إلى واجب مقدّس، إنها روح الحق في قلوب المؤمنين التي لا تستقر

---

[١٢٣]-القاسمي،ج٧،ص١٢.

♦المقصود قيامهم بين يدي ملكهم، وقيل غير ذلك من الأقوال، ينظر:أبوحيان،ج٦،ص٧٨، وينظر:الزمخشري،ج٢،ص٦٦١.

[١٢٤]-ينظر:ابن عاشور،ج١٥،ص٢٩،وينظر:القاسمي،ج٧،ص١٢.

[١٢٥]-النجار،**الإيمان بالله**،ص١٠.

[١٢٦]-ينظر:السامرائي،**نحن والحضارة والشهود**،ج١،ص١٣٢،وينظر:سيد قطب،**في التاريخ فكرة ومنهاج**،ص٢٣-٢٥.

-أخرجه الإمام أحمد في مسنده،ج٣٨،ص٤٦٧،،وذكر المحقق شعيب أرناؤوط بأن إسناده صحيح

♦عالم ألماني، أسهم في الدراسة المقارنة في مجالات اللغة والدين وعلم الأساطير، عمل أستاذاً للغات الأوربية الحديثة بجامعة أكسفورد، ولد عام١٨٢٣،وتوفي عام١٩٠٠.

حتى تتجلى في الفكر والقول والعمل، ولا تقنع حتى تؤدي رسالتها إلى كل نفس بشرية لتعترف أفراد الجماعة الإنسانية بما تعتقد هي أنه الحق[١٢٨].

{ربنا ربُّ السماوات والأرض لن ندعوا من دونه إلهاً لقد قلنا إذاً شططا}هذه الفعالية للفكرة تُبرز كلمات مؤثرات، ومواقف مشهودات، فعلى الرغم من أن هؤلاء الفتية ليسوا رسلا ولا أنبياء وإنما هم أصحاب فكرة آمنوا بحقيتها وقاموا بأداء أعبائها، إلا أنهم طرحوا فكرتهم بقوة، يطرقون بها قلوب سامعيهم دون أن يدعوا لهم منفذاً أو ثغرة يتفلتون من خلالها "ربنا الذي ربانا بنعمه[١٢٩]"،"لن نعبد معبوداً آخر غيره لا اشتراكاً ولا استقلالاً[١٣٠]".

فهو الرب-سبحانه-صاحب العناية والرعاية والتربية والإحاطة، وهو الإله بعظمته وهيبته وجلاله في خلائق جلية مشاهدة، سماوات عريضات، وأراض واسعات.

ولو مالؤوا القوم على حساب ما يؤمنون به لكانوا كما وصفوا هم ذلك الحال**(لقد قلنا إذاً شططا)**"والشطط من القول يعني غالياً من الكذب، مجاوزاً مقداره من البطول والغلوّ[١٣١]"،"وجاء الوصف بالمصدر مقتصراً عليه لتكون مبالغة على مبالغة[١٣٢]"، فالمؤمن إذا تحرر من هوى نفسه وميول غرائزه وشهواته بأثر من عقيدة التوحيد فأولى به أن يتحرر كذلك من نفوذ الوجود الاجتماعي فيما يصدّه عن سبيل الله[١٣٣] غير هيّاب للمتألهين من بني البشر الذين تذلُّ لهم الأعناق، لأنهم في اعتقاده لا يملكون شيئاً إلا بإذنه تعالى، لأجل ذلك انطلقوا معلنين رغم سطوة الباطل وعتوّ جولته**{هؤلاء قومنا اتخذوا من دونه آلهة}**

---

[١٢٨] -ينظر:الأميري،عمر بهاء الدين(١٩٨٣):**الإسلام وأزمة الحضارة**،ط١،ص٣٩-٤٠، قطر:مؤسسةالشرق للنشر،بتصرف .

[١٢٩] -القاسمي،ج٧،ص١٠.

[١٣٠] -الشوكاني،ج٣،ص٢٧٣.

[١٣١] -الطبري،محمد بن جرير(٢٠٠٠):**جامع البيان في تفسير القرآن**،ط١،ج١٧،ص٦١٥،(ت:أحمد محمد شاكر)،مؤسسة الرسالة .

[١٣٢] -الألوسي،ج٨،ص٢٠٩.

[١٣٣] -ينظر:الترابي،**الإيمان بالله**،ص٥٧.

إنهم أصحاب الطاقات الروحية العالية، "الذين يتصورون الألوهية ويدركون حدود العبودية فيدركون تبعاً لها حقيقة كل شيء في هذا الكون، وحقيقة القوة الفاعلة فيه[١٣٤]" فيمضون في طريقهم وقد خطَّوا لأنفسهم معالمه الواضحة.

تلكم هي الفعالية الإيمانية التي نحتاج إلى شحذها وتفجير طاقاتها كي تتدفق عطاءً حضارياً متجدداً، الفعالية التي تجند إمكانات الفرد ليكون مستعداً للأخذ والعطاء والتلقي والإبداع، لا الفعالية المخدرة التي تزوي بصاحبها في إطار ذاته بعيداً عن مجتمعه وعصره.[١٣٥]

لقد كانت الأجيال الأولى من المسلمين تنزل العقيدة في نفوسهم تنزلاً مباشراً في الدرجات التي تدفع إرادتهم إلى الأعمال[١٣٦]، فكان الأثر حضارةً عميقة ممتدة الجذور تنطق كلّ زاوية فيها أن نواتها عقيدة المسلم بها، وخلودها مرتبطٌ بجهده وسعيه تحت مظلة معتقده ولا شيء غير ذلك، وحينما ضعف الإيمان في نفوسهم انتكس شأنهم[١٣٧].

وقد طوت الآيات مدة من الزمن طويلة تتناهى إلى عدة قرون، ليسلط الضوء من جديد على ذات المجتمع الذي استعبده ذات يوم إلهٌ من آلهة البشر يقودهم لتحقيق مطامعه كالقطيع، وإذا الحياة غير الحياة، والناس غير الناس، وقد حرّكت ثورة الفتية السلمية في قلوبهم ساكنا فانتفض الحق في الأعماق مزيلاً الخبث المتراكم لتتنسم هذه النفوس عبق العزة في سجود الجباه لله وحده.

وتشاء الله أن يرى أولئكم المجاهدون المتجردون، دين الحق الذي ثبتوا عليه، منصوراً متبعاً، فأنامهم نوماً طويلاً ليمضي عليهم الزمن الذي تتغير فيه أحوال المدينة ويكونوا من بعد آية للناس على صدق هذا الدين[١٣٨].

إنهم اللبنات الأولى في قاعدة بنيان ضخم، تعاظم أمره حتى ظللته معايير المبادئ التي لأجلها هجر هؤلاء الدنيا وما فيها، ولا بد لمثل هذه اللبنات أن تُتَخيَّر فينتقى

---

[١٣٤] -قطب،سيد،**خصائص التصور الإسلامي**،ص٢٢٦.

[١٣٥] -ينظر:الفاضل ابن عاشور،**روح الحضارة**،ص٢٣،بتصرف.

[١٣٦] -ينظر:النجار،**فقه التحضر**،ص٢٩.

[١٣٧] -ينظر:الترابي،**الإيمان بالله**،ص٣٣٠.

[١٣٨] -انظر:ابن عاشور،**التحرير والتنوير**،ج١٥،ص٢٥.

لها الأصلب والأمتن والأقوى لأنها الأساس وما بعدها أثر**{إنهم فتية آمنوا بربهم وزدناهم هدى}**

قصة طالوت وجالوت:

ويتبدى لنا مشهدٌ ثالث مصوّراً حقيقة نشوء الأمم وبداية ارتقائها سُلّم الصعود من هاوية التخلف والنكوص.

فهذا طالوت الملك الذي اختاره الله ليقود "أمةً مغلوبة عرفت الذل والهزيمة في تاريخها مرة بعد مرة، لمواجهة أمة غالبة[١٣٩]"،يجد نفسه أمام جيش فقد الثقة بنفسه، وانهزم أمام ذاته، إنها مجموعة بحاجة إلى ما يغربلها لتُنتقى منها العناصر الفذة القادرة على تحمل المشاق، وبذل التكاليف التي تؤهلها للقيادة في ركب حضارة قادمة تسعى لإقامته وتشييده.

وتحدثنا الآيات عن مراحل الكشف والاصطفاء، إذ يقول سبحانه في سورة البقـــــرة:{ فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِٱلْجُنُودِ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّيٓ إِلَّا مَنِ ٱغْتَرَفَ غُرْفَةًۢ بِيَدِهِۦ ۚ فَشَرِبُواْ مِنْهُ إِلَّا قَلِيلاً مِّنْهُمْ ۚ فَلَمَّا جَاوَزَهُۥ هُوَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ قَالُواْ لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٢٤٩﴾

[١٣٩] - قطب،سيد(١٩٨٨)،**في ظلال القرآن**،ط١٥،دار الشروق،ج١،ص٢٦٨.

وَلَمَّا بَرَزُواْ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُواْ رَبَّنَآ أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا صَبۡرٗا وَثَبِّتۡ أَقۡدَامَنَا

وَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٢٥٠ }

"لقد حدثت لهم التصفية مرتين، أولاهما بالصبر على العطش، وثانيهما بمواجهة العدو[١٤٠]"، لتعلم الأجيال من بعد أن للرقيّ ثمناً يجب أن يدفع، فلا ينال بأمان وأحلام يقظة، ولا بمجرد رفع درجات التوتر الإيماني ضمن أطره السلبية بعيداً عن ساحات المجاهدة والابتلاء.

إنه لا بد من النزول والمواجهة، والصبر والمصابرة، والتعرف على الأسباب الموصلة، كلُّ ذلك يرافقه الإخلاص وطلب التوفيق من الله[١٤١]، لتتبدى قيمة العقيدة في خضم هذا التدافع، فهي منظم وضابط للسلوك، فإذا انفلت القلب من إسارها تحول إلى عنصر هدم وفساد[١٤٢].

فكان الاختبار الأول بقطرات ماء يمنعها الفرد عن نفسه يكشف من خلالها عن مدى القوة الكامنة في أعماقه، والتي لا تكون إلاّ بإرادة تستعلي على الضرورات والحاجات، وتؤثر الطاعات[١٤٣].

ولكن أكثرهم شرب وارتوى، فكان من الخير والحزم أن ينفصلوا عن الجيش لأنهم بذرة ضعف وخذلان وهزيمة، ولن تبنى أمة ينخر سوس الوهن بين أرجائها، فجاءت الغربلة الأولى ليُصفّى الصف وتنقى النفوس مما علق بها من أدران الهوى.

وتمضي البقية الباقية، يفصل بينها وبين سابقتها نهر الابتلاء، لتثبت أن "النية الكامنة وحدها لا تكفي ولا بد من التجربة العملية ومواجهة واقع الطريق[١٤٤]"، وتأتي المرحلة الثانية في التصفية، إنها مواجهة العدو، لقد صاروا قلة وهم يعلمون قوة عدوهم

---

[١٤٠] -الشعراوي،ص٣٢٧٩.

[١٤١] -ينظر:محمود بن سفر،**دراسة في البناء الحضاري**،ص١٨.

[١٤٢] -ينظر:السامرائي،**نحن والحضارة والشهود**،ج١،ص١٣١.

[١٤٣] -ينظر:ابن عاشور،**التحرير والتنوير**،ج٢،ص٤٣٧،وينظر:قطب،سيد(١٩٨٦):**في ظلال القرآن**،ج١،ص٢٦٨،دار الشروق،بيروت،ط١٢

[١٤٤] - قطب،**الظلال**،ج١١،ص٢٦٨.

وكثرته، إنهم مؤمنون لم ينكصوا عن عهدهم، كما وصفهم سبحانه"**والذين آمنوا**"ليكون من سواهم بمعزل عن الإيمان الذي هو أساس الدين كله[١٤٥]، فإن تحقق هذا الإيمان كان ركيزة لما بعده من الحقائق، وإن خالطه الشك انهدم ما بعده من تلك الحقائق[١٤٦] ، ولكنهم قالوا**{لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده}** لتظهر صورة هذا الإيمان باردة، كي تصبح مجرد معرفة لا علاقة لها بالسلوك، إنه الانفصال بين القول والعمل، بين المعتقد والواقع العملي.

هي مركزية التوحيد إذاً حين يداخلها الاضطراب تتزحزح من مركز الإشراف لتحتل ركناً في الذهن مستقلاً بنفسه فلا تمتد إلى سائر الأركان[١٤٧]، لترفدها بقوتها وتسقيها من معينها، إنه ذات التشخيص لواقع القلب المسلم اليوم الذي تبدى فيه هذا البون بين ما يؤمن به ويعتقده، وما يصدر عنه في واقعه.

فالمسألة هنا ليست الحاجة إلى توليد دين جديد، ولكنها الحاجة إلى توليد صحيح للإرادة من هذا الدين، وتقويم متين للحياة العملية ضمن إطار هذه الفكرة الإيمانية حتى يتجلى الانسجام التام والأمن الكامل في داخل هذا الكيان الإنساني من جهة، وأثناء مخالطته ومصارعته الحياة حوله من جهة أخرى[١٤٨]، لتسمو النفوس التي غدا الإيمان فيها قوة فاعلة مستشعرة رقابة دائمة تحصي عليها كل حركة وخطرة[١٤٩]، فإذا هذه الرقابة مرشدٌ يقود أعمالها في طريق بنائها ورقيها وتحضرها ليأتي**{الذين يظنون أنهم ملاقوا الله}**فيشكلوا وسط هذا الجو العاصف القوة الخالصة المتيقنة المتوقعة ثوابه-سبحانه-[١٥٠]،"إنهم أهل الصلابة والتصميم والاستماتة[١٥١]" الذين بلغت ثقتهم بمولاهم سبحانه ووعده لهم

---

[١٤٥]-ينظر:قطب **الظلال**،ج١١،ص٢٦٩.

[١٤٦]-ينظر:النجار،**الإيمان بالله**،ص٢٩.

[١٤٧]-ينظر:النجار،**عوامل التحضر** ،ص٢٠.

[١٤٨]-ينظر:الفاضل ابن عاشور،**روح الحضارة**،ص٢٢-٢٣.

[١٤٩]-ينظر:النجار،**الإيمان بالله**،ص١٩٤.

[١٥٠]-ينظر:أبو السعود،محمد بن محمد العمادي،**إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم**، ج١،ص٢٤٣،بيروت:دار إحياء التراث العربي

[١٥١]-ينظر:ابن عطية،**المحرر الوجيز**،ج١،ص٣٢٨.

بالنصر درجة الكمال الذي لا يقف دونه حد [١٥٢].

لقد حصلت لهم التصفية مرتين، لأن الله تعالى أراد ألاّ يحمل الدفاع عن منهجه إلاّ المؤمنون حقا[١٥٣]، أولئك الذين استقرت في أعماقهم حقيقة التوحيد حارة دافقة، لا باردة كليالي الشتاء،عقيدة ثابتة لا يزعزعها شك، هذه الحقيقة التي تمد الإنسان أثناء جهاده في حياته بقوة كبيرة تبشّره بأن تضحياته محفوظة ولن تضيع سدى، وأنها مقدرة ولن تُبخس، ليرد تحقيقا لهذا المعنى خبر(أن)اسماً-والاسم يدل على الثبات-مع أن اللقاء مستقبل للدلالة على تقرره وتحققه[١٥٤] في قوله تعالى:**{أنهم ملاقوا الله}**

إنها الطائفة المعافاة التي تشكل خميرة النهوض في كل توثب حضاري، تلكم التي لم تلحقها إصابة الوهن وليست جزءاً من الركود الذي لحق عموم الأمة[١٥٥]، هي وحدها القادرة على تحقيق غرض الوجود البشري في إعمار الأرض وفق نواميس الله بأسمى شكل تتجلى فيه إنسانية الإنسان الخليفة[١٥٦]، ليُنطق الله على ألسنتهم سنة من سننه سبحانه لا تزال علما للأجيال عبر العصور**{كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله}**

إنها(فئة)"والفئة هي الجماعة التي يُرجع إليها في الشدائد[١٥٧]"، والعبرة فيها لا بكمها ولا بعددها، وإنما بمتانتها وصلابتها وأصالتها، فالكثرة ليست سبباً للانتصار دوماً، فكثيراً ما انتصر القليل على الكثير، لذا جاء الإخبار بصيغة(كم)المقتضية للتكثير[١٥٨]"وهذا القول يحمل بين طياته تحريضاً على القتال وحضّاً عليه واقتداءاً بمن صدّق الله[١٥٩]"، ناهيك عما توحي به(خبريتها) من تثبيت النفس وتقويتها[١٦٠].

إنها الفكرة حين تقع في الأذهان موقع الاقتناع فتحدد تبعا لها حقيقة الوجود، فهو إله مطلق الكمال، وعالم مخلوق له ومدبَّر بأمره، وهذا الكون العريض مسرح

---

[١٥٢]-ينظر:أبو السعود،ج١،ص٢٤٣-٢٤٤.

[١٥٣]-ينظر:الشعراوي،ص٣٥٢.

[١٥٤]-ينظر:أبو السعود،ص٢٤٣-٢٤٤.

[١٥٥]-ينظر: الوكيل،**دراسة في البناء الحضاري**،ص٩.

[١٥٦]-ينظر:الأميري،**الإسلام وأزمة الحضارة**،ص١٦.

[١٥٧]- ابن عطية،**المحرر الوجيز**،ج١،ص٣٢٨.

[١٥٨]-أبو السعود،ج١،ص٢٤٤.

[١٥٩]-أبو حيان،ج٢،ص٥٩١.

[١٦٠]-ينظر:ابن عاشور،**التحرير والتنوير**،ج٢،ص٤٧٦.

لاستخلاف الإنسان عليه[١٦١]،**{بإذن الله}**فدوران كافة الأمور على مشيئته تعالى، فلا يذل من نصره وإن قلَّ عدده، ولا يعز من خذله وإن كثرت أسبابه وعدده[١٦٢].

هذه هي القاعدة في حس الذين يوقنون أنهم ملاقو الله، القاعدة: أن تكون الفئة المؤمنة قليلة لأنها ترتقي الدرج الشاق حتى تنتهي إلى مرتبة الاصطفاء، ولكنها تكون الغالبة لأنها تتصل بمصدر القوى ولأنها تمثل القوة الغالبة، قوة الله[١٦٣]".

هذا التصور هو الذي ينشئ في القلب والعقل الاستقامة، ومن كان هذا شأنه لا يضطرب ولا يطيش[١٦٤].

(بإذن الله)"فالمسلم وهو يبحث عن الحقيقة كي يؤلف منها خطط حياة يكون مشدوداً إلى غاية موحدة تسلك مناشطه جميعاً[١٦٥]".

"إن النفس البشرية حين تواجه بالحكم نظريا لها موقف، وحين تواجه به تطبيقياً لها موقف ولو بالكلام، وحين تواجه به فعلياً يكون لها موقف، والله تعالى يريد أن يربي في نفوسنا أنه جل وعلا هو الذي يهزم وهو الذي يغلب[١٦٦]"، وإذا ما استقرت هذه الحقيقة في النفس البشرية انطلقت مؤدية دورها الذي أراده الله لها ولسان حالها يهتف**(والله مع الصابرين)**.

وكم يحتاج البناء إلى نَفَس طويل، وجهد جهيد، وأمل بعيد، وعمل شاق تليد، لا تفتر معه عزيمة، ولا تتهاوى أمام مشاقّه وعوائقه شكيمة، حتى يرى كما أراد له أصحابه وعين الله ترعاه، **(والله مع الصابرين)** "إنها معية النصر والتوفيق"[١٦٧].

تلكم هي الفئة المؤمنة الواعية التي تقرر ملامح الطريق، وترسم معالم الصراع، وتحدد خطوات المضي نحو الارتقاء بصبرها وثباتها وتوكلها، إنه الموقف الذي ينشأ في

---

[١٦١] -ينظر:النجار،**عوامل التحضر**،ص١٨.

[١٦٢] -ينظر: أبو السعود،ج١،ص٢٤٣-٢٤٤.

[١٦٣] -قطب،**الظلال**،ج١،ص٢٦٩.

[١٦٤] -ينظر:سيد قطب،**خصائص التصور الإسلامي**،ص٢٢٧.

[١٦٥] -النجار،**عوامل التحضر**،ص١٦٩.

[١٦٦] -الشعراوي،ص٣٥٢.

[١٦٧] -أبو السعود،ج١،ص٢٤٣-٢٤٤.

نفس المؤمن مثبتاً أن الله حق وما خلاه باطل، مورثاً إياه حالة من الثقة المطلقة بصحة الطريق الذي يسلكه، متقدماً بثبات نحو الغاية المنصوبة أمامه[١٦٨].

ويبرز طالوت والقلة المؤمنة بالله معه لجالوت والعصبة الضالة، وقد امتلأت قلوب أولئكم إيماناً بربها ويقيناً بوعده ليعلو ذات الهتاف الذي هتف به السحرة يوم أن كانوا قلة مستضعفة بين يدي فرعون جبار(**ربنا أفرغ علينا صبرا**)وجاءت الإجابة الربانية سريعة(**فهزموهم بإذن الله**)هؤلاء هزموا الشرك وأهله في ميادين الحروب وساحات القتال، وأولئكم هزموهم في معاقل الصبر ومرابط اليقين، وكانت النتيجة في الحالين واحدة، سحق الصنم البشري وهلاك النمرود المتعنت، فأما فرعون فهلك غرقاً، وأما جالوت فمضى صرعاً.

تلك سنة الله جارية وما على فئة الحق إلاّ أن تُقدم بثبات ولسان حالها يهتف قوياً(**ربنا أفرغ علينا صبرا وثبت أقدامنا**) ليصل موكب المؤمنين عبر الزمان فيفزعوا إلى الدعاء-كحال إخوانهم ممن سبقوهم إلى الإيمان-منادين مولاهم بلفظ(الرب)الدال على الإصلاح وعلى الملك[١٦٩]"،"والمنبئ عن التبليغ إلى الكمال والإيثار[١٧٠]"، متوسلين بإفراغ الصبر عليهم"بصبه صباً حتى يكون مستعلياً، ويكون لهم كالظرف وهم كالمظروفين فيه[١٧١]"،"مؤثرين كلمة(الإفراغ)معربين بذلك عن كثرة ما يحتاجونه منه، ونُكّر (الصبر)إفصاحاً عن التفخيم ليكون ذلكم كله عوناً لهم على مقاساة شدائد الحرب واقتحام موارده الصعبة الضيقة[١٧٢]".

إنه عهد النهوض الذي يستلزم الجود بالنفس والمال لأقصى الدرجات، لأن القومة الأولى بأوزار التخلف والخمول هي أثقل مراحل التقدم ويستلزم ذلك التغاضي عن استيفاء الأجر كله، فظروف المجتمع الناهض لا تجعل إمكانات الجزاء ميسورة ولا موفورة، ولا مناص إذاً من أن يقع العبء الثقيل على جيل يهش للعطاء أكثر من الأخذ،

---

[١٦٨] -ينظر:الترابي،**الإيمان بالله**،ص٤٠.

[١٦٩] -أبو حيان،ج٢،ص٥٩٢.

[١٧٠] -أبو السعود،ج١،ص٢٤٣-٢٤٤.

[١٧١] -أبو حيان،ج٢،ص٥٩٢.

[١٧٢] -أبو السعود،ص٢٤٣-٢٤٤،بتصرف يسير.

ويَجدّ وقد لا يدرك ثمرة جهده[١٧٣]، فلا يملك إلا أن يكمل اتصاله بصاحب الأجر والجزاء**(وثبت أقدامنا)**"فلا تزل وثباتها كناية عن كمال القوة والرسوخ عند المقارعة، ولما سألوه استعلاء الصبر عليهم من فوقهم، تابعوا سؤلهم بتثبيت أقدامهم ورسوخها"[١٧٤]، وقدموا بين يديه سبحانه العلة في ذلك كله**(وانصرنا على القوم الكافرين)**إنه إيمان تجاه كفر، وحق إزاء باطل، ودعوة لأن ينصر الله أولياءه على أعدائه، فلا غبش في التصور، ولا شك في سلامة القصد ووضوح الطريق[١٧٥].

"لقد جاؤوا بالوصف المقتضي لخذلان أعدائهم"[١٧٦]،"والإشعار بعلة النصر عليهم، وراعوا في الدعاء ترتيباً بديعاً، حيث قدموا سؤال إفراغ الصبر الذي هو ملاك الأمر، ثم سؤال تثبيت القدم المتفرع عليه، ثم سؤال النصر الذي هو الغاية القصوى، فهزموهم وكسروهم بلا مكث[١٧٧]".

إنها ذات المراحل في كل نهضة وكل بناء وكل إعادة لشهود ذات على واقعها في أي زمان كانت.

إنها سنة الله جارية، فما أن تتغلغل الفكرة فتصل في أعماق صاحبها إلى حد اليقين، حتى يسلك لأجل تحقيقها طريقاً واضحاً أبلج لا ريب فيه مستمداً قوته من قوة الفكرة التي يؤمن بها، فإن كانت هذه الفكرة مصدريتها الوحي، فإن ما بها من قوة وفاعلية لن يعدل أي فكرة أخرى تستمد ذاتيتها من ذاتية واضعيها.

إن المتتبع لسيرة الحضارات عبر التاريخ يمكنه أن يتوصل إلى حقيقة تكاد تكون ملازمة ملاصقة لكل نهضة في الأمم عبر الزمن، تلكم هي الحقيقة الدينية باعتبارها أصلاً ومنطلقاً لكل حضارة إنسانية، حتى وإن كانت هذه العقيدة متمثلة في البوذية أو البرهمية مثلاً، بمعنى حاجة الإنسان دوما إلى التعلق بمفهوم غيبي يسعى إلى إرضائه، والوصول إلى أقصى درجات القرب منه[١٧٨].

---

[١٧٣] -ينظر:الترابي،**الإيمان بالله**،ص٨٥،بتصرف يسير.

[١٧٤] - ينظر:أبو حيان،ج٢،ص،١٩٨،وينظر:أبو السعود،ص٢٤٣-٢٤٤.

[١٧٥] -ينظر:قطب،**الظلال**،ج١،ص٢٦٩.

[١٧٦] -أبو حيان،ج٢،ص٥٩٢.

[١٧٧] -أبو السعود،ص٢٤٣-٢٤٤.

[١٧٨] -ينظر:مالك بن نبي، **شروط النهضة**،ص٧٥.

وعلى قدر تفاوت القيم المستكنة في العقائد المفجرة لحضارات شتى، تكمن قوة الحضارة ومقدرتها على البقاء ومقاومتها لعوامل الفناء.

ومن الجدير بالذكر أن ما مرّ من حضارات كان لها شأو كبيرٌ في زمانها، وامتدادٌ واسعٌ على الرقعة الأرضية، إلا أن هشاشة المعتقد في قلوب أصحابها جعلها أثراً بعد عين، فلم يعد لها من ذكر، لنتمكن إذا من تسجيل سنة اجتماعية وحقيقة كونية من أن شمس الحضارات يتوقف إشراقها على جهد إنسانها، وأن قوة هذا الإنسان وتفعيله لجهده إنما تمده بها عقيدته وفكرته التي استقرت في أعماقه، وكذا شأن الحضارة الإسلامية، فإن منحنى صعودها وهبوطها متوقف على جهد إنسانها وبذله وفاعليته، إلا أن المفارقة بينها وبين ما سواها من الحضارات تكمن بثبات عقيدة التوحيد في قلب معتقدها، والتي تلتصق به روحاً ومادة حائلة دون إبادتها أو اندثارها، حتى يرث الله الأرض ومن عليها[١٧٩]، ومن هنا فإنه لا بد من إعادة تقرير للحقيقة القائلة بأن أخطر الإصابات الحضارية على الإطلاق تلكم التي تلحق بأنفسنا وأرواحنا وبنائنا الداخلي[١٨٠].

{إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ } الرعد: ١١

---

[١٧٩] -ينظر سفر،محمود(٢٠٠٥):**الإصلاح رهان حضاري**،ط١،ص٩٩،بيروت:دار النفائس.

[١٨٠] -ينظر:سفر،**دراسة في البناء الحضاري**،ص١٠.

المبحث الثاني:سموّ الأخلاق

الخُلُق لغةً: العادة والسجية والطبع والمروءة والدين[١٨١]، والخَلق يستعمل في إبداع الشئ من غير أصل ولا احتذاء، وقُصر هذا المعنى على الخالق سبحانه[١٨٢]إن فُهم بحرفيته الحسيّة، على أنه يمكن إجراؤه على الإنسان حين يَعْمَد إلى تغيير نفسه ليصل بها رتبة التجديد.

وزاد الفيروز آبادي بأن "الخلق بذل الجميل وكف القبيح، أو التخلي عن الرذائل والتحلي بالفضائل"، وعَدّ له أربعة أركان: الصبر والعفة والشجاعة والعدل[١٨٣].

أما في المعنى الاصطلاحي فقد أورد الجرجاني في تعريفاته أنه: ملكة تصدر بها عن النفس الأفعال بسهولة ويسر من غير تقدم فكر وروية وتكلف[١٨٤]، بمعنى أنها الانطباعات التي تشكل النفس بصورة واضحة الملامح محددة السمات تُعرف بها ويتصور تبعاً لها ردود أفعالها.

ولا بد أن نؤكد على حقيقة كون الحياة الخلقية للإنسان ليست لحظات منفصلة فيما بينها، وإنما هي وحدة من الأفعال تشكّل تاريخاً خاصّاً بصاحبها وتمنحه هويّة قائمة به .

فالأخلاق أفعالٌ حيّة، والأفعال الحيّة تاريخ، والتاريخ لا يحيا إلا بالقصة[١٨٥]، لذا سنجتهد أن نستنبط من خلال المشاهد التي نعرضها ما يؤكد لنا أن أخلاق الإنسان هي قصته التي تحدد هويته وتثبت قدرته على المشاركة في بناء أمته، أو وقوفه عائقاً دون تحضُّرها وارتقائها.

على أن هذه الأخلاق على اتساع رقعتها-كي تمتد فتشمل كل حركة وسكنة امتدادَ حياة صاحبها-لا يمكن حصرها في مشاهد معدودات، وإنما هي محاولة

---

[١٨١] -ينظر:الجوهري ،إسماعيل بن حماد(ت٣٩٣هـ)**الصحاح في اللغة**،ط٤، مادة خلق، ج٢، ص١٣،بيروت:دار العلم،١٩٩٠.

[١٨٢] -ينظر: الفيروز آبادي،**القاموس المحيط**،ج٢،ص٥٦٦.

[١٨٣] -ينظر:المصدر السابق، ج٢،ص٥٦٧-٥٦٨.

[١٨٤] -ينظر:الجرجاني،علي بن محمد(١٤٠٥)، **التعريفات**،ط١،ص١٣٦،تحقيق:إبراهيم الأبياري،بيروت:دار الكتاب العربي.

[١٨٥] -ينظر:عبدالرحمن،طه(٢٠٠٩)، **سؤال الأخلاق**،ط٤،ص١٥٦-١٥٧،المغرب،البيضاء:المركز الثقافي العربي.

لإسقاط الضوء على جوانب أخلاقية تُشكل مَعْلماً يَبين من خلاله أهمية قيام هذه المعاني-المذكورة وغير المذكورة-في أعماق جيل يسعى للبناء والنماء.

المشهد الأول: قصة قوم لوط عليه السلام:

فطرة الإنسان يتنازعها مَيْلان متناقضان:

أولهما:الشعور بالواجب الذي يرفع صاحبه إلى جنبات قدسية باعثاً في أعماقه صوتاً مدوياً منفراً إياه من ارتكاب أي انتكاسة خلقية تخدش معيار القيم الذي يشعر به في جنباته.

وثانيهما:الميول الغريزية التي تلبي هواه وتبعث فيه شعوراً بالسعادة لحصوله على لذائذه ومطالب جسده، وينبعث صوت هذه الميول قوياً فتاكاً لما يلمسه صاحبها من أثر سريع حتى تغطي بقوة اندفاعها كل ما عداها، فيندثر نداء الواجب حيالها وينزوي بلا أثر له، ولو اجتمع للإنسان الموازنة بين الميلين لتحقق الخير الأعظم له[١٨٦].

والمشاهد التي عرض لها القرآن الكريم راوياً أحداث قوم لوط، والانحراف الذي أصابهم فأعمى بصائرهم حتى هدموا بأيديهم ما شيّد أجدادهم من قبل تُظهر طغيان صوت الغريزة وتبجحه، حتى تنحرف بصاحبها عن جادة الفطرة، هاوية بالقوم دركات الشقاء، بعد أن كانوا في قمة النعماء.

وكذا كل حضارة. . فإن مكمن قوتها في أصل الفكرة التي قامت عليها، فإن كانت على حق-وليس ذلك إلا لدين الله-بقيت وإن اعتراها بعض الوهن مدة من عمر الزمن، وإن كانت على باطل زوت وإن علا شأنها دهورا طويلة.

ولقد وردت مشاهد القصة في أربعة عشر موضعاً من سور القرآن، ما بين إيجاز وتفصيل، وتناول للحدث من زواياه المختلفة، وإظهار للأبعاد النفسية التي تمكنت من أفراد هذه الأمة فغدت أخلاقاً وسيماء بادية، لا يكتفون بمجرد الإعلان عنها بل يتجاوز الحد إلى درجة المطالبة بها، رغم خساستها ودنوها، وما قولهم: **"وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا**

---

[١٨٦] -ينظر:النجار،**فقه التحضر**،ص١٠٦-١٠٧.

نُرِيدُ" **(هود٧٩)**إلا كَشْفٌ عن نفسية اجتماعية منحرفة تحلل أصحابها من قيود الفضيلة، فلم يصدهم حياء أو إيمان، بل أعلنوها في صفاقة وكأنهم لا يأتون منكرا.

فالفرد يكتسب من وجوده وسط الجمع قوة تشجعه على الاسترسال فيما كان يحجم عنه منفرداً من الميول والأهواء[١٨٧]، وهذه أولى مؤشرات انحلال الحضارة، حيث يدب الفساد في أرواح الناس ويطرأ تغير جذري على سلوكهم ومشاعرهم وحياتهم كلها، فيحل محل الصفات الجيدة والقوى المبدعة التي كانوا يتحلون بها في دور النمو لحضارتهم[١٨٨]، حيث يَحلُّ مكانها تحكُّم النزعات وتسيير الأهواء وبروز الأنانية والفردية وهتك واحتقار كل معنى أو قيمة إنسانية.

أ-عموم البلوى بداية الانهيار:

لقد تمكّنت السكرة في قوم لوط حتى ما بقي وصف سوء يوصف به امرئ إلا وأطلقه القرآن عليهم ،فهم قومٌ مسرفون،عادون،جاهلون،مجرمون،ظالمون،فاسقون،يقول تعالى:

"**بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ**" الأعراف:٨١

"**بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ**" الشعراء:١٦٦

"**إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَاسِقِينَ**" الأنبياء:٧٤

"**إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ**" العنكبوت:٣١

والمعنى المشترك لهذه الأوصاف-كلٌّ في سياقه-تجاوز الحد،مع التعبير عنها جميعاً-في مواضعها المختلفات-بصيغة الجملة الاسمية لتدل على ثباتها وتمكنها منهم على صورة يستحيل معها زوالها أو تبدلها.

---

[١٨٧] -ينظر:نقرة،التهامي(١٩٧١)، **سيكيولوجية القصة**،رسالة دكتوراه،جامعة الجزائر،ص٨٨،بتصرف،الشركة التونسية للتوزيع.

[١٨٨] -ينظر:السامرائي،**نحن والحضارة والشهود**،ج١،ص١٤٢.

إن الإسراف الذي وصف به قوم لوط هو إسرافهم في تجاوز منهج الله المتمثل في الفطرة السوية، وإسرافٌ في الطاقة التي وهبهم الله إياها لأداء دورهم في امتداد البشرية ونمو الحياة[١٨٩]، وهو اعتداء بمجاوزته الحق وجهل بأضربه الثلاثة:بمعنى فقدان العلم، واعتقاد الشيء بخلاف ما هو عليه، وفعل الشيء بخلاف ما حقه أن يفعل[١٩٠]، أي السفه والحمق، وقد كان متحققا في هذا الانحراف البغيض، فالذي لا يعرف منطق الفطرة يجهل كل شيء ولا يعلم شيئاً أصلا، والذي يميل هذا الميل عن الفطرة سفيه أحمق معتد على جميع الحقوق[١٩١]، كما أنها جريمة بما تحمله من معنى مجازي لاكتساب كل مكروه[١٩٢]، وهو ظلم وفسق، ظلم بوضع الشيء في غير موضعه المختص به[١٩٣]، وفسق بخروجه عن الحد المعقول[١٩٤].

إن شيوع هذه الفعلة والتي سماها القرآن ب(الفاحشة) هكذا بأل العهدية التي تومئ بشهرتها وفشوّها وما تدل عليه من معنى بلوغ الغاية في القبح[١٩٥]، هي التي كانت سببا في إرسال الله نبيه لوطاً عليه السلام لدعوتهم وإيقاظهم من غفلتهم، ولكن مرضهم قد استفحل وانتقل إلى مرحلة العدوى، لتعطينا ظاهرة هؤلاء القوم أن المرض النفسي يعدي تماما كما المرض الجسدي، وذلك عندما تختل المقاييس وينتشر المثل السيئ[١٩٦].

ب-الفساد شعار البلاد:

لقد تفشى الداء في أعماقهم من ناحية، وفيما بينهم من ناحية أخرى حتى باتوا يتسابقون على اصطياد فرصه، غير مبالين بأيّ قيمة من القيم التي يمتاز بها الإنسان فيستحق لأجلها تكريما وتشريفا[١٩٧] فنجدهم تارة يُهرعون، وأخرى يستبشرون بما هم عليه من انحدار وهم في غيّهم ساهون لاهون.

---

[١٨٩] -ينظر:قطب،**الظلال**،ج٣،ص١٣١٥.

[١٩٠] -ينظر:الراغب الأصفهاني،**المفردات**،ص١٠٩،وينظر:**ابن عاشور**،ج١٩،ص٢٧٩.

[١٩١] -ينظر:قطب،**الظلال**،ج٥،ص٢٦٤٧.

[١٩٢] -ينظر:الراغب الأصفهاني،المفردات،ص٩٨.

[١٩٣] -ينظر:المصدر السابق،ص٣١٨.

[١٩٤] -ينظر:المصدر السابق،ص٣٨٢.

[١٩٥] -ينظر:**ابن عاشور**،ج٨،ص١٧٨،وينظر:ج٢٠،ص١٦٢من المصدر نفسه.

[١٩٦] -ينظر:قطب،**الظلال**،ج٤،ص١٩١٣.

[١٩٧] -ينظر:عباس،**القصص القرآني إيحاؤه ونفحاته**،ص١٨٨.

والقرآن الكريم بإعجازه البياني الفريد يأتي بالفعل يُهرع مبنيا للمجهول، وذلك للتركيز على الفعل المشين، **"وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ "(هود٧٨)** مبينا شدة إقبالهم باندفاع، كأنهم يعشقون ما هم ذاهبون إليه، فكلٌّ منهم له دربة على ذلك الفعل، بل إن كلا منهم ذاهبٌ إلى ما يحب دون تهيب باندفاع من نفسه أو دفع من غيره[١٩٨]، بمثل هذه العلانية الفاضحة سعى القوم في طلب المنكر-فوق المنكر ذاته-شئ بشع لا يكاد الخيال يتصور وقوعه لولا أنه وقع، فقد يشذ فرد مريض فيتوارى بشذوذه ويتخفى بمرضه ويحاول الحصول على لذته المستقذرة في الخفاء وهو يخجل أن يطلع الناس عليه، بينما أولئك يجاهرون بها ويتجمهرون لتحصيلها ويستبشرون جماعات وهم يتلمظون عليها، إنها حالة من الارتكاس معدومة النظير[١٩٩].

لقد سئموا الشهوات المعتادة، فاشتهوا لذلك شهوة غريبة، وهذا شأن الاسترسال في الشهوات حتى يغدو المرء لا يُشبع شهوته شيء أبدا[٢٠٠]، إنها الإباحية التي تجعل من العلاقات الطبيعية الفطرية المباحة أمرا لا يُلتفت إليه ولا يُشبع ميلا أو يُغني حاجة، فتُفتح الأبواب أمام الشذوذ الجنسي معلنة بداية الانهيار، وقد جاء على لسان إحدى الفتيات الأمريكيات في أثناء مناقشة عن الحياة الاجتماعية في أمريكا:أن مسألة العلاقات الجنسية مسألة بيولوجية بحتة، وأن بعضهم يعقد هذه المسألة البسيطة بإدخال عنصر الأخلاق فيها، فالحصان والفرس والثوروالبقرة والديك والفرخة، لا يفكر أحدها في حكاية الأخلاق هذه وهو يزاول الاتصال الجنسي ولذلك تمضي حياتها سهلة بسيطة مريحة[٢٠١].

مثل هذا الفهم للأخلاق هو الذي ساد بين أفراد قوم لوط، لقد نظروا إليها-تماماً كنظرة الغرب لها الآن-على أنها زيادات لا ضرر على الهوية الإنسانية في تركها، متجاهلين تماماً كونها ضرورات، إذا فُقدت تفقد معها الهوية الإنسانية، بدليل أن الإنسان لو أتى ضدها لعُدّ في الأنعام لا في الأنام**"إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا "((الفرقان٤٤)**

---

[١٩٨] -ينظر:ينظر:**الألوسي**،ج١٢،ص١٠٥ ،وينظر:**الشعراوي**،ص١٥٣٨.

[١٩٩] -ينظر:قطب،**الظلال**،ج٤،ص٢١٤٩.

[٢٠٠] -ينظر:**ابن عاشور**،ج٨،ص١٧٩.

[٢٠١] -ينظر:قطب،**الإسلام ومشكلات الحضارة**ص٧٦.

إن ضرورة الخُلق للإنسان كضرورة الخَلق سواءً بسواء، فلا إنسانية بغير أخلاق[٢٠٢].

وعندما تتلاشى الهوية تلوح كلماتٌ تنبئ سامعها أن مُحدثَّه يتردى في هاوية البهيمية، إنهم يشيرون بتبجح واستهتار:" **أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ "(النمل٥٦)**إنه قلب للحقائق بعد أن شاعت الأفعال الذميمة وساد أهل المجون والخلاعة، بل إنه افتخارٌ بما هم فيه من القذارة[٢٠٣] وإقرارٌ له حتى لا يبقى على الساحة لناظر سواه، **"أخرجوا آل لوط"**إنها ذات النبرات التي تتعالى في جنبات الأمم التي تدّعي لنفسها الحضارة هذه الأيام، مطاردة للذين يتطهرون في أرزاقهم وأنفسهم وأموالهم وأفكارهم وتصوراتهم، ولا تطيق أن تراهم يتطهرون، لأنها لا تتسع ولا تُرّحب إلا بالملوثين الدنسين القذرين[٢٠٤].

يقول شارل ديغول(charles –de-gaulle)♦:"إن مجتمعاتنا الأوربية فقدت شيئا ثمينا جدا تحت وطأة تقدمها الضخم، ألا وهو الإنسانية، وأعني بها القيم الروحية البشرية العليا، فقد قطعت حضارتنا تلك الصلة المعنوية التي تربط البشر بعضهم ببعض، لقد جفَّ شعورنا وتجمدت قيمنا الأخلاقية وانحلت[٢٠٥]".

ج-بين الأمس واليوم:

لقد بلغت درجة شيوع الفاحشة-سواء في قوم لوط بالأمس أو في حضارة الغرب اليوم-حدّاً جعلهم يبصرونها بأعينهم ويمارسونها في نواديهم ويدركون سوءها وقذرها بقلوبهم[٢٠٦]، إلا أنهم بالرغم من ذلك مصرون ماضون، لا يضيرهم نداء فطرة، ولا استثارة نخوة، ولا استنقاذ معتقد.

---

[٢٠٢]-ينظر:طه عبد الرحمن،**سؤال الأخلاق**،ص٥٤-٥٥.

[٢٠٣]-ينظر:**السمرقندي**،نصر بن محمد(ت٣٧٣)،بحر العلوم،ج٢،ص٥٨٨،(تحقيق:محمود المطرجي)،بيروت:دار الفكر وينظر:**أبو السعود**،ج٣،ص٢٤٥،وينظر:**ابن عاشور**،ج٨،ص١٨٠

[٢٠٤]-ينظر:قطب،**الظلال**،ج٣،ص١٣١٦

♦جنرال ورجل سياسة،تخرج من المدرسة العسكرية في فرنسا، ألف عدة كتب حول التصور السياسي والعسكري،كان أول رئيس لفرنسا، توفي عام١٩٧٠، عن عمر يناهز الثمانين.

[٢٠٥]-قطب،**الإسلام وأزمة الحضارة**،ص٢١.

[٢٠٦]-ينظر:**الزمخشري**،ج٣،ص٣٧٨،وينظر:**الرازي**،ج٢٤،ص٥٦٢،وينظر:**أبو السعود**،ج٦،ص٢٩٤.

"هؤلاء بناتي هن أطهر لكم"(هود٧٨)إنه هتاف الفطرة، لجأ إليه لوط في محاولاته مع قومه علَّها تلامس القلوب الميتة فتحرك فيها إحساسا ولكن دون جدوى.

لتأتي المحاولة الثانية:**"فاتقوا الله وأطيعون"(الشعراء١٦٣)**يطرق باب التدين الذي فُطر عليه الخَلق، هذه الفطرة هي الأخلاق التي رزقها الخالق لمخلوقه قبل أن يخرج إلى العالم ليكتسب أخلاقاً على وفقها أو خلافها[٢٠٧]، ولكن لا جواب.

فتكون المحاولة الأخيرة، تَلَمُّس جانب المروءة والنخوة والتقاليد، فقد كان من عادة البدو إكرام الضيف**"ولا تخزون في ضيفي"(هود٧٨)"**إن هؤلاء ضيفي فلا تفضحون"(الحجر٦٨)مثيراً بذلك رواسب الحياة في نفوسهم، ولكن النتيجة كانت بجعله الجاني الذي هيأ لهم أسباب الجريمة باستضافته الرجال عنده**"أولم ننهك عن العالمين"(الحجر٧٠)**[٢٠٨].

تلكم هي حال القلوب التي تعميها شهوتها، وتعلوها قذارتها، تتهاوى بين يديها كل قيمة ويذوب كل معنى، إن العاقل في أقل درجات وعيه يدرك أن القيم الكبرى لا يُضحَّى بها من أجل قيم أقل، وأن دفع المفسدة مقدَّم على جلب المصلحة-هذا إن كان في الركض وراء الشهوات مصلحة-ولكنه ذبول الفهم والإدراك، فمتى كان قويا فعّالا سَلم كل شيء، وإن ضَعُف صارت قاعدة السلوك: تحقيق الرغبات الشخصية دون الأخذ بعين الحسبان أثر ذلك على الجماعة وسلامتها، بل دون مراعاة للمستقبل[٢٠٩].

إن لوطا يهددهم بدمار آتيهم من عند ربهم فلا يتعدّى الرد على تهديده قولهم**"ائتنا بعذاب الله إن كنت من الصادقين"(العنكبوت٢٩)**إنه ذات الرد تتطاول به أعناق مُدَّعي الحضارة اليوم ولكن بشكل آخر، ومن الواضح لكل ذي عينين أن دعوى الحضارة في سبيلها إلى الانتحار، وما بقي منها لم يعد في أمان، إنها لا تزال قائمة لأنها لم تتعرض للضغط المدمر، لكنها بنيت على شفا جرف هار ومن المحتمل أن يجرفها أي انهيار جديد[٢١٠].

---

[٢٠٧]-ينظر:طه عبد الرحمن،**سؤال الأخلاق**،ص٥٤،من الهامش.

[٢٠٨]-ينظر:قطب،**الظلال**،ج٤،ص٢١٤٩،١٩١٤وص،وص٢١٥٠.

[٢٠٩]-ينظر:السامرائي،،**نحن والحضارة والشهود**،ج٢،ص١٢٣.

[٢١٠]-ألبرت،اشفيستر،**فلسفة الحضارة**،ص١٢،وقد دون هذا الكلام عام ١٩٢٣.

إن الفاحشة التي عمَّت قوم لوط وكانت سببا في زوال وجودهم لم تأت من فراغ، لقد استشرى وهن القيم وتلف الأخلاق في جنبات مجتمعهم حتى تآكلت أركانه، فجاءت هذه الفاحشة-بخبثها ودناءتها-لتكون القاضية.

"أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنْكَرَ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ "(العنكبوت٢٩)فلم تبق صفة من صفات السوء إلا وتجلت مظاهرها بينهم، فالتكذيب والجدل وإتيان الفواحش والاعتداء والإجرام والإسراف وعمل السيئات والخبائث وإتيان المنكر وقطع السبيل، وتلك هي أسوأ الصفات التي يمكن أن يتصف بها قوم، إن هذا الصلف والترهل، بل هذا التدني والانحدار، بل التعري من كل رداء من أردية الإنسانية[٢١١]، لهو السبيل الذي يجرف في طريقه كل ما يقع عليه، فليس بعد قيمة (الإنسانية) من غال، إن فُقدت فقد كل ما سواها من حجر أو شجر أو معدن.

وكيفية زوال الحضارات مرتهن بين يدي الله، تتقلب أشكاله وتتعدد، ويبقى للحكيم حكمته، أما هؤلاء فقد اختير لهم مطر بما يوحي تنكيره من تعظيم[٢١٢]، وعلى الرغم من أنه المحيي المنبت، إلا أنه جُعل سبباً لهلاكهم مماثلة لاستخدامهم ماء الحياة في غير ما جُعل له[٢١٣].

المشهد الثاني:قصة موسى عليه السلام والمرأتين:

في عملية البناء لإيجاد القاعدة التي تقدر على إيجاد المجتمع المنشود والنهوض بأعباء التحضر على وجهه الأكمل لا بد من إيجاد الأنموذج النبوي الذي تمكّن من تحقيق أعظم حضارة في زمانه.

هذا الأنموذج لا يمكن أن يتأتى تحقيقه من خلال القراءة البحتة، إذ إن العمل يُتوارث تماما كما تُتوارث الرواية، والظفر بمثل هذه النماذج يحتاج إلى اقتداء حيّ لا

---

[٢١١]-عباس،**القصص القرآني**،ص٢٠٥-٢٠٦.

[٢١٢]-**ابن عاشور**،ج٨،ص١٨٠.

[٢١٣]-قطب،**الظلال**،ج٥،ص٢٧٣٣.

الاكتفاء بالتأمل المجرد، ومن ثمّ فلا بد من توفر هذه البيئة القادرة على إنجاب مثل هذه النماذج النبوية الحيّة المشاهدة[٢١٤].

وموقف سيدنا موسى-عليه السلام-حال وصوله مديَن مع المرأتين هو أحد المواقف التي يبرز لنا من خلالها عظمة الخُلق حين يتمثله صاحبه، سواءً كان رجلاً أو امرأة، وطمأنينة المجتمع الذي يشهد بين جنبيه أمثال تلك النماذج، وطرائق التفكير السائدة في عقول أهله والتي تصب كلها في بؤرة واحدة من الهدوء والسكينة والاستقرار، والتي تُمكّن أهله من الانطلاق قُدُماً دون الخوف من طعنة في الظهر تأتي من قريب أو غريب، يقول تعالى: {وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدۡيَنَ وَجَدَ عَلَيۡهِ أُمَّةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسۡقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمۡرَأَتَيۡنِ تَذُودَانِۖ قَالَ مَا خَطۡبُكُمَاۖ قَالَتَا لَا نَسۡقِي حَتَّىٰ يُصۡدِرَ ٱلرِّعَآءُۖ وَأَبُونَا شَيۡخٞ كَبِيرٞ ٢٣ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلۡتَ إِلَيَّ مِنۡ خَيۡرٖ فَقِيرٞ ٢٤ فَجَآءَتۡهُ إِحۡدَىٰهُمَا تَمۡشِي عَلَى ٱسۡتِحۡيَآءٖ قَالَتۡ إِنَّ أَبِي يَدۡعُوكَ لِيَجۡزِيَكَ أَجۡرَ مَا سَقَيۡتَ لَنَاۚ فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيۡهِ ٱلۡقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفۡۖ نَجَوۡتَ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ٢٥ قَالَتۡ إِحۡدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسۡتَـٔۡجِرۡهُۖ إِنَّ خَيۡرَ مَنِ ٱسۡتَـٔۡجَرۡتَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡأَمِينُ ٢٦ قَالَ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنۡ أُنكِحَكَ إِحۡدَى ٱبۡنَتَيَّ هَٰتَيۡنِ عَلَىٰٓ أَن

[٢١٤]-ينظر:طه عبد الرحمن،**سؤال الأخلاق**،ص٨٥.

تَأۡجُرَنِي ثَمَٰنِيَ حِجَجٖۖ فَإِنۡ أَتۡمَمۡتَ عَشۡرٗا فَمِنۡ عِندِكَۖ وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أَشُقَّ عَلَيۡكَۚ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ٢٧ (القصص)

أ-حياءٌ في ميدان العمل:

يجسد لنا هذا المشهد عظمة النفسية التي يتملكها نبي الله موسى-عليه السلام-فقد بلغ منه التعب والإعياء مبلغه، ولمّا يمض على وصوله زمن يذكر حتى تقع عيناه على امرأتين منزويتين، فعاجلته مروءته وشهامته بمد يد العون لهما بسؤال يقطر كرما ورحمة بالضعفاء: **"ما خطبكما"**؟-والخطب هو الشأن والحدث المهم-ما الذي دعاكما إلى التأخر والانزواء[٢١٥]؟

وقد كانت المرأتان على قدر من سموّ الأخلاق رفيع، تبدت عليهما معالم التسامي الأخلاقي حتى بلغت أقصاه، حيث وقفتا دون القوم في جانب مباعد من الناس[٢١٦]، لتأتي الإجابة على سؤال السائل بحجم يظهر جلال قدرهما دون أن تظهرا ضعفا يومئ بعجزهما، مع بسط السبب الذي يترجم حقيقة موقفهما كي ينجلي عجب السائل، ويأتي بفعل تمليه عليه أخلاقه، **"لا نسقي حتى يصدر الرعاء وأبونا شيخ كبير"** إذاً فهما مضطرتان للخروج للقيام بهذا العمل، وحريصتان على تجنب مواطن الرجال أو الاحتكاك بهم، وتلك منهجية لن يتركاها**"لا نسقي"** هكذا بالفعل المضارع بما يوحيه من استمرارية ودوام على الفعل[٢١٧] **"حتى يصدر الرعاء"**سواءً بقراءة فتح الياء أو ضمها*فإن كلتا القراءتين تفيدان خلوّ المكان من الزحام الذي يحرصان على تجنبه، وتقدمان العذر بين يدي السائل:**"وأبونا شيخ كبير"**وكأنهما تقولان: إنا مع حيائنا تصدينا

---

[٢١٥]-ينظر:**ابن عاشور**،ج٢٠،ص٣٨،وينظر:**الألوسي**،ج١٠،ص٢٦٩.

[٢١٦]-ينظر:**أبو حيان**،ج٨،ص٢٩٦،وينظر:**ابن عاشور**ج٢٠،ص٣٨.

[٢١٧]-ينظر:المصدر السابق.

*قراءة الفتح(يَصدر)تفيد أنهما من فرط حيائهما وتواريهما عن الاختلاط بالأجانب تنتظران حتى تريا الرعاة بذواتهم وقد رجعوا عن السقي،وقراءة الضم(يُصدر)تومئ إلى إرجاع الرعاة لمواشيهم دون أن يُفهم منها صدورهم ورجوعهم عن الماء، بمعنى إفساح المجال لهما كي تسقيا مواشيهما،ينظر:ابن الجزري،النشر،ج٢،ص٣٨١، وينظر:ابن خالويه، الحجة،ص٢٧٦،وينظر:**الألوسي**،ج١٠،ص٢٧٠.

لهذا الأمر لكبر أبينا وضعفه، والكلام –وإن لم يكن فيه ما يدل على ضعفهما-إلا إنه يحمل إشارة بذلك لمن له قلب[٢١٨] يفقه.

"فسقى لهما"بكل ما تحمله الفاء من معنى المبادرة إلى الفعل حال وصوله[٢١٩]، وما دفعه إلى ذلك إلا حياؤهما، فاللام للسبب، وللملك بمعنى زودهما بالماء، رأفة بهما[٢٢٠] ورغبة في المعروف وإغاثة الملهوف، فمع ما كان به من النَصَب ما أخطات همته في دين الله تلك الفرصة، فرحمهما وأغاثهما وكفاهما أمر السقي في مثل تلك الزحمة بقوة قلبه وقوة ساعده[٢٢١]، ثم تولى إلى الظل ليُعلّم بفعله أن الأخلاق بعدد أفعال الإنسان، ولما كانت هذه الأفعال أكثر من أن تحصى كانت الأخلاق مثلها لا تحصى[٢٢٢]، وكذا كان موسى عليه السلام أحد النماذج المحتذاة في مسيرة البناء، فلم يكفه-رغم نَصَبه-تلبية نداء الضعيفتين، ولكنه راح يبحث عن محتاج يعينه أو ضعيف يشد من أزره، كل هذا يصوره الحرف(ثم)بما يدل عليه من معنى التراخي الزمني، فلما أن اطمأن إلى عدم وجود المحتاج تولى إلى الظل مناجياً ربه الذي تولاه بعنايته ورعايته، فحاجته شديدة، جوع ونصب وغربة، ولكنه التسامي المجرد، لم يطلب أجراً على معونته-رغم شدة حاجته-إلا أنه طلبها من خالقه سبحانه**"رب ّ إني لما أنزلت ألي ّ من خير فقير"**

إنها الصورة المشرقة للمجتمع الذي يحق لنا أن نطلق عليه وصف التحضُّر، لا كتلك الأخلاق التجارية التي تراها أمينة حين تحقق لها الأمانة مكسباً مادياً، أو صادقة إن جلب لها الصدق منفعة قريبة، أو وفية إن كان الوفاء وسيلة للوصول إلى مصلحة، فهذه ذاتها الأخلاق التي باسمها تُسرق البلاد وتُستنزف الخيرات[٢٢٣].

ويأتي الرد الإلهي سريعا:**"فجاءته إحداهما تمشي على استحياء"**لنتلمس من خلال هذه الاستجابة الربانية، عظمة الأخلاق حين تسيطر بنظامها على ضمائر الأفراد، وتُسيّر حركاتهم، لقد جاءت بذاتها إذ لا بديل عنها، ولكنها جاءت بحيائها، وقالت

---

[٢١٨] -ينظر:الألوسي،ج١٠،ص٢٧٠ بتصرف يسير.

[٢١٩] -ينظر:**ابن عاشور**،ج٢٠،ص٣٨.

[٢٢٠] -ينظر:المصدر السابق.

[٢٢١] -ينظر:**الزمخشري**،ج٣،ص٤٠٥.

[٢٢٢] -ينظر:طه عبد الرحمن،**سؤال الأخلاق**،ص٥٥.

[٢٢٣] -ينظر:الوكيل،**قواعد البناء**،ص٧٣.

بحيائها، وقد تمكّن منها الحياء حتى بدا مستعليا عليها[٢٢٤]**"على استحياء"**، وأيُّ حياء هو؟ إنه-لتنكير لفظه- عظيمٌ فخيم[٢٢٥]، إن كان لمشيتها-عند من وقف على الوصف-أو كان لقولها-عند من وقف على فعل القول[٢٢٦]-وهي متمثلة الحالين،فلفرط حيائها في قولها- بعد حيائها في مشيتها-بسطت بين يدي موسى-عليه السلام-سر مجيئها وحقيقة دعوتها لئلا يوهم كلامها ريبة من ناحية، ناهيك عما يحمل من كمال العقل والحياء والعفة من ناحية أخرى[٢٢٧]: **"إن أبي يدعوك ليجزيك أجر ما سقيت لنا"**إنه الأدب الجم الذي حرص العابثون على استبداله بالأدب الفاحش الخليع، لينحط المستوى الأخلاقي فتظهر المرأة في عريها غير مكترثة بقيد ولا التزام، ويكون هذا أحد أهم أسباب زوال حضارتنا، تماماً كما كان الحال مع الرومان ومن تبعهم فإن اتباع الأهواء أوردهم موارد الفناء[٢٢٨].

ب-رفعة الروح هي المطلب والغاية:

وتمضي مشاهد القصة مصورة ملمحاً جديداً من ملامح النفس حين تتمكن منها فكرة السمو فتغدو مثلا للاحتذاء والاقتداء، وتظهر المرأة بعمق فهمها وعلو نفسها مرة أخرى، لتنطق بقاعدة أخلاقية تبقى ما بقيت الخليقة:**"إن خير من استأجرت القوي الأمين"** فالقوة بما تضبطه من قوة النفس والجسد، والأمانة بما تحمله من أمانة الروح والمادة، هي أسمى ما يصبو إليه عاقل من خلق يتمثله في حياته، إذ تندرج تحتها كل الفضائل بلا استثناء، وقد تمكنت هذه الكمالات لدى موسى عليه السلام فمجيءالفعل بصيغة الماضي(استأجرت)يدل على أنه أمين مجرَّب[٢٢٩]، ولبيان مدى المبالغة في عدم استحقاق هذه الخيرية لأحد سوى حامل هذين الوصفين قدمت(**خير من استأجرت**)وجعلت اسماً لإن، ليأتي بعد ذلك دور الأب الحريص على طهارة أسرته ونقائها، فاستئجار غريب للعمل واضطراره للمبيت في أسرة لا تربطه بها رابطة من نسب لهي بداية انهيار كل المعاني السامية.

---

[٢٢٤] -ينظر:**ابن عاشور**،ج٢٠،ص٣٩.

[٢٢٥] -ينظر:**أبو السعود**،ج٧،ص٩.

[٢٢٦] -ينظر:**الرازي**،ج٢٤،ص٥٩٠.

[٢٢٧] -ينظر:المصدر السابق.

[٢٢٨] -ينظر:قطب،**الإسلام ومشكلات الحضارة**،ص١٥٣.

[٢٢٩] -ينظر:**أبو السعود**،ج٧،ص١٠.

وهكذا نجد أثر الجماعة حينما تحرص على رعاية أخلاقها، فتقيم الرقابة الجماعية تارة والتي تمدح أو تذم، تكافئ أو تعاقب، حسب الفعل الصادر من الأفراد، وتضع الخطوات العملية تارة أخرى والتي على أساسها ترسخ في جمهور أفرادها قيما يصبح الالتزام بها عادة ينبعث إليها الفرد طوعاً من تلقاء نفسه ومن وراء وعيه المباشر[٢٣٠].

"إني أريد أن أنكحك إحدى ابنتي هاتين" ولما كانت هاتان المرأتان على مثل هذا السمو الأخلاقي، وكان الزوج المقترح هو الأنموذج المتمثل في رسول الله موسى كان من الحقيق فعلاً أن تكون هذه الأسرة هي النواة الأولى التي شاء الله أن تُبني عليها أمة عظيمة قادها نبيه موسى دهراً من الزمان طويلاً، تضع للمتأمل معالم طريق ومنارات سبل.

فالمرأة هي صانعة الجنس البشري وحارسة العش الذي تدرج فيه الطفولة، هي الأمينة على أنفس عناصر هذا الوجود(الإنسان)وهي المَحضن الآمن النظيف الواعي المتخصص لإنتاج البشر، وهي أثمن وأغلى ما في هذه الأرض[٢٣١].

وهذا تماماً ما يحاول بنو صهيون في بروتوكولاتهم أن يهدموه إذ يقولون:يجب أن نعمل لتنهار الأخلاق في كل مكان، فتسهل سيطرتنا، إن فرويد منا وسنظل نعرض العلاقات الجنسية في ضوء الشمس لكي لا يبقى في نظر الشباب شيء مقدس[٢٣٢].

المشهدالثالث: يوسف عليه السلام وامرأة العزيز:

وسوف نعرض في أولى هذه المشاهد لما جرى في واحد من بيوتات المترفين المتحكمين، بين صاحبة البيت–والتي بيدها الأمر ولا يحول دون رغبتها حائل-وبين عبدها الذي يعمل عندها وقد اشتهر بوسامته وجماله وعصمته، إذ يقول تعالى: **{**وَرَٰوَدَتۡهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيۡتِهَا عَن نَّفۡسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلۡأَبۡوَٰبَ وَقَالَتۡ هَيۡتَ لَكَۚ قَالَ

---

[٢٣٠] -ينظر:الترابي،**الإيمان بالله**،ص١٣٩.

[٢٣١] -ينظر،قطب،**الإسلام ومشكلات الحضارة**،ص٧٠.

[٢٣٢] -ينظر:الوكيل،**قواعد البناء**،ص٨٩.

مَعَاذَ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدۡ هَمَّتۡ بِهِۦ ۖ وَهَمَّ بِهَا لَوۡلَآ أَن رَّءَا بُرۡهَٰنَ رَبِّهِۦ ۚ كَذَٰلِكَ لِنَصۡرِفَ عَنۡهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلۡفَحۡشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُخۡلَصِينَ ﴿٢٤﴾ وَٱسۡتَبَقَا ٱلۡبَابَ وَقَدَّتۡ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٖ وَأَلۡفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلۡبَابِ ۚ قَالَتۡ مَا جَزَآءُ مَنۡ أَرَادَ بِأَهۡلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسۡجَنَ أَوۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٢٥﴾ } يوسف

أ-النزال في ميدان الجَنان:

المراودة تقتضي تكرير المحاولة في الملاطفة لأجل السوق إلى غرض والمطالبة به برفق ولين مع ستر ما تريده ممن تريده، فإن كان الأمر مسهلاً فالمراودة تنتهي إلى شيء ما، وإن تَأبّى الطرف الثاني بعد أن عرف المراد فلن تنتهي المراودة إلى الشيء الذي كان يُصبى إليه، لذا يُفهم منها أن الأمر فيه منازعة، ولكنها منازعة الرفق والتحمل بما توحيه لفظة(الرويد)[٢٣٣].

على أنها جاءت بصيغة المفاعلة التي تقتضي المشاركة، وبيان ذلك: لما كان الفعل من أحد الطرفين وسببه من الطرف الآخر، جُعلت كأنها صادرة عنهما باعتبار أن سبب الشيء يُقام مقامه ويطلق عليه اسمه كما في قولهم: كما تدين تدان[٢٣٤].

لقد راودته بالحركة في تثن وانعطاف، وراودته بالزينة والفتنة[٢٣٥]، ولم تأل جهداً في بسط أساليب الخداع والمخادعة كي تنال منه ما تريد، إيماناً منها بان الحيلة والخديعة هما الوسيلة للوصول لمبتغاها، ويتضمن ذلك إيحاءً بأن ما تبغيه منه هو

---

[٢٣٣]- ينظر:**ابن عطية** ،ج٣،ص٢٤٣،وينظر:**ابن عاشور**،ج١٢،ص٤٤، وينظر:**الشعراوي**،ج١٢،ص١٦٠٦

[٢٣٤]-ينظر:**أبو السعود**،ج،٤ص٢٦٤

[٢٣٥]-ينظر:قطب،محمد علي، **يوسف وامرأة العزيز**،ص١٧-١٨،القاهرة:مكتبة القرآن

خسارة النفس وضياعها، وذلك يقتضي مجاوزة النفس والبعد عنها[٢٣٦]، فجاء البيان القرآني بدقيقة من دقائق إعجازه في تعدية الفعل راود ب(عن)بدل(على).

لقد بلغت المرأة درجة من حالة الغياب عن الضمير الإنساني سمحت معها لشيطانها أن يتلبسها فتكون مصدراً للفتنة والكيد، ولكن يوسف ظلّ كالطود الشامخ لا تهزُّه الأعاصير، غير عابيء بها أو ملتفت إليها، رغم صعوبة الظرف الذي يحيا فيه، فهو-عليه السلام-في بيتها، وكونه كذلك من شأنه أن يطاوعها ولكنه أبى، فجاء التعبير بالموصول(**التي هو في بيتها**)مُظهراً كمال نزاهته واستعصاءه عليها وارتقاءه أعلى مدارج العفة رغم دوام مشاهدته لمحاسنها[٢٣٧]،هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى يتضمن الموصول تحقيرها بالإشارة إليها دون ذكر لاسمها أو اعتبار لرتبتها ومكانتها، إضافة إلى ما تحمله من ستر للحال يتوافق مع المنهج القرآني في تلمسه لمثل هذه المواطن.

وإزاء هذا الموقف الأبيّ الرافض من يوسف-عليه السلام-فقدت المرأة صوابها، وطاش عقلها، وصممت على بلوغ غايتها بأية وسيلة وبأيّ طريق[٢٣٨]،فـ(**وغلّقت الأبواب**) إنها في ضوء الشهوة التي تُعمي عن كل شيء، فلم تحفل بحياء أنثوي ولا كبرياء ذاتي، كما لا تحفل بمركز اجتماعي ولا فضيحة عائلية[٢٣٩]،ولأن النزعة الحيوانية ملكت كيانها وسيَّرت تفكيرها، سعت إلى التغليق، إنه ليس باباً بل أبواب، وليس غلقاً بل تغليقاً محكماً، إنها المبالغة في الإيثاق والإحكام وبياناً لتكرار الحدث، وكشفاً عمّا يجول في أعماقها من خوف وهي تلهث وراء سعار شهوتها الجارف، فإنّ من يفعل الأمر القبيح يعلم قُبح ما يفعل ويحاول أن يستر فعله، وقد حاولت هي ذلك بعيداً عمن يعملون أو يعيشون في القصر[٢٤٠].

وكذا شأن الهوى، فإنه لا يزال بصاحبه حتى يُبطل سرَّ كرامته على سائر الأشياء، ويُعطّل تعلقاته العلوية من فرط شغله بالشهوة السفلية، بل حتى يغشى بصيرته

---

[٢٣٦] -ينظر:الخضري،**أسرار الحروف**،ص٣٢٠

[٢٣٧] -ينظر:**أبو السعود**،ج٤،ص٢٦٥،وينظر:**ابن عاشور**،ج١٢،ص٤٥

[٢٣٨] -ينظر: محمد علي قطب **يوسف وامرأة العزيز**،ص/١٨

[٢٣٩] -ينظر: فهد خليل زايد،**أسرار القصة**،ص/٩٨

[٢٤٠] -ينظر:ابن عجيبة،أحمد بن محمد(١٤٢٣)،**البحر المديد**،ط٢،ج٣،ص٢٦٩،دار الكتب العلمية،وينظر:**ابن عطية**،،ج٣،ص٢٤٣ وينظر:**الخازن**،ج٣،ص٢٧٣،،وينظر:**أبوالسعود**،ج٤،ص٢٦٨،وينظر:**ابن عاشور**ج١٢،ص٤٥ وينظر:**الشعراوي**،ص١٦٠٦

جميعاً، فلا يرى إلاّ ما تحت قدميه ولا يُعنى إلا بالقريب العاجل، ولا ينظر في حياته لمآلاتها البعيدة، ولا يُقدّم شيئاً لآجلته[٢٤١]، بل جُلُّ ما يراه ويُحسُّ به ويدركه هو مطامعه الآنية، فلم تتوان أن ألقت بكل كرامة لها تحت نعال شهوتها قائلة: **"هيت لك"**ضاربة بذلك كلَّ القوانين السائدة في عُرفها والتي تمنع استمتاع المرأة بعبدها كما يستمتع الرجل بأمته[٢٤٢]، منتقلة من مرحلة المراودة إلى مرحلة الوضوح في طلب الفعل[٢٤٣]، ومن طور التصميم إلى ميدان التنفيذ.

إنه ضعف الإيمان هو المسئول الأول عن انهزام الأخلاق وضياع القيم، وتسلط النزعات والرغبات، وسيطرة الأهواء والنزوات على النفس، فلا تكون سوية بل منحرفة، ولا موضوعية بل منحازة[٢٤٤]، وحيثما افتقد الإيمان فإن الإنسان بضلاله عن الله لا يرى في الوجود إلا ذاته يتعبد لها بإشباع شهواته واتباع هواه، ويلتمس الكمال في الطلاقة من كل قيد يحدُّ شهوة بطنه وفرجه، والتعالي عن كل ضابط يكفكف من كبريائه وخيلائه، بيد أن المجتمع بعضه من بعض لا تفشو فيه الجراثيم ومفاسد الأخلاق إلا عادت عليه بالخسران الشامل في كل مناحي الحياة، فتنخر طاقته الاقتصادية، ويضطرب أمنه السياسي، وتتزعزع طمأنينته النفسية[٢٤٥].

وكما يقول مارثن لوثر كنج♦marthin luther king: "فإن سعادة الأمم ليست بكثرة أموالها ولا بقوة استحكاماتها، ولا بجمال مبانيها، وإنما سعادتها بأبنائها الذين تثقفت عقولهم، وبرجالها الذين حسنت تربيتهم واستنارت بصائرهم واستقامت أخلاقهم، في هؤلاء سعادتها الحقة وقوتها وعظمتها الجوهرية[٢٤٦]".

وكذا كان يوسف الصديق بطيب أصله ونقاء محتده، والذي ارتقى به ليتصف بأكمل الخصال وأروعها، ويصيّره خيراً محضاً لا شرَّ فيه، ويكون الإحساس بالشرف

---

[٢٤١]-ينظر:الترابي،**الإيمان بالله**،ص٥٤

[٢٤٢]-ينظر،**ابن عاشور**،ج١٢،ص٤٥

[٢٤٣]-ينظر:**الشعراوي**،ج١٢،ص١٦٠٦

[٢٤٤]-ينظر:سفر،محمود بن محمد،**الإصلاح رهان حضاري**،ص١٦

[٢٤٥]-ينظر:الترابي،**الإيمان بالله**،ص٢١٤

♦زعيم أمريكي من أصول أفريقية، قس وناشط سياسي إنساني،يعتبر من أهم المطالبين بإنهاء التمييز العنصري ضد بني جلدته، حصل على جائزة نوبل للسلام عام١٩٦٤ وكان أصغر من يحوز عليها، اغتيل عام١٩٦٨ على يد مناهضيه، واعتبر من أهم الشخصيات التي دعت إلى الحرية وحقوق الإنسان.

[٢٤٦]-السامرائي،**نحن والحضارة والشهود**،ج٢،ص١٢١

عنده على الدوام عامل استمساك بالفضيلة، وحافزاً على المروءة، لقد شبَّ على أكمل الأوصاف فكفه ذلك عن اتباع الشهوات، وحصر عمله وفكره في موجبات الفلاح[٢٤٧]، لذا ما لبث أن قال: **"معاذ الله إنه ربي أحسن مثواي إنه لا يفلح الظالمون"**

لقد كانت مصر على شفا جرف الانهيار والاندثار بما تعرَّضت له من بلاء يودي بالأمم، وتتحطم أمام قوَّته جبروت الحضارات، ولكنَّ قلباً قويّاً-كقلب يوسف- تمكنت العقيدة منه تمكناً تحوَّلت معه لتغدو ملامح سلوكية مشاهدة حالت دون وقوع الكارثة، ونجت بالبلاد والعباد وحفظت لحضارة مصر مجدها زمناً.

إن غلبة الشهوات البهيمية في الحضارات على مرّ التاريخ-وفي حضارة الغرب كما نشهدها اليوم-هي التي تنخر في كيانها، وتنتقص من قوة حياتها بسرعة هائلة، وما سرى هذا الداء في أمة يوماً إلا أوردها موارد التلف والفناء، لأنه يقتل في الإنسان كل ما آتاه الله من القوى العقلية والجسدية لبقائه وتقدمه في هذه الحياة[٢٤٨].

ب-معالم النجاة:

تصوّر الآيات منهجية الشاب يوسف عليه السلام وهو يرسم معالم النجاة ويخطُّ طريق الخلاص من وهدة السوء، ومستنقعات الآثام**"معاذ الله"** فإن ما يعرض عليه منكرٌ هائل يجب أن يعاذ بالله تعالى للخلاص منه[٢٤٩]، بأن يخلق فيه داعيةً جازمة في جانب الطاعة، وأن يزيل عن قلبه داعية المعصية[٢٥٠]، والمرء لا يستعيذ إلا إذا خارت أسبابه أمام الحدث، وكأن المسألة قد عزَّت عليه فلم يجد ملاذاً إلا الله سبحانه[٢٥١]، ورسول الله صلى الله عليه وسلم يعلمنا أدب اللجوء إلى المولى سبحانه أمام أمواج الفتن بأن نقول:

---

[٢٤٧] -ينظر:قطب،محمد علي،**يوسف وامرأة العزيز**،ص٩١-٩٢

[٢٤٨] -ينظر:قطب،سيد،**الإسلام ومشكلات الحضارة**،ص٣٧-٣٩،بيروت،القاهرة:دار الشروق

[٢٤٩] -ينظر:**أبو السعود**،ج٤-ص٢٦٨.

[٢٥٠] -ينظر:**الرازي**،محمد بن عمر(ت٦٠٦)،**مفاتيح الغيب من القرآن**،ط١،ج١٨-ص٤٤٤بيروت:دار الكتب العلمية،٢٠٠٠م.

[٢٥١] -ينظر:**الشعراوي**،ج١٢،ص١٦٠٦.

"يا مقلّب القلوب والأبصار ثبّت قلبي على دينك"ويؤكد صلى الله عليه وسلّم حقيقةً ثابتة عليها تُبنى أمور بقوله**:"قلب المؤمن بين إصبعين من أصابع الرحمن"**[٢٥٢].

فالضمير الإنساني هو مقياس الحياة الحقيقية، لهذا ركّزت عليه التربية الإسلامية وربطته بخالقه يراقبه في حلّه وترحاله، ويبقى حارساً أميناً يذكّر صاحبه إذا نسي[٢٥٣].

وطالب الخُلُق القويم يعلم أن الله يراه رؤيةً لا تنقطع، وأن هذه الرؤية إذا جاءته بالرضى عن أفعاله سعد سعادةً لا يشقى بعدها أبدا، وإذا جاءته بالسخط شقي شقاوة لا يسعد بعدها أبدا[٢٥٤]، فما فتئ يوسف أن قال: "إنه **ربي أحسن مثواي إنه لا يفلح الظالمون".**

وسواء كان المقصود بالرب الله سبحانه وتعالى-وهو الذي يتولى عباده برعايته وتربيته-أو سيده صاحب القصر، فإن الأمرين كليهما مطلوب في هذا الموقف الرعيب، فعين الله تراه وقلب يوسف غير غافل عنه سبحانه، وكرم سيده غطاه ومروءة يوسف غير متجاهلة له، فأنّى له إتيان السوء من بعد!!إنها كنوز العفاف والتقوى التي يحتضنها كلام يوسف[٢٥٥]،بل إنه-في حقيقة الأمر-يرسم ملامح خريطة أخلاقية يبين فيها حدود تعامل المرء مع من سواه.

"معاذ الله"فالانقياد لأمر الله وتكليفه أهم الأشياء، **"إنه ربي أحسن مثواي"**-على معنى أنه سيده-فحقوق الخلق واجبة الرعاية، **"إنه لا يفلح الظالمون"**صون النفس عن الضرر واجب، فإن "اللذة القليلة إذا لزمها ضررٌ شديد فالعقل يقتضي تركها والاحتراز عنها"[٢٥٦]، ولعمري إنه دستورٌ في الأخلاق ما ترك –على إيجازه-منحىً من نواحي الحياة أو جانباً من جوانب السلوك إلا أتى على ذكره وحواه بين حديه مشتملا بذلك على كل صغيرة وكبيرة من طرائق التعامل بين الخلق بعضهم ببعض، وذلكم هو المنهج الذي سار عليه يوسف في حياته فبوأه الله به ملك مصر، ورفع معه أمةً بأكملها، فالنظام

-رواهما الترمذي في سننه،ج٤،ص٤٤٨، قال الألباني،صحيح،وابن حنبل في مسنده،وقال الأرناؤوط:إسناده قوي على شرط مسلم.

1-ينظر:الوكيل،**قواعد البناء في المجتمع المسلم**،ص٥٢.

[٢٥٤]-ينظر،طه عبد الرحمن،**سؤال الأخلاق**،ص٧٣-٧٤.

[٢٥٥]-ينظر:**أبو السعود** ج٤،ص٢٦٥،وينظر:**ابن عاشور**ج١٢،ص٤٦،وينظر:**الشعراوي**،ج١٢،ص١٦٠٦

[٢٥٦]-**الرازي**،ج١٨،ص٤٣٩

الخلقي القويم هو الذي يقوم على وسيلة ضبط لسلوك الفرد داخلياً، كما يكون الخضوع للقيم إرادياً دون إكراه، كي تسهم هذه القيم الخلقية في إحداث نوع من الاستقرار الجماعي، أما حين يضعف الالتزام الخلقي فيصبح تحقيق الذات متعارضاً مع احترام القواعد الأخلاقية، عندها يكون تأثير القيم قد ضعُف كثيراً ومن ثمَّ يغدو ضبط سلوك الأفراد عسيراً[٢٥٧].

إنها ذات العقيدة حين تتبلور في نفس صاحبها حتى تغدو أثراً خلقياً وانضباطاً سلوكياً ينظم مناشط حياته وينشئ فيه ضابطاً إرادياً حريصاً على مراقبة القيم الخلقية والحفاظ عليها دون إكراه، ومتى بقيت العقيدة متألقة في نفس صاحبها تألقا تتجلى آثاره على سلوكه، يبقى المجتمع ماضياً في ركاب التحضُّر غير آبه بكل ما يدور حوله من انفلات، أما حين تنتكس الفكرة في الضمير ويلهث المرء باحثاً عن سبل أخرى فاقداً الثقة بقيمه الخلقية ومبادئه الثابتة، حينها يتداعى الاضطراب الذي يصيب الأمة بالوهن والذي يكون نذيراً لزوالها.

إنها الانتكاسة للقيم التي مثلتها الآيات في هذا المشهد، تتجلى في نفس المرأة المتبجحة**"ولقد همت به"**فهي جادةٌ في إثمها لا مختبرة، وقد بدا منها نوازع العمل كلها[٢٥٨]، وهذا ما يوصل إليه التسيب الأخلاقي والذي يمكّن الناس من التمتع الكامل بحريتهم النفسية والجسدية، دون إدراك ما ينتظر هؤلاء من الدمار والخراب[٢٥٩] ليأتينا قول الحبيب المصطفى-صلى الله عليه وسلم-:**"إن مما أدرك الناس من كلام النبوة الأولى ،إذا لم تستح فاصنع ما شئت"**[٢٦٠]

ولم يكن يوسف بالشاب المريض ليُعرض عن محاولاتها واستدراجها لأحد هذين السببين، بل كان طبيعياً قد بلغ أشده ونضجه، ليس به من علة تمنعه من الإقبال عليها[٢٦١]، **"لولا أن رأى برهان ربه"** إنه تلازم الرجاء والخوف واتحادهما في نفس المؤمن يورّثاه وعياً دقيقاً بأنه مختارٌ ومبتلى في كل حركة وسكنة، وإحساساً مرهفاً بأنه

---

[٢٥٧] -ينظر السامرائي،:**نحن والحضارة والشهود**،ج٢،ص١٢٤

[٢٥٨] -ينظر:**ابن عاشور**،ج١٢،ص٤٧،**الشعراوي**،ص١٦٠٧

[٢٥٩] -ينظر:الوكيل،**قواعد البناء**،ص٦٨

[٢٦٠] -أخرجه البخاري،كتاب بدء الوحي،ج٤،ص٢١٥،ح٣٤٨٣.

[٢٦١] -ينظر:**الشعراوي**،ج١٢،ص١٦٠٧

مراقبٌ ومسئول في كل لمحة ولحظة[٢٦٢]، إنه البناء الداخلي القويم الذي ما إن عُمر به قلب الفرد حتى ينطلق ماضيا نحو العُليّا لا يحدّه عن مطلبه شيء مهما عظُم.

جـ- ومضة تأصيلية:

لقد تعرّض قائد أعظم حضارة شُيّدت على مرّ التاريخ-محمد صلى الله عليه وسلم-لعملية جراحية في صباه*، تمَّ بها استئصال علقة السوء من صدره، لتعكس لنا هذه الحادثة أن كل قلب يحمل بالخلقة في جوفه علقة سوء، لا بد لصاحبه من عملية جراحية في غاية الدقة والمهارة كي يتمكن من تطهير قلبه منها، وأن المُقدم على أمر ذي بال لهو أولى بمثل هذه العملية لما هو مقبلٌ عليه من مهمة عظمى لا طاقة له على النهوض بها إن لم يستعد لشَق أدق وأخفى عضوٌ فيه، كي يحصل التغيير الذي يرتقي به رتبة التجديد، فإن استخراج العلقة من القلب وغسله بماء مطهر هو تغيير في أصل الإنسان وباطنه كأنما ولد من جديد، ولن يقدر على القيام بمثل هذه العملية إلا العالم بموقع العلقة من القلب والقادر على استخراجها وغسلها، وليس ذلك إلا لله سبحانه[٢٦٣].

إنه **"برهان ربه"**الذي ملأ على يوسف كيانه، فما لامست دعوتها شيئا منه، وما كان منه غير الفرار هرباً من إصرارها، ليظهر خُلُقٌ ثان يُظهر سفلية أخلاقها، " قالت **ما جزاء من أراد بأهلك سوءاً"** إنه الكذب. .إذاً فهي سلسلة من السوء تلحق حلقاتها بعضها ببعض، وتودي إحداها إلى الأخرى، فهو كذب وانحلال، وتسيُّب، وهلمّ جرّا. . .

ذلكم أن الشعور الإيماني الذي يغمر قلب الإنسان هو منبعه الأول لهداه وأفكاره الأخلاقية[٢٦٤]، وهذا تماماً ما نشكو من فقدانه، فالأخلاق والقيم التي كانت تتجه نحو الجنة والسعادة في الآخرة لم تعد تصلح في نظر بعضهم لتحقيق التقدم، فأعلنوها تحرراً وثورةً ضد القيم والنظام الأخلاقي محاولين زرع قيم جديدة، فكانت النتيجة مشية الغراب لا جديد جيد ولا قديم قائم[٢٦٥]، ولكن عندما تُخرج الأمة من رحمها شباباً- كيوسف-تَمثَّل

---

[٢٦٢] -ينظر:الترابي،**الإيمان بالله** ،ص٧٧

*المقصود حادثة شق الصدر

١-ينظر:طه عبد الرحمن،**سؤال الأخلاق**،ص١٦١-١٦٣

[٢٦٤] -ينظر:الأميري،**الإسلام وأزمة الحضارة**،ص٣٥

[٢٦٥] -ينظر:السامرائي،**نحن والحضارة والشهود**،ج٢،ص١٢٤.

الإخلاص حياتهم فكان سَمْتَهم الذي يُعرفون به، عندها لا خوفٌ على مثل هذه الأمة لأن المخلصين ،المخلَصين*بها هم الذين سيمسكون مقود نهضتها، ويسيرون بها ليحققوا من خلالها أعجوبةً تقتفي الأجيال أثرها، وتكون محلا لدراسة الدارسين وبحث الباحثين، تماما كما صنع يوسف بعفته وطهارته واستعلائه الإيماني.

إن قصة يوسف لا تسجل واقعاً فحسب، ولكنها تنتصر للقيم الإنسانية الجديرة بالخلود، إنها تنتصر للإيمان والعفاف والأمانة والإخلاص.

وهكذا يمكننا أن نقرر:

إن الإنسان على كل ما استودعه الله من أمانة الخلافة الكبرى في هذا الملك العريض، وكل ما سُخّر له من القوى والطاقات والأشياء، هو مخلوق ضعيف تغلبه شهواته أحياناً، ويحكمه هواه أحيانا، ويقعد به ضعفه أحياناً، ومن ثم لم يُترك أمر نفسه ومنهجه في الحياة لشهواته وهواه، ولكن أكمل عليه سبحانه نعمه فتولى عنه هذا الجانب، وجاء التنصيص القاطع والتشديد الحاسم على أنه لا يُسلم المسلم حتى يجعل منهج الله للحياة منهجه.

وشريعة الله إنما هي تكييف سلوك الإنسان مع نواميس الحياة، ورسمٌ لمعالم الخير والشر بشكل مستقر مُلبّ للحاجات البشرية السوية، تلبية تسمو عن الأمزجة الطارئة أو الشهوات العابرة أو الشذوذات الشرود[٢٦٦].

فالأخلاق لا تقوم إلا على أساس من عقيدة تضع الموازين وتقرر القيم كما تقرر السلطة التي تستند إليها هذه الموازين والقيم، وقبل تقرير هذه العقيدة تظل القيم كلها متأرجحة بلا ضابط وبلا سلطة وبلا جزاء[٢٦٧]، وجناية الحضارة الراهنة وسبب فسادها الأساس يكمن في رفضها ابتداء أن يكون للدين-بوصفه منهجا من عند الله-هذه

---

*ورد في هذه الكلمة قراءتان بفتح اللام وكسرها،وكلاهما تغذوان المعنى بما يثريه اتساعا وعمقا،وكما أورد **الرازي** في تفسيره:فإن مجيئها باسم الفاعل يدل على كونه آتيا بالطاعات والقربات مع صفة الإخلاص،ومجيئها باسم المفعول،تدل على أن الله سبحانه استخلصه لنفسه واصطفاه لحضرته"(ج٨-ص٤٤٤) وقد كان يوسف متمثلا الوصفين معا.ينظر:ابن الجزري،محمد بن محمد، النشر في القراءات العشر، تحقيق:علي محمد الضباع، ينظر:ابن خالويه، الحسين بن أحمد،الحجة في القراءات السبع،ص١٤٩،ط٤،(ت:عبد العال سالم مكرم) بيروت:دار الشروق،١٤٠١هـ.

[٢٦٦] -ينظر:الأميري،**الإسلام وأزمة الحضارة**،ص٣٥.

[٢٦٧] -ينظر:قطب،سيد(١٩٦٤)، **معالم في الطريق**،ص٣٦-٣٧،مكتبة وهبة،ط١.

الاختصاصات وهذه السلطات[٢٦٨] سامحة لضعف البشر وأمزجتهم أن تُقلّب فيها رأيها، مما يحدو بمؤشرها دالا على قرب زوالها واندثار معالمها، فلا أعمق من حياة تمتد من عاجلها إلى آجلها، ولا أعمق من إنسان يتصل ظاهره بباطنه، وأي المعاني الخلقية تستطيع استيعاب هذا الامتداد للحياة وهذا الاتصال للإنسان من المعاني التي ينطوي عليها الدين الإلهي، أليس يسعى هذا الدين إلى صلاح الحياة الإنسانية في الحال وفلاحها في المآل؟[٢٦٩]

---

[٢٦٨] -ينظر:قطب،**الإسلام ومشكلات الحضارة**،ص١١٨.

[٢٦٩] -ينظر:طه عبد الرحمن،**سؤال الأخلاق**،من العبارة المثبتة على الغلاف الخلفي للكتاب.

المبحث الثالث:الإعداد المادي المتين:

يأتي هذا المقوّم ثمرةً لثبات المقوّمين السابقين ورسوخهما ليكون منطلقاً أساسياً في نفوس بناة حضارة خالدة لا تفنى ما بقي الزمان. . فالعمل السلوكي هو ثمرة للتصور النظري، والإيمان بالله تعالى يؤثر في سلوك الإنسان تأثيراً بالغاً على الصعيدين الأخلاقي والعملي، فأما على الصعيد الأخلاقي فإن الإيمان بالله يورّث النفس استشعاراً للرقابة الدائمة التي تصبح مرشداً لأعماله كلها فتوجهه إلى الخير منها وتجنبه ما فيه شرّها وإثمها، وهي منغصات الحياة الدنيا قبل الآخرة.

وأما على الصعيد العملي فإن المرء الممتلئ بالإيمان بربه تتخذ أعماله كلها وجهةً موحّدة هي طاعة الله، مما يجعلها على نسق واحد من الانضباط والاتزان بعيدة عن التشويش الذي يولّده تعدُّد الولاءات، مما يجعل هذه الأعمال مفضية إلى الخير الشامل للبشرية بنشرها لمعاني الطمأنينة والأمن والعدل على الجميع، بخلاف تلك الأعمال الخاوية من معنى الولاء لله والتي توّفر رخاءً مادياً مبنيا على امتصاص دماء الآخرين وهدر حقوقهم والدوس على كرامتهم[٢٧٠]، يقول تعالى:" قُلۡ هَلۡ نُنَبِّئُكُمۡ بِٱلۡأَخۡسَرِينَ أَعۡمَٰلاً ﴿١٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعۡيُهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ يَحۡسَبُونَ أَنَّهُمۡ يُحۡسِنُونَ صُنۡعًا ﴿١٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فَلَا نُقِيمُ لَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَزۡنًا ﴿١٥﴾}(الكهف)

فالإبداع المادي في هذه الأرض على يد الإنسان فوق أنه ضرورة كي ينمي ذاتيته ويحقق وجوده، هو في الوقت ذاته وظيفة أساس له كي يتمثل غاية وجوده الكبرى، وهي الخلافة في الأرض هذا الإبداع المادي بكل مدلولاته من فلاحة الأرض

---

[٢٧٠] -ينظر:النجار،**الإيمان بالله**،ص١٩٤-١٩٦،بتصرف

إلى استخراج كنوزها، واستخدام طاقاتها، وإنتاج المواد الاستهلاكية، وصولاً إلى ريادة الفضاء الكوني، لا بد أن يكون في خدمة هذا الإنسان وفي الحفاظ على خصائصه التي منحه الله إياها، والارتقاء بها، ولا يُقبل أبداً أن يكون في طريق هذا الإبداع المادي أو الحضارة التي يُبنى عليها ما يُناقض هذه الخصائص أو يدفنها أو يعوق نموّها ويحطمها، أو يجعل دور الإنسان ثانوياً في هذه الأرض، أو تابعاً لذلكم الإبداع المادي[٢٧١].

والقرآن الكريم يعرض لهذه المعاني من خلال نثرها عبر سرده لقصص الأنبياء والغابرين، ليتسنى للمتأمل فيها استنباطها والسير على هداها، والاقتداء بمعالمها لكي تكون الأطر الكلية لأهدافه العليِّة وهو يحاول بناء حضارته على أسس متينة ثابتة قوية.

المشهد الأول: نوح عليه السلام:

بين حدُّ القوة في اليد المؤمنة، والقوة في اليد الشاردة عن الإيمان، يحفل القصص بإشارات ربانية عديدة تثري فكر المسلم وقلبه، وتُعْلمه بمواطن القوة ومكامن الإعداد، بعد أن يطمئن على سلامة المنهج ووضوح الطريق.

أ-وأعدّوا لهم ما استطعتم من قوة:

في كثير من الأحيان يبدأ نموّ الحضارات بفئة قليلة من المؤمنين بفكرتها، الحريصين عليها، مع قوة يُدفعون بها كي يُمَكّن لهم فيقيموا بناءهم وفق تصورهم ومعتقدهم، وهذا ما آل إليه أمر الدعوة مع نوح عليه السلام، حيث اصطدم بجُدُر من الجهل والعتمة لم يُجَلّها صبره عليهم وجلده مع طول الزمان على عنادهم، إلى أن جاء الأمر بالتوجيه إلى مصدر من مصادر القوة، إلى بناء هيكل سيكون له أثره عبر الأزمان في بناء حضارات وهدم أخرى.

إنها السفينة التي ذكرها المولى بصفتها لا باسمها لبيان متانتها وإحكام صنعها**{وحملناه على ذات ألواح ودسر}(القمر١٣)**بما في ذلك من إظهار لعناية الله بنجاة نوح عليه السلام ومن معه، فقد أمره الله سبحانه بصنع السفينة وأوحى إليه كيفية صنعها، ابتداءً بألواح الخشب وما يثبتها من مسامير أو حبال يُشَدُّ بعضها إلى بعض، وانتهاءً بهيكلها الخارجي والذي اعتُقد أن لفظ(الدسر)سيق لأجل بيانه بدَسْره الماء عبر

---

[٢٧١] -ينظر:سيد قطب،**الإسلام ومشكلات الحضارة**،ص١٠٦-١٠٧،بتصرف

مقدمتها، أي بدفعه إياه[٢٧٢]، مروراً ببيان صفتها من الداخل من خلال قوله سبحانه:{**اركبوا فيها باسم الله مجريها ومرساها}(هود: ٤١)**والركوب يستلزم عليها لا فيها، ولكنها إشارة لإظهار كيفية صنعها، حيث قامت على أفضل نظام في صنع البواخر، ولم تُصنع بطريقة بدائية فقد تم بناؤها بما يتيح لهم السكن فيها، لا سيّما وأنها تحمل وحوشاً وهواماً وحيوانات بجانب البشر، لذا كان لا بد من بنائها على هيئة طبقات وأدوار[٢٧٣].

إنها التربية الربانية للأمة وهي تحبو في مَدْرج بنائها الطويل الشاق، يمضي معها خطوة خطوة، يعلمها بعنايته ورعايته وحفظه{ **وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا }(هود: ٣٧)**{ **تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا}(القمر ١٤)**هذه الرعاية التي يمنحها الله لعباده أنّى كانوا وفي أيّ زمن ولدوا، حين تتحقق بهم شروط الخليفة الرباني ماضي العزم على منهج الله، كي يُحقّق على أرضه غايته ومراده، ويلفت أنظارهم إلى مادة الخشب، وما تحويه من خصائص تميّزه عن غيره وتجعله المطلب الوحيد لصناعة الآية..التي ستبقى آية.."فالخشب هو المادة الوحيدة التي تتمدد بالبرودة،على العكس من كل المواد التي تتمدد بالحرارة[٢٧٤]".

ب-القوة والصبر توأمان متلازمان:

ولكن البناء يحتاج إلى نفس طويل، والإعداد المادي على وجه الخصوص له امتداده الزمني الذي يحتاجه كي يصل إلى الدرجة المرجوّة من القوة والمتانة الكافية لتحصيل المطلوب منه، وتحقيق الهدف المرجوّ من ورائه، هذا الزمن بقدر تلك الفترة التي استغرقها نوح-عليه السلام-أثناء بنائه السفينة، لقد عبَّر عنها القرآن الكريم{**فَسَوْفَ**

---

[٢٧٢] -ينظر:النيسابوري،**الكشف والبيان**،ج٩،ص١٦٤،وينظر:ابن عطية،ج٦،ص٢٤٢،وينظر:الرازي،ج٢٩ص٢٩٧،وينظر:ابن عاشور ج٢٧،ص١٧٧.

[٢٧٣] -ينظر:الشعراوي،ص١٤٩٧.

[٢٧٤] -ينظر:الشعرواي،ص١٤٩٧.

تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ}(هود ٣٩)و(سوف)تستخدم للاستقبال البعيد، حيث قضى نوح العديد من السنين وهو يصنع السفينة فجئ بها لتدل على أوسع مدى زمني[٢٧٥].

غير أن سنيّ الإعداد لم تكن حائلا دون المحاولة للوصول إلى المراد من تغيير هذه النفوس وتلكم الأفكار،**{حتى إذا جاء أمرنا}**بكل ما تحمله (حتى)من معان تدل على بلوغ الغاية[٢٧٦]، فلم يصل إلى هذه المرحلة إلا بعد مروره بمراحل عديدة وطويلة، قد يصل امتداد الزمن في الواحدة منها السنوات الطوال.

إنه الصبر الطويل العميق وعدم الاستعجال أو الضيق، مع العمل الدؤوب والجد الكؤود، هو ما تحتاجه الأمة أثناء إعدادها المادي لتصل إلى مطلوبها.

لقد جاء الأمر لنبي الله نوح-عليه السلام-**{اصنع الفلك}(هود ٣٧)**فلبّى ونفّذ**{ويصنع الفلك}**(هود ٣٨)دونما تأخير أو تردد أو توان.

وكذا الأمة التي تريد الارتقاء، إنها الصناعة، وإنه العمل، إلا أنه قد توجد فنون وأعمال تحمل سمات إسلامية لكنها لا تسمى بمفردها حضارة إلا إذا حملت معها الروح المؤمنة، وفي طياتها الكلمة الطيبة، وفي حياتها النُظُم المُحْكَمة، وفي سجاياها القدوة الصالحة، وفي سلوكها الاعتدال، وفي تعاملها الرموز الأمينة، لتشكل مجتمعة وقود مركبة لإصلاح البشرية والنهوض بها[٢٧٧]، وكذا كان رمز هذه المعاني في السفينة التي أمر الله نبيه ببنائها ليتم الأمر تحت عين الله ورعايته المباشرة**{بسم الله مجريها ومرساها}"** فجريانها بمشيئة الله، وهم يركبون فيها لا لمكانتهم الشخصية وإنما لإيمانهم بالله تعالى[٢٧٨]، وقبل هذا وبعد هذا فالتقصير من طبع البشر، والعفو صفة لرب البشر فختمت الآية**{إن ربي لغفور رحيم}(هود ٤١).**

وتبقى الآية**{فأنجيناه وأصحاب السفينة وجعلناها آية للعالمين}(العنكبوت ١٥)****{ولقد تركناها آية فهل من مدَّكر}(القمر ١٥)**فهي آية في إيجادها لأهميتها ولفت الأنظار إليها، وآية في إبقائها لضمان دوام العناية بها، وهي آية بتنكير اللفظة الموحي

---

[٢٧٥] -ينظر:الشعراوي،ص١٤٩٨.

[٢٧٦] -ينظر:المصدر السابق.

[٢٧٧] -ينظر:سفر،محمود محمد،**الإصلاح رهان حضاري**،ص٩٩.

[٢٧٨] -ينظر:الشعراوي،ص١٤٩٩.

بعظمتها وعجَبها وفخامتها، وإتيان الفعلين(جعل)و(تركناها)بالماضي يفيد تحقق كونها آية، ولا يزال الناظر إليها-أي إلى جنس السفينة- يرى فيها قوةً عجيبة من عجائب الله على أرضه تجري فوق بحره رغم كل ما تحمل من ثقل لا يملك معها اللسان إلا التسبيح بعظمة الله..**{فهل من مدَّكر}**إنه التحضيض على دوام التذكر والتفكر في هذا الدليل وحفظه، أو هو سؤال يبقى للأمة ما مرت على هذه الآية:هل من طالب علم فيعان عليه[٢٧٩]؟فإنه السبيل لكل قوة مادية أياً كان.

ج-ومضة:

عندما بلغ الضيق بنوح مبلغه، وغُلّقت أمامه منافذ الأمل كلها، وفاضت روحه تنادي بارئها**"ربّ انصرني بما كذبون"**(المؤمنون٢٦)عندها جاءه الأمر**"اصنع الفلك"**لأن المكروب الذي تكالبت عليه الهموم لا بد له من حركة يأتيها يقفز بها فوق أنّاته، هذا إن كان على مستوى الفرد فكيف إن كانت تلك الكربات قد حاقت بالأمة وألمّت بها، عندها لا بد من حركة أخّاذة قويّة متينة،**"اصنع"**هي بداية الطريق نحو النجاة،**"اصنع"**هي أول خيوط النهوض،**"اصنع"**فبالصناعة تأتي القوة،وبالقوة يتحقق المطلوب حين تعزّ مسالك الحوار،وتسّد أبواب العبور إلى القلوب.

المشهد الثاني: ذو القرنين:

يقول سبحانه وهو يعرض لنا قصة ذي القرنين:{ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾ فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٥﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا ۗ قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴿٨٦﴾ قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ

[٢٧٩]-ينظر:ابن عطية،ج٥،ص١٩٦،وينظر:ابن عاشور،ج٢٧،ص١٧٨.

فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨٧﴾ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴿٨٨﴾ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا ﴿٩٠﴾ كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ﴿٩١﴾ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٩٢﴾

(الكهف)

يُعدُّ ذو القرنين الأنموذج الأمثل الذي طرحه القرآن بين يدي الأمم والأجيال، ليكون النجم الذي يهدي إلى مثال الفرد حين يُملكه الله أسباب القوة على اختلافها، فتقع في يده مُسخّراً إيّاها لأجل تحقيق الغاية التي وجد من أجلها في هذه الحياة، دون أن تخترق قلبه فتستولي عليه، لأن الإيمان قد عمره فما ترك فيه زاويةً لدنيا أو محلاً لهوى.

أ-أول التمكين القائد الرباني:

مكّن الله تعالى لذي القرنين أسباب القوة كلها{**إنا مكنا له في الأرض**}لتأتي نسبة التمكين إلى الله سبحانه بما تدل عليه نون العظمة، ليَعلم المُمَكّن أنه لم يُمَكّن بذاته وإنما بمن مكّنه، وأن الأسباب ليست ذاتية وإنما هي هبة من الله يهبها لمن يشاء وينزعها عمّن يشاء، فتكون أول الهبات على الإطلاق هي استقرار الفكر الإيماني في القلب الرباني، ليصل إلى درجة التسليم والإذعان مبتعدا عن التمرد الذي يوصل إليه التمسك بالأسباب على اعتبار أنها ذاتية من جهد الفرد وكسبه وسعيه، وأنها ليست بهبة له من مولاه سبحانه، هذا المفهوم الذي يودي بالفرد كما يودي بالأمة التي يقودها أمثاله.

والتمكين يعني "إعطاؤه إمكانات لكل غرض يريده، فيُصَرّف به الأمور وفق منهج الله، فهو مأمون على ما أعطاه الله من إمكانات[٢٨٠]".

[٢٨٠] -الشعراوي،ص٢٢٠٧،٥٧٩.

لقد آتى الله ذا القرنين**{من كل شيء سبباً}** والسبب في اللغة هو الحبل، والمراد ههنا كل ما يُتوصل به إلى المقصود من علم أو قدرة أو آلة، ومن كل شيء يحتاج إليه الخلق ويستعين به الملوك في تحقيق مهماتهم وغاياتهم[٢٨١]، إلا أن ذا القرنين لم يركن إلى ما أُعطي فلم يتقاعس ولم يَكْسُل، بل أخذ من عطاء الله له بشيء من كل سبب، وسار إلى غاياته بالوسيلة التي جعلها الله له[٢٨٢]**{ثم أتبع سببا}**.

وهذا شأن الفكرة حينما تصير في خلاصتها إلى صورة للغاية من الحياة، فكرة فاعلة في النفس دافعة للعمل من أجل تحقيق تلك الغاية، ويصير للطبيعة موقعٌ في النفس يدفعها إلى اقتحامها لمباشرة استثمارها والتعمير فيها، ولولا ذاك الدافع لبقيت الفكرة شاخصة كالأشباح[٢٨٣]، ولطفا على السطح أمثال الكثيرين من المسلمين اليوم الذين تتوفر في أرضهم النعم الكثيرة دون أن تمتد إليها أيديهم إلا قليلاً، إما انصرافاً عن ذلك للاستهلاك مما يُشترى من الآخرين، أو زهداً في تلك النعم بوصفها من متاع الدنيا، أو قصور همة وتكاسل، ولن ينقذ المسلم من هذا الوضع إلا وعي عميق بأن الجهد الذي يبذله في استثمار الكون-سواءً بالفكر أو بالساعد-إنما هو جزءٌ مما خُلق من أجله ، بل هو من صميم واجبه الديني، إن أخّلّ به أو قصّر فيه فقد أخّلّ بالغاية التي من أجلها وجد[٢٨٤]، وهذا هو معنى قوله صلى الله عليه وسلم: **"إن قامت الساعة وفي يد أحدكم فسيلة فإن استطاع ألا يقوم حتى يغرسها فليفعل"**[٢٨٥] فغِراسة الفسيلة في هذه الحالة ليست لغاية الارتزاق وتلبية الحاجة وإنما هي استجابة لغاية التعمير في الأرض.

وكذا كان ذو القرنين، فهو ليس بالرّحالة المستكشف الذي يسير بمفرده، بل مكّنه الله من أسباب كل شيء لتعبيد الأرض لخالقها، حيث امتدت نعم الله عليه، ابتداءً من النفس وانتهاءً بملك الأرض، وما أجمل الإيمان حين يفيض على النفس ليُعمّر كل أركانها ويُقوّم كلَّ أحوالها، فتثمر إنساناً قائماً على هيئة نفسية من التوازن والاطمئنان

---

[٢٨١] -ينظر:النيسابوري،أحمد بن محمد(ت٣١٨)،الكشف والبيان،ط١،ج٦،ص١٩٠،(تحقيق:ابن عاشور)،بيوت:دار إحياء التراث العربي،٢٠٠٢م،وينظر:الكشاف،ج٢،ص٧٣٤،وينظر:القرطبي،ج١١،ص٤٨،وينظر:الألوسي،ج٨،ص٣٥٢.

[٢٨٢] -ينظر:الشعراوي،ص٢٢٠٧،٧٥٧.

[٢٨٣] -ينظر:النجار،**فقه التحضر**،ص٣٢.

[٢٨٤] -ينظر:**عوامل التحضر**،ص٢٣٧-٢٣٨،بتصرف.

[٢٨٥] -أخرجه أحمد في مسنده، وقال محققه أرناؤوط: إسناده صحيح،ج٣،ص١٩١.

والقوة التي تثبِّت قدمه وتجعله على استعداد للانطلاق في هذا الكون لإنجاز الخلافة والتعمير.

ب-القاعدة القوية ضمان:

وتتجلى إحدى مظاهر هذه النعم في تلك القوة الذهنية التي أهَّلت ذا القرنين أن يحسن التعامل مع القوم الذين التقاهم أثناء سيره"**وجد من دونهما قوما لا يكادون يفقهون قولاً"** هذا هو الوصف الذي وصفهم به رب العزة،لتتم المواجهة بين القوة في أوجها متمثلة في ذي القرنين ومن معه، مع الضعف في ذروته متمثلة في هذه الفئة من البشر، هذه القوة الذهنية التي يتمكن المرء من خلالها السيطرة على المواقف واتخاذ الحل المناسب لها في حينها، بل وإسقاط النظريات المجردة على الوقائع في ميادينها، فهؤلاء القوم ليس بينه وبينهم لغة للتفاهم لسانية، فلعله عدل عنها إلى لغة الإشارة[٢٨٦]، ليتمكن من خلال هذه النافذة أن يقف على حاجتهم فيلبيها، مودعاً بعمله جوهر الحضارة ولبِّها، ألا وهو التقدم الأخلاقي والذي يفوق التقدم المادي بمراحل عديدة، حيث يمكن لهذا الأخير أن يكون له أثرٌ سيئ أو طيب، أما الأول فلا يأتي إلا بخير[٢٨٧].

ولن نقف على حقيقة بناء السد وكيفيته لأننا سنعرض لأبعاده في مبحث العلم، والذي يُشكّل بكليته-أي العلم- سدّاً منيعاً للقوة المادية في أيّ بناء حضاريّ.

إلا أن الذي يستوقف القارئ في هذا المبحث منهجية القائد الرباني وهو يسير على أرض الله في حرصه على متانة البناء وقوته، ولست أعني بناء السد، وإنما بناء الأمة الضعيفة التي احتاجت إليه في بناء السد، فرغم اكتفائه التام ماديا{**ما مكنّي فيه ربي خير**}من مال، وقوة ساعد، وسعة علم، إلا أنه طلب منهم العون{**فأعينوني بقوة**} ليدل الأجيال من بعده أن الضعيف يحتاج معونة لا تحوجه لأحد بعدها، معونة تُمَلّكه المهارة والقدرة على تغطية حاجته أنّى عرضت له.."هذه مهمة الأقوياء في الأرض من أصحاب الطاقة الإيمانية،أن يمنعوا الظلم-وبلا مقابل-حتى يعتدل ميزان الحياة[٢٨٨]"، ذلكم هو أثر العقيدة حين يمتد مدلولها ليشمل تحديد مهمة للإنسان هي مهمة التعمير

---

[٢٨٦] -ينظر:الزمخشري،ج٢،ص٦٩٦،وينظر:الشعراوي،ص١٢٢٦

[٢٨٧] -ينظر:اشفيتسر،**فلسفة الحضارة**،ص٣٦.

[٢٨٨] -الشعراوي-ص/١٢٢٦.

والبناء فيكون أصلا من أصولها[٢٨٩]، وتكون غايته إيجاد الكثافة البشرية القادرة على بناء المؤسسات الحضارية[٢٩٠]، والاعتماد على ذاتها دون الاتكال على الآخرين، لأن الأمم ذوات الحضارات البارزة مهما جلبت إليها الأنظار ببهرجة صناعاتها، وعلوّ بنيانها، إلا أنها تبقى في مصافٍّ الضِّعاف إن اعتمدت على غيرها، تماماً كما جاء على لسان طبيب مصريّ يهوديّ هاجر إلى أمريكا رافضاً الإقامة في(إسرائيل المزعومة)إذ يقول: "إن إسرائيل بكيانها الخاص وتعدادها البسيط لا يمكن أن يكون لها امتداد حضاري في المستقبل خاصّاً بها، وستظل جيباً من جيوب الغرب، ولو تركت وحدها ما بقيت يوماً، من أجل ذلك أفضل البقاء في الغرب لا في جيب من جيوب الغرب"[٢٩١].

ج-مكمن القوة في الفكرة:

إن من أهم ملامح القوة التي توجهنا إليها مسيرة ذي القرنين في الأرض، هي الوعي العميق بغاية الحياة والتي شكلت عنده السبب للاندفاع إلى العمل البنّاء، والسعي الحثيث للبحث عن مرابط القوة وعناصر البقاء، واستلهام الأسباب مما أعطاه الله وحباه كي يستخدمها في ترقية الحياة واستنباط خامات الأرض وأرزاقها وأقواتها التي أودعها الله إياها، وجعل النواميس الكونية أختامها، ومنح الإنسان القدرة على فضِّ هذه الأختام بالقدر الذي يلزم له في الخلافة، فيصبح وهو يفجِّر ينابيع الرزق، ويصنع المادة الخامة، ويقيم الصناعات المتنوعة، ويستخدم ما تتيحه له كل الخبرات الفنية التي حصل عليها الإنسان في تاريخه كله، يصبح وهو يصنع هذا كله، ربانياً يقوم بالخلافة الملقاة عل عاتقه، عندها يكون الإنسان كامل الحضارة، ويكون هذا المجتمع قد بلغ قمة الحضارة[٢٩٢].

المشهدالثالث: قبيلتا عاد وثمود

حين تضطرب الموازين وتختل منظومة الأفكار، تتهاوى المحاور، وتختلط الأولويات، ويصبح الفرد حينها عاجزاً عن تقدير المهم فالأهم، عندها يمضي في طريقه

---

[٢٨٩] -ينظر:النجار،**عوامل التحضر**،ص١٠٨.

[٢٩٠] -ينظر:سفر،محمود محمد،**الحضارة** تحد،ص٦٤.

[٢٩١] -ينظر:سفر،**الحضارة تحدّ**،ص٦٥.

[٢٩٢] -ينظر:قطب،**معالم في الطريق**،ص١٥٣-١٥٤،بتصرف.

يخبط خبطاً عشوائياً، لتغدو بين يديه عوامل الازدهار والرفعة أسباب شقاء ونقمة، وما يُعدّ عند غيره مقومات بناء واستعلاء، يصيّره -بجهله وتمرده-عوامل هدم واستخذاء.

إنها المعايير التي أراد القرآن أن يبثّها بين أيدينا ونحن نتلمّس معالم العزة وملامح الرفعة، كي ننهض من وهدة الذلة التي أنهكتنا حتى الإعياء.

معاييرٌ تحرص الآيات في عرضها أن تقتبسها من واقع مضى على يد أفراد من البشرية مرّوا عليها في زمن ما ليكون لنا في مسلكهم عبرة، وفي مصيرهم لفتة.

إنهما قبيلتا عاد وثمود. . .

فأما عاد فقد بلغت قوتهم المادية حدّاً تصوّره لنا الآيات في مواضعها المختلفة، بصورة تحيط لنا بجوانب القوة كلها، من بُنيان، إلى قوة إنسان، إلى سعة علم وامتداد سلطان.

يقول تعالى على لسان هود مخاطبا قومه: **" أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ (١٢٨) وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ (١٢٩) وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ (١٣٠) (الشعراء)" وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ " (هود ٥٢)" وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً "(الأعراف ٦٩)**

ولكنّ جوابهم لُخّص بعنجهيته وغروره: **"مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً "(فصلت ١٥)**

أ-القوة المجردة عن الفكرة:

لقد كانت عاد أول من اضطلع بالحضارة بعد الطوفان[٢٩٣]، وكانت حضارةً عظيمةً ممتدة، قامت على يد أفراد تمتعوا بصفات ومَعالمَ مميَّزة تؤهل صاحبها إن حمل معها طهارة فكر وصواب مِنهج، أن يُعمّر الأرض ليصل بها إلى أعلى درجة من درجاتها المأمولة.

لقد امتن الله على هؤلاء القوم فزادهم في الخلق بسطة، وسواء كان الخَلق بمعنى المصدر أو بمعنى الناس، فإن الزيادة في كلتا الحالين هي زيادة في القوى الجِبلّية التي

[٢٩٣] -ينظر:ابن عاشور،ج٨،ص١٥٨.

فطرهم الله عليها، فقد منحهم قوة في العقول والأجسام حتى غدت مضرب الأمثال كما قال النابغة:

أحلام عاد وأجسامٌ مطهرةٌ من المعقة والآفات والإثم

بل إن كمال ما فضّلوا به جعل نسبة الدروع والسيوف ترجع إليهم فيقال لهما الدروع والسيوف العادية.

وكذا فإن البسطة، وهي اسم من البسط بمعنى السعة والانتشار والوفرة والقوة من الشيء، قد تجلّت مظاهرها على أفراد هذه القبيلة، حيث بلغوا الكمال في الطول والعرض، والسلامة من العاهات والآفات، والذروة في قوة البأس ورجاحة العقل[٢٩٤]،وقد امتدت آثار هذه القوة فشملت البيئة المحيطة بهم، بما أمدهم الله به من**"أنعام وبنين وجنات وعيون"(الشعراء ١٣٣-١٣٤)**وقد أحسنوا استغلال هذه الثروات التي وهبت لهم على أحسن وجه وأكمله، فبنوا في طرق أسفارهم أعلاما ومنارات تدل على الطريق كي لا يضل السائرون في تلك الرمال المتنقلة التي لا تبقى فيها آثار السائرين، واحتفروا وشيّدوا مصانع للمياه، وهي الصهاريج التي تجمع ماء المطر في الشتاء ليشرب منها المسافرون وينتفع بها الحاضرون في زمن قلة الأمطار، وبنوا حصوناً وقصوراً على أشراف من الأرض[٢٩٥]، وشيّدوا حضارةً امتدت مساحتها لتشكل دولةً يُشهد لها في زمانها، ولكن الحضارة التي تنمو ماديا ولا يواكبها نمو متكافئ روحيا، تكون كسفينة اختلت قيادتها فزادت سرعتها وأوشكت على كارثة، فجوهر الحضارة لا يتحدد بإنجازاتها المادية فقط-رغم أهميتها-بل باحتفاظ الأفراد بالمُثُل العليا لكمال الإنسان وتحسين أوضاعه كلها[٢٩٦].

لقد بلغت عاد مبلغاً عظيماً من البأس وعِظَم السلطان والتغلب على البلاد، وتفنّن أهلها في إرضاء الهوى، وأقبلوا على الملذات، وأضاعوا الجانب الأهم للإنسان وهو جانب الدين وزكاء النفس، فانقلبت هذه العظمة كلها عظمة دنيوية محضة لا يُنظر فيها

---

[٢٩٤]-ينظر:ابن عطية،ج٢،ص٤٨٤،وينظر:ابن عاشور،ج٨،ص١٥٨،ج٤،ص٤٦٩.

[٢٩٥]-ينظر:الزمخشري ،ج٣،ص٣٢٦،ابن عاشور،ج١٩،ص١٧٦ .

[٢٩٦]-ينظر:السامرائي،**نحن والحضارة والشهود**،ج١،ص١٥٥.

جانب النفع، ولا تحثُّ الناس على الاقتداء في تأسيس أمثالها[٢٩٧]، لأن الحياة إن أريد لها أن تتقدم خطوات فلن يكون ذلك إلا عن طريق تطوير قوة الفهم، وهذا لن يأتي إلا من خلال الدين فهو مقياس البطولة، ورمز حاجة الإنسان في الكفاح، كما أنه العمود الفقري لأي حضارة سليمة[٢٩٨].

إن غياب هذه المعاني الأوليّة من أبجديات الفهم عند هؤلاء القوم جعلهم يركبون ظهور الاستعلاء، ليقارب حالهم حال من يدّعي صفات الألوهية شارداً عن حياض العبودية، لقد بالغوا في بناء الأبنية العالية حباً منهم للعلوّ، وسعوا إلى اتخاذ المصانع* رجاءَ الخلود سعياً منهم إلى البقاء، وعتوا على الناس وبغوا عليهم وبطشوا بهم بجبروت حرصاً منهم على التفرد بهذا العلوّ[٢٩٩].

لقد وصلت بهم درجة العُجْب بقوة أمتهم أن رددت ألسنتهم: **"من أشدّ منا قوة"؟**ولو قيلت هذه المقالة من نفس أبية امتلأت إيمانا بفكرتها الربانية، وسعت على أرض الله تواجه بقوتها بطش العتاة، لكانت مقالة عزّ وإباء يرفع الله بها أهلها، ولكنها قيلت استعلاء على حقيقة الخضوع لرب السماء، فكانت القاصمة والتي على إثرها حلّ الفناء.

وكما يقول الفيلسوف البريطاني(برناردشو): "إن الحضارة تسقط في اللحظة التي تكون قوة الإنسان أشد وأكبر من قوة الدين[٣٠٠]".

ب-شذوذ الفهم يحيل النعمة نقمة:

الأمة في حال انحطاطها تحوّل ما كان موضوعا للمصالح إلى مفاسد، وهذا نهجٌ سارت عليه عاد وكانت مَعْلماً لكل من سار سيرها وخطّ خَطْوها عبر الأزمان، فإن ما

---

[٢٩٧] -ينظر:ابن عاشور،ج١٩،ص١٧٣ - ١٧٤.

[٢٩٨] -ينظر:ولسن،كولن(١٩٧١):**سقوط الحضارة**،ط٢،ص٣٩٥،(ترجمة: أنيس حسن)،دار الآداب.

* والمصانع قيل:هي البناء على الماء وقيل: القصور المشيدة المحكمة، وقيل:الحصون، وقيل برك الماء، وقيل: بروج الحمام، وقيل : المنازل،ينظر:أبو حيان،ج٨،ص١٧٨

[٢٩٩] -ينظر:الرازي،ج٢٤،ص٥٢٣،أبو حيان،ج٨،ص١٧٩

[٣٠٠] -ولسن،**سقوط الحضارة**،ص٣٩٦

بنته لأجل تيسير السير والأمن على السابلة من الضلال في الفيافي المُهلكة، حوّلته إلى أماكن لهو وسخرية[٣٠١] **"أتبنون بكل ريع آية تعبثون".**

وما تشيّده الأمم المتآكلة حضارياً اليوم من مؤسسات تطلق عليها (الأمن)لأجل حفظ أفرادها ورعاية شؤونهم، نجدها في حقيقتها ما هي إلا امتداد لذلك الحال الذي آلت إليه عاد في عهود نكستها **"وإذا بطشتم بطشتم جبارين"**لتنطلق الأفراد الأمنية من مراكزها تفتك بأبناء أمتها، تعبيداً وتركيعاً لهم لأجل حساب هذا الصنم أو ذاك، هذه الأمة ذاتها هي التي تدّعي حرصها على البناء والإعداد والسعي الحثيث نحو الارتقاء، فتبني هنا مصنعا، وهناك ملعبا أو مدرسة، ولكنها لا تبني الإنسان.

وحين تكون المادة هي القيمة العليا التي تُهجر في سبيلها القيم والخصائص الإنسانية، فإن هذا المجتمع يكون مجتمعا متخلفا أنّى بلغت درجة تقدمه الماديّ، أما حين تكون إنسانية الإنسان هي القيمة العليا، وتغدو المادة وكل ما يصدر عنها من إنتاج ومنجزات مسخّرة لهذا الإنسان، عندها . .وعندها فقط يكون المجتمع متحضرا٣٠٢.

ج-تلوّن منابع القوة:

ويأتي الأنموذج الثاني، قوم صالح الذي لا يباعد بينه وبين سابقه من الزمان طول عهد، ولكنها النفس عندما تستولي عليها الشهوة فتعميها عن رؤية كل حقيقة، وتغدو آثار الله التي جعلها وسائل قوة وتثبت وبقاء، عوامل سوء وشقاء.

والمتتبع لحال القومين يلحظ أن قوم هود قد غلبت عليهم اللذات الحالية، وهي طلب الاستعلاء والبقاء والتجبر، أما قوم صالح فقد غلبت عليهم اللذات الحسية، وهي طلب المأكول والمشروب والمساكن الطيبة الحصينة[٣٠٣].

وقد مُنح هؤلاء القوم حضارة بما وهبهم الله إياه من مهارة البناء والتقدم في العمارة"وَكَانُواْ يَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ ﴿٨٢﴾ **"(الحجر**

---

[٣٠١]-ينظر:النسفي،ج٢،ص١٥٩ ،وينظر:ابن عاشور،ج١٩،ص١٧٥،ج١١،ص٢٧٩

[٣٠٢]-ينظر:قطب،**معالم في الطريق**،ص١٤٧-١٤٨

[٣٠٣]-ينظر:ابن عاشور،ج٢٤،ص١٣٧

٨٢)وَتَنۡحِتُونَ مِنَ ٱلۡجِبَالِ بُيُوتٗا فَٰرِهِينَ ١٤٩"**(الشعراء ١٤٩)**لقد أخذوا في

بناء بيوتهم في الأحجار ومن الأحجار الموجودة

بالوادي الذي يقيمون فيه، وقطعوها بطريقة تتيح لهم بناء البيوت والقصور الآمنة، بعيداً عن تقلبات الجوّ وتغيرات الزمن[٣٠٤]، وأحاطت بهم وجوه النعيم كلها ومنابع القوة والتمكّن أجمعها"أَتُتۡرَكُونَ فِي مَا هَٰهُنَآ ءَامِنِينَ ١٤٦ فِي جَنَّٰتٖ وَعُيُونٖ ١٤٧ وَزُرُوعٖ وَنَخۡلٖ طَلۡعُهَا هَضِيمٞ ١٤٨ وَتَنۡحِتُونَ مِنَ ٱلۡجِبَالِ بُيُوتٗا فَٰرِهِينَ ١٤٩ الشعراء

وموازين القوى في الكون تختلف من مكان لآخر حسب الثروات التي منحها الله لكل أمة، فبينما نراها في البحر وموارده في أمة"وَسۡـَٔلۡهُمۡ عَنِ ٱلۡقَرۡيَةِ ٱلَّتِي كَانَتۡ حَاضِرَةَ ٱلۡبَحۡرِ إِذۡ يَعۡدُونَ فِي ٱلسَّبۡتِ إِذۡ تَأۡتِيهِمۡ حِيتَانُهُمۡ يَوۡمَ سَبۡتِهِمۡ شُرَّعٗا وَيَوۡمَ لَا يَسۡبِتُونَ لَا تَأۡتِيهِمۡۚ كَذَٰلِكَ نَبۡلُوهُم بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ)١٦٣(الأعراف) نجدها في الأرض وزراعتها وما تعطي من ثمار-كما هو حال ثمود-وقد تكون في ثالثة بما كنزه الله سبحانه في أرضها من ثروات ومعادن، والأمة العظيمة هي التي تدرك تماما مكمن قوتها فتضع يدها عليها وتعمل على استخراجها وتنميتها وتوجيهها بالصورة التي تحقق لها الهيبة والمكانة بين الأمم، دون

---

[٣٠٤]-ينظر:الشعراوي،ص١٨٦٨

أن يمنعها ذلك من التطلع إلى مصادر قوة الآخرين ومحاولة الحصول عليها بطريقة لا تخالف منظومة المنهج الرباني في التعامل بين البشر.

لقد امتن الله على ثمود بنعم عظيمة فصّل ذكرها، ووجه الأنظار إلى عظيم أهميتها، بل لقد جاوزت حد الذكر والتعداد إلى بيان النوع وجودة الإنتاج، ففوق الجنات والزروع والعيون هناك نخل طلعه هضيم، فقد وهب لهم سبحانه أجود النخل وأنفعه في أجود المنابت وأغزرها ماء، فجاءت سليمة من العاهات تحمل الحمل الكثير الفاخر اللين النضيج[٣٠٥].

د-وجهٌ آخر للقوة الشاردة:

في هذه الأجواء المفعمة بالصحة والنشاط والحيوية نشأ هؤلاء القوم، وسعوا بما حباهم الله من قوة ومتانة كي يبنوا بيوتهم في الجبال، مقاومين قوة صخريتها بقوة سواعدهم، ولكن الإنسان كما يقول جيته الألماني:"قد يصير أكثر ذكاء ووعيا، ولكنه لم يصبح أكثر سعادة وأنبل خلقا[٣٠٦]".

لقد وصل مستواهم في إتقان هذا البنيان العظيم إلى درجة أن وصفهم القرآن بأنهم (فارهين)أي حاذقين[٣٠٧]، فلم يزدهم ذلك إلا أن عتَوا"**في الأرض مفسدين"(الأعراف ٧٤)**ليعانق فعلهم وصفهم الذي ورد في القراءة الثانية(فرهين)أي "أشرين،والأشر إنما هو شدة البطر[٣٠٨]" لقد استأمنهم الله على هذه الأرض واستعمرهم فيها ليسخروا مقدراتها وفق إرادته ومشيئته، فعمروا الأرض بالبناء والغرس والزرع[٣٠٩]، وعزفوا عن سر وجودهم-والذي لأجله سخّر الله هذه المقومات بين أيديهم- ألا وهو عبادة الله وإقامة شرعه على أرضه.

إنه ذات الحال نراه يتكرر مع مرور الزمان عبر أجيال البشرية وتغيُّر أحوالها، فإما أن تطالعنا أمم كعاد وثمود يعنون بالقوة المادية مع خواء في القلب والفكر، فتغدو هذه القوة لعنة تحُلّ على صاحبها ومن حوله، وإما على النقيض تماماً نلمح أمما يملأ

---

[٣٠٥]-ينظر:الزمخشري،،ج٣،ص٣٢٨.

[٣٠٦]-ينظر:السامرائي،**نحن والحضارة والشهود**،ج١،ص١٥٥،من كتاب **معركة الحضارة**،ص١٥٤.

[٣٠٧]-ينظر:الراغب،**المفردات**،ص٣٨٠.

[٣٠٨]-المصدر السابق،ص٢٧،وينظر:ابن خالويه،الحجة،ص٢٦٨.

[٣٠٩]-ينظر:ابن عاشور،ج١١،ص٢٨٧.

الإيمان أعماقهم، إلا أن مفهوم التوحيد عندهم قد انحسر إلى إطاره المجرد، فلم يتقوّم به كل تفكير وسلوك، وانفصلت معه غاية الحياة ما هو أخروي فيها عما هو دنيوي، وتباعد ما بين النجاة في الآخرة عن التعمير في الدنيا، فإذا البيئة الكونية المادية تقع في النفوس موقعاً مال بها إلى الزهد فيها، مما أدى إلى تراجع الفكرة الإسلامية عن أن تكون قوة الدفع الحضاري لإرادة الأمة[٣١٠].

لقد شاء الله أن يأتي عقاب هاتين الفئتين عاجلاً في الدنيا مناسباً لحجم الكِبْر الذي ملأ نفوسهم**"فأما ثمود فأهلكوا بالطاغية وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية"(الحاقة ٥-٦)**

فأنا عاد فعلى قدر امتداد ملكهم واستعلاء صوت الكبرياء في أعماقهم جاءتهم الطاغية، الواقعة المجاوزة للحد، الصيحة، الراجفة، لتجعلهم **"كأنهم أعجاز نخل خاوية"(الحاقة ٧)**ورغم أن المفسرين وجهوا معنى الخواء إلى بيوتهم حيث خوت على عروشها، ساقطة على سقوفها[٣١١]، إلا أني أعتقد بأنه تشبيه لهم-بعد أن فعلت بهم الصيحة فعلتها-فنسفتهم نسفاً ذابت معها أحشاؤهم وبدت أجسادهم بقوتها وجبروتها كأنها أعجاز النخل، وعُجُز النخل-كما ذكرنا آنفا-هو أقوى جذوع النخل على الإطلاق، ليناسب حجم القوة التي كانوا يتمتعون بها، والتي لم تغنهم من عذاب الله شيئاً.

وكذا ثمود فقد ناسب متانة بيوتهم وأمنهم النفسي في رياضها، ريحٌ تعصفهم ببردها وشدتها فلا تبقي ولا تذر.

إنها لفتات ربانية...بما امتن الله على عباده في هذه الأرض من مصادر قوة لا تعد ولا تحصى وجهنا إليها القرآن عن طريق أنبيائه عليهم السلام عبر العصور الغابرة، مذكّراً في كل مرحلة من مراحل التعليم أن القوة وحدها لا تغني شيئا، وأنها على قدر أهميتها يكمن خطرها، لافتاً الأنظار إلى أن البناء الحضاري ومظاهر التقدم لن تكون إلا أثراً من آثار تفاعل الأمة مع البيئة بما فيها من قوى خلقية وسنن كونية وموارد مادية، كما أنها تعبير عما تمثّله هذه الأمة من قيم ومعان وغايات نابعة من أعماق أبناء تلك الأمة وكيانها العقائدي والنفسي والفكري، فصروح الحضارات لا تبنى وترتفع إلا حين

---

[٣١٠]-ينظر:النجار،**عوامل التحضر**،ص٨.

[٣١١]-ينظر:أبو السعود،ج١،ص٢٥٣،ج٩،ص٢٢.

تتبلور رؤى الأمم وتتضح غاياتها وتنطلق طاقاتها لتُعبّر مادياً عن تلك القيم والمعاني والغايات، فتعمّر الأرض وتقوّم الحضارة، وتبقى العِمارة ما بقي ذلك التفاعل، وتظل الحضارة ما ظلت تلك القيم والمبادئ[٣١٢].

المشهد الرابع:داود عليه السلام:

يوجه المولى سبحانه البشرية وهي في صراعها على هذه الأرض-مع اختلاف الأهواء وتعدد المشارب-إلى مالا بد لها منه كي يدفع عنها-سبحانه-ظلم بعضهم لبعض، فكان إلهام الله لداود-عليه السلام-{**وعلمناه صنعة لبوس لكم لتحصنكم من بأسكم فهل أنتم شاكرون**}(**الأنبياء ٨٠**)حيث امتن الله على داود بهذه الصنعة فعلّمه إياها لينتفع بها الناس من بعد، وألهمه سبحانه صنع دروع الحلق الدقيقة بعد أن كانت حراشف تؤذي لابسيها، لتغدو بكيفيتها الجديدة أخف محملاً وأحسن وقاية، فيكون داود-عليه السلام-بتعليم مولاه له أول من سرد الدروع وحلقها[٣١٣].

أ-السباق الفتاك:

يمن الله على الناس أن علّم عبده هذه الصناعة لوقايتهم في الحرب{**لتحصنكم من بأسكم**}ويسألهم سؤال توجيه وتحضيض:{**فهل أنتم شاكرون**}؟معبّراً عنها سبحانه بالجملة الإسمية، على ما تقتضيه من معنى الثبات والاستقرار، فهل تقرر شكركم-بني البشر-وثبت، لأن تقرر الشكر هو الشأن في مقابل هذه النعمة[٣١٤]، ليأتي جواب البشرية بطغيان صناعة الأسلحة بالقدر الذي يمكن معه محو أي أثر للحياة على الأرض، دالا على أن العالم يسير في طريق ضال دون تفكير بالعاقبة[٣١٥].

فبينما يوجه الله البشرية ليعلمها التحضر ويدربها على الترقي والتطور في سيرها وراء الكشوف خطوة خطوة كي تصل إلى الاتزان والاستقرار الذي تندفع معه للعمل والإنتاج بعد كل تنسيق جديد، نجد أن الحضارة الراهنة قد تجاوزت حدود هذا

---

[٣١٢]-ينظر:سفر،**الحضارة تحد**،المقدمة.

[٣١٣]-ينظر:النيسابوري،ج٦،ص٢٨٦،وينظر:السمرقندي،ج٢،ص٤٣٥،لبن عاشور،ج١٧،ص٨٨.

[٣١٤]-ينظر:ابن عاشور،ج١٧،ص٨٩ .

[٣١٥]-ينظر:الأميري،**الإسلام وأزمة الحضارة**،ص٣٢.

المنهج مما أسفر عن قلق حرم البشرية معه كل معنى للاستقرار أو فرصة للتكيف وتذوق الوضع الجديد[٣١٦].

لقد جاء هذا التعليم الرباني لنبيه الملك داود-عليه السلام-ليشير إلى أهمية هذا الجانب من القوة**{صنعة لبوس لكم لتحصنكم}**فهو كائن لكم، وسر تعليمه إياه ليحصنكم[٣١٧]، إذا فهو أمانة خطيرة ومقدسة، به يكون الامتداد الحركي الإيجابي للجهاد الحضاري حين تحول سدود الطغيان بين الخليفة الرباني وبين أمم الله الغافلة، ليُعَمّر الكون، وتزدهر الإنسانية في تصاعد موزون، تستوفي فيه المادة حظها والروح حقها[٣١٨]، لتتبدى أهم خصائص هذه الحضارة الباسقة، حيث التفاعل بين عطاء الوحي وتطلعات العقل وأشواق النفس، بما يرتقي بوظيفة الإنسان من مجرد وسيلة وأداة الإنجاز الحضاري، إلى مستوى جعل معه هذه المنجزات التي يبتدعها وسائل مسخرة لخدمته، وتحقيق إنسانيته[٣١٩].

ب-الحديد أصل القوة:

ركزت الآيات على سر القوة**{وألنا له الحديد}(سبأ١٠)**صارفة الأنظار إلى أهمية هذه المادة، والتي تكاد حضارة البشرية القائمة اليوم كلها تقوم عليها حيث يعد عمودها وقوامها" فما من صنعة إلا والحديد وما يُعمل بالحديد آلتها"[٣٢٠]لذا فقد سمّى الله تعالى سورة باسمه وتكفل المولى –عز وجل-بإنزاله من السماء**{وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد منافع للناس}(الحديد ٢٥)**ليكون هو المادة الوحيدة التي نزلت من السماء إلى الأرض كما أثبت العلماء حديثا[٣٢١]، لا كما ورد على لسان المفسرين من توجيه معنى الإنزال إلى الخلق مثل: **"وأنزل لكم من الأنعام"**أو على اعتبار إخراج المعادن منه، أو أن أصله ماء وهو منزل من السماء، إلى غير ذلك من التوجيهات[٣٢٢] حسب معلومات

---

[٣١٦]-ينظر:قطب،**الظلال**،ج٤،ص٢٣٩٠

[٣١٧]-ينظر:أبو حيان،ج٧،ص٤٥٧

[٣١٨]-ينظر:الأميري،**الإسلام وأزمة الحضارة**،ص٣٣

[٣١٩]-ابن عاشور،محمد الفاضل،**روح الحضارة**،ص٢

[٣٢٠]-ينظر:الحقي،إسماعيل،**روح البيان**،ج٩،ص٣١١،دار إحياء التراث العربي

[٣٢١]-يرجع إلى كتاب العبيدي،خالد فائق صديق(٢٠٠٤):**تفصيل النحاس والحديد في الكتاب المجيد**،ط١،دار الكتب العلمية.

[٣٢٢]-ينظر:الحقي،ج٩،ص٣١١،الألوسي،ج٢٧،ص١٨٨

عصرهم، وفي سياقه الذي ورد فيه إشارة إلى احتياج الكتاب والميزان إلى القائم بالسيف ليحصل القيام بالقسط فإن الظلم من شيم النفوس[٣٢٣].

ج-الربانية غاية:

ويتجلى مفهوم الإخلاص الذي شدَّما تحتاجه النفس وهي تطرق أبواب القوة وتعتلي عروشها،**{أن اعمل سابغات وقدر في السرد}**فأما العمل فينبغي أن يكون تاماً على أكمل صورة وأفضلها وكذا هو السبغ[٣٢٤]، ليأتي مفهوم التقدير فيجعل كل شئ على مقداره المخصوص[٣٢٥]دونما زيادة أو نقصان لأن الله **{بما تعملون بصير}**كما ختمت الآية، فالقوة على قدر أهميتها إلا أن الأمم لا تحيا وتزدهر وتواصل الطريق بها وحدها، إنها جانب من المسيرة الحضارية، وفاعلية الجماعة البشرية في قلب العالم، وأي طغيان فيها على حساب الجوانب الأخرى سوف يعرض هذه الجماعة إلى فقد قدرتها الخلاّقة على مجابهة متطلبات مسيرتها، وسيدفعها ذلك إلى قصر هذه الاستجابة على نطاق القوة والبطش الذي يؤول بها حتما إلى الاستنزاف فالدمار.

ليس هناك من قيمة للقوة-أيا كان منحاها-إن لم يكن وراءها نفسية متماسكة وأخلاقية عالية ونظرة إلى الحياة شاملة وموقع متقدم مسئول أمام الله[٣٢٦] **"إني بما تعملون بصير"(سبأ١١)**

لقد حملت الجزيرة رسالة إنسانية وحضارية بلغت أنوارها ومعالمها الدنيا بأسرها وهي لمّا تمتلك من عالم الأشياء والأموال والطاقات المادية إلا ما يمكن أن يوصف أنه دون حد الكفاف، ولكنها كانت في موقع العطاء للعالم بعقيدتها وقيمها ومعرفة وحيها وأنموذج إنسانها[٣٢٧].

إن حصول الاستعلاء الإيماني في النفوس لهو العنصر الأهم في تحريكها نحو البناء الحضاري، إنه المحرر لها من الاستكانة والقبوع سواء في أقبية التقليد للحضارة القائمة، أو في زنازين الاستعباد للعروش الطاغية، فالشعور بالاستعلاء هو الشعور

---

[٣٢٣]-ينظر:المصدرين السابقين

[٣٢٤]-ينظر:الراغب،**المفردات**،ص٢٢٨

[٣٢٥]-ينظر:ابن عاشور،ج٢٢،ص٢٦

[٣٢٦]-ينظر:عماد الدين خليل،**التفسير الإسلامي للتاريخ**،ص١١٧،بتصرف

[٣٢٧]-ينظر:حسنة،**الوراثة الحضارية**،ص١١٩

بالقوة الذي يثمر إنجازا يغير الواقع في اتجاه النهضة الحضارية[٣٢٨]، وإلا فإن ترسانات الأسلحة مكدسة، ومظاهر القوة متناثرة عبر المصانع والجامعات، ولكنها غير مجدية لخوائها من جوهرها ومضمونها، وفقدها لإنسانها المستعلي المؤمن بتسخيرها لتحقيق غايته.

[٣٢٨] -ينظر:النجار،**عوامل التحضر**،ص٢٣٥

المبحث الرابع: الروح الجماعية:

يـأتي الحـديث فـي هـذا المبحـث عـن الـروح الجماعيـة بوصـفها الوعـاء الـذي يجمـع جزيئـات المجتمـع بأشـكاله ومنازعـه واختلافاتـه كلهـا، مقوّمـاً وأساسـاً مهمـاً تعتمد عليه أي حضارة في نشوئها وبداية ارتقائها.

والمجتمعـات البشـرية تختلـف فـي أصـل تكونهـا وهـدف اجتماعهـا، هـذا الاخـتلاف الـذي نلمـح سـماته جليّـةً واضـحة مـن خـلال مـا يَعْـرض لنـا القصـص القرآنـي مـن مشـاهد تُظهـر لنـا هـذا المـزيج المتنـوع مـن أشـكال الارتباطـات التـي تتبني عليها أصول المجتمعات.

علـى أن هـذه الأصـول هـي المؤشـر الـذي يعطـي للمراقـب طبيعـة حركـة سـير التـاريخ،في علوّهـا وهبوطهـا، ارتفاعهـا وانتكاسـتها، فكلمـا كـان الأصـل عميـق الجـذور متشـعِّباً واسـعاً شـاملاً ليلبـي حاجـة البشـر-علـى اخـتلاف طبـائعهم وأمـزجتهم وأفكارهم-كلما أثبت قدرته على البقاء والنماء والارتقاء.

ولا يمكـن لمجتمـع-مهمـا بلغـت درجـة ذكـاء وقـوّة حاكميـه ومسـيّريه-أن يحقـق هـذا المطلـب ويسـتوعب تلـك الحاجـة مـا دام أنـه جـزءٌ منهـا، فـردٌ فيهـا، لـه حاجياتـه وأهـواؤه ومطالبـه، ومـن ثـمَّ لا بـد مـن مـنهج أعلـى يسَـمْت أسـمى يخاطـب البشـر وهـو عـالِمٌ بحـاجتهم، يغطيهـا ويرتفـع بهـا ليصـل معهـا إلـى أعلـى قَـدْر مـن الكمال، وليس ذلكم إلا للمنهج الرباني.

ملامـح وسـمات هـذا المـنهج وهـي تتنـاغم لتحقـق هـذه الـروح، هـي مـا سـنعمل فـي هـذا المبحـث علـى محاولـة استقصـائه مـن خـلال اسـتنطاق الآيـات، وتَلَمُّس العبر فيها.

المطلب الأول:الحياة الجماعية فطرة:

خلق الله سبحانه آدم وخلق منه حواء لأنـه سبحانه-وهو العليم بما خلق-يعلم أن حياة الإنسان لا يمكن أن تستقيم وتحقق المرجوّ منها دون أُنسة وجماعة، وأفراد معه، يشاطرونه أفراح الحياة وأتراحها، همومها ومتاعبها، فقد جعل المولى هذه الأحاسيس

فطرة في قلوب البشر لا يمكن لهم التخلي عنها أنّى بلغت عنجهيتهم أو قدرتهم على تحدي ذواتهم، ومكنونات أعماقهم.

تتجلى هذه المشاعر الفطرية شاخصةً واضحةً في قلب الخليل إبراهيم-عليه الصلاة والسلام-وهو يسعى ملبياً نداء مولاه سبحانه بترك هاجر واسماعيل في صحراء مكة الجرداء دون أنيس يزيل وحدتهما، أو شريك يقاسمهما همهما، على أن صاحب الفكرة لا يَدَع فطرته تُسيّره أنّى بلغت حساسيتها أو وصلت درجة عنفوانها، فهو يحمل بين جنبيه غاية يسعى إلى تحقيقها، يهاجر من أجلها، يزهق دمه رفعة لشأنها، فلا يمكن له أن يتناساها في لحظة حب أو شوق تقف فيها مشاعر وروابط الحياة وجهاً لوجه أمام حب الله، بل إنه حينها يسعى تلقائياً إلى رَسْم معالم حبه الأرضي ضمن إطار خريطة حبه الإلهي، ليغدو الأول طريقاً وسُلَّماً يُعْرَج من خلاله إلى الثاني دونما تعارض أو تضاد.

يقول تعالى على لسان سيدنا إبراهيم عليه السلام: "رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ ﴿٣٧﴾ **"{إبراهيم}**فقد شاء الله أن يجعل للبشرية أنموذجاً تتمثله في سيرها، تهتدي به لتحيا وفق معالمه آمنة فاعلة مدركة أبعاد ما يجب أن تفكر فيه وتتحرك ضمن إطاره، وقد تمثّل هذا الأنموذج في إبراهيم الخليل، الأب والزوج والنبي، وهو يترك بعضاً من نفسه-زوجه وابنه- في أرض قاحلة قفراء من كل شيء، بل من كل معنى للحياة، على أن حقيقة حياة المكان ستُبنى بحياة قَلْبَيْ من سيودعهما فيه، وحياتهما ليست ككل حياة، إنها أنفاسٌ مقيمةٌ للصلاة، ولا بد لهذا القائم بين يدي الله من إقامة الحياة حتى تصحَّ عبادته ويتقوَّم وجوده ضمن المسار الذي أراده الله له، والحياة تحتاج إلى مأكل ومشرب، وتحتاج إلى قلوب محبة محيطة، فجاء الدعاء**"فاجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم"**

فالفؤاد الملتاع يسأل مولاه أن يمن على أحبته بأفئدة محبة تسير إليهم عن شوق ولهفة[٣٢٩]، ويكون ميلها إليهم ميل قلوب لا ميل جيوب[٣٣٠]، ويأنس المكان بتردد الزائرين وقضاء حوائجهم منهم[٣٣١]، وليسوا أيَّ زائرين، ولكنهم يمثلون القطعة من أفئدة المجموع[٣٣٢]النابضة بالحب والقرب والشوق،يقصدونهم، بحبات قلوبهم[٣٣٣]، ليتحقق دعاء الخليل إبراهيم، وتتألق الفكرة وهي تواكب الفطرة، فيولد المجموع الذي يسير بالجموع لإثبات الغاية وتقرير سرّ الوجود.

المطلب الثاني،أهمية هذه الروح:

يقول الله تعالى:" وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٩﴾ إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١٤٠﴾ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ ﴿١٤١﴾ فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٤٢﴾ فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾ فَنَبَذْنَٰهُ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَأَنۢبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ ﴿١٤٦﴾ وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔامَنُوا۟ فَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١٤٨﴾**{الصافات}** لقد تمثّل في يونس عليه السلام جانب من جوانب البشرية في يأسها من تحقيق غايتها، فيترك جماعته بحثاً عن المكان الذي ينعزل فيه بنفسه محققاً بذلك مراده، منشغلاً بفكرته المتغلغلة في أعماقه، فكانت النتيجة، انعزالٌ عن الحياة والأحياء،عن الوجود والأكوان، في جوف حوت في قيعان البحار، ليُعلّم الله سبحانه البشرية جمعاء أن

---

[٣٢٩]-ينظر:ابن عاشور،ج١٢،ص٢٦٢.

[٣٣٠]-ينظر:الشعراوي،ص١٧٧٣.

[٣٣١]-ينظر:ابن عاشور،ج١٢،ص١٧٧٣.

[٣٣٢]-ينظر:الشعراوي،ص١٧٧٣.

[٣٣٣]-ابن عاشور،ج١٢،ص٢٦٢.

ضُرَّ البشر في الإقامة بينهم خيرٌ من ضُرّ العزلة والتفرد، فمخالطة الناس والصبر على آذاهم خير من عدم مخالطتهم أو عدم الصبر على آذاهم، لأن العزلة والتفرد تزوي بالروح والجسد معاً، فأما الجسد فيبلى، وأما الروح فتصَّعَّد إلى بارئها في اليوم مرات ومرات تشكو أنين ما تعانيه من وحدة**"لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين"{الأنبياء٨٧}.**

هذه حقيقة من الحقائق التي لا بد أن تبقى حية دافقة في أعماق كل سائر في ركاب البناء، ليعلم أن الحياة أمواجٌ متلاطمة، وأن عليه ركوب صعابها والصبر على أذاها حتى يتم له تطويعها وفق الهدف الذي يسعى إليه، أما أن تخور منه العزيمة ويُفَتُّ منه العضد، عندها لن يتمكّن من تحقيق شيء من مراده.

لقد كشف الله سبحانه الضرَّ عن يونس شاملاً بذلك زوال العجز والوهن**"وأنبتنا عليه شجرة من يقطين"**، مترافقاً مع التنعم بالحياة ضمن فئة متناغمة منسجمة**"وأرسلناه إلى مائة ألف أو يزيدون فآمنوا فمتعناهم إلى حين"**، تماماً كما كشف سبحانه الضرَّ من قبل عن أيوب عليه السلام، حين وقف بلاؤه عائقاً دون متابعة مسيره في بناء أمته وإنجاز مشروعه النهضوي في مجتمعه بتقويم الروح في أعماقها كي تتقوّم الحياة في شتى أبعادها، يقول تعالى:"وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ ﴿٨٤﴾"**{الأنبياء}** ليكون في كشف الله عن أيوب عليه السلام ضُرَّه والامتنان عليه بالثُّلَّة الطيبة التي يحيا معها وبها، العبرة والغاية**"رحمة من عندنا وذكرى للعابدين"** والرحمة تشمل الفرد الذي ينهض بتكاليف الغاية، ويشمل الجماعة المكونة من أمثال هذا الفرد، رحمة في اطمئنان القلب،

وفي الحماية من الفتن والأحداث، ورحمة في صلاح الجماعة وتعاونها وتضامنها واطمئنان كل فرد للحياة، واطمئنانه لرضاء الله[٣٣٤].

وكذا**"ذكرى للعابدين"**وما تحمل من أثر المجموعة على الفرد بشحذ همته، وشحن طاقته، ودفعه في اتجاه الفعالية الإيجابية في ميادين الحياة، وذلك ضمن إطار مفهوم العبادة القرآني والذي لا تعدُّ النفس فيه إلا منطلقاً لتحقيق العبادة على الأرض بمفهوم الخلافة الرباني، قائمة بتكاليفها صابرة على دفع ثمنها، "فالعقيدة أمانة لا تُسلَّم إلا للأمناء القادرين عليها"[٣٣٥]، وما يعترض السائرين من بلاء فإن ملاذهم الوحيد اللجوء إلى صاحب الغاية وحده سبحانه الذي تكفَّل بكشف الضر وإعطاء المزيد ليكون في يونس وأيوب عليهما السلام مثلا يحتذى على الطريق.

المطلب الثالث:الأساس الذي يجب أن تنطلق منه هذه الروح:

لا بد لكل جماعة إنسانية أقامت لها وحدة كيان على بقعة أرض من همّ يجمعها، وفكرة تشغل بالها تسعى بمجموعها لتقريرها واقعاً يُرى، والمطَّلع على سَيْر البشرية يلمح التفاوت العجيب لأصناف الروابط التي آلفت بين مجموعات الأفراد على مر التاريخ، والتي تتراوح في كليتها بين معان لا تتجاوز عوالق الأرض والطين والهوى، لتأتي دعوة الأنبياء تخترق مسارات الحياة توجه الأنظار إلى حقيقة برّاقة صادقة لم تزدها دهور الزمان إلاّ ألقاً وإشراقاً، لتكون تحقيق كلمة الله في خلافة الإنسان على أرضه هي الهمّ والرابط والجامع للأفراد في أيّ بقعة عبر الزمان، ولكي تنشأ من هذا التوجه القلبي والتوحيد الغائي للفكرة والوجود أصل نشوء الأمة التي تجمعها رابطة واحدة، فالجماعة في المفهوم الرباني هي المحضن الذي ينضوي تحت لوائه كلُّ من دان بولائه لله، ليكون انضمام الفرد إلى جماعته التي يختارها بمطلق حريته وإرادته لا ترغمه عليها ظروف من جنس أو لون أو دم، يرى فيها الفرد نفسه طرازاً مستقلاً من دون الناس، وجماعته صنفاً متميزاً في كل شأن بأوسع الوجوه وأشملها، هذه الجماعة بهذا المفهوم هي التي تتسع لحريات الأفراد كي ينطلقوا في ميادينها مبدعين متألقين،

---

[٣٣٤] -ينظر:قطب،الظلال،ج٣،ص١٦٧٦

[٣٣٥] -ينظر:المصدر السابق،ج٤،ص٢٣٩٢.

يحملون بين جوانحهم من الحبّ لبعضهم بعضاً ما يحول دون اعتداء أحدهم على الآخر، بل يَسْعَون من خلال احتكاكهم إلى تحقيق معنى الجماعة ببعده الجماعي الذي يتجاوز حدود العبادة الفردية الخاصة بين العبد وربه، حيث تتضمن نُظُم العبادات أعمالاً جماعية تؤكد الموالاة بين المؤمنين لتَظهر آثار هذا التلازم عملاً وإخاءً وتعاوناً وحرصاً من كلّ على أخيه، وكأنه يسعى لتحقيق مصلحة تخصّه وتعنيه، مظهرين في ذلك أعظم معاني المنافسة، محققين أسمى معاني العزة في علاقتهم ببعضهم وذلك باستشعارهم المسؤولية الفردية حيث يتجلى هذا الفهم من خلال التعاليم النبوية [٣٣٦] **"مثل المؤمنين في تراحمهم وتوادهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى"**[٣٣٧]**".**

المؤمن للمؤمن كالبنيان يشدُّ بعضه بعضا"[٣٣٨]فحين ينضج التكوين العقدي ستكون الجماعة هي المظهر الواقعي لهذا النضوج[٣٣٩]"

وقد كان سلمان الفارسي-رضي الله عنه-أروع أنموذج على هذا الفهم، حيث هجر حضارته الباسقة واعتنق الحضارة القيمية، هجر حضارة الفرس بزخرفها، واعتنق حضارة الإسلام بقيمها، فكان شاهد ميلاد لها[٣٤٠]، لتكون هذه المعاني هي القاعدة التي ينطلق منها بناة الحضارة حين يَسْعون إلى تأسيس مجتمعاتهم التي تكون لهم القوة الدافعة المحرّكة لتحقيق الرجاء ونيل المقصود، فحينما تكون آصرة التجمع الأساسية في مجتمع هي العقيدة الصادرة من إله واحد، عندها يكون هذا المجتمع ممثّلاً لأعلى ما في الإنسان من خصائص الروح والفكر، أما ما سوى ذلك من الروابط فهي لا تمثل الخصائص العليا للإنسان، لأن المرء يبقى إنساناً وإن تغيَّر فيه شيء من هذه الخصائص، ولكنه يفقد إنسانيته إن فقد روحه وفكره، كما أنه قادر على تغيير الروح والفكر ولكنه عاجز عن تغيير اللون والجنس، فالمجتمع الذي يتجمع فيه الناس على

---

[٣٣٦] -الترابي،**الإيمان بالله**،ص٢٠،١١٧،١١٩،١٢٨،١٣٥.

[٣٣٧] -أخرجه البخاري،ج٨،ص١١،رقم(٦٠١١)،ومسلم،ج٨،ص٢٠،رقم(٢٥٨٦).

[٣٣٨] -أخرجه **البخاري**،ج٣،ص١٦٩،رقم(٢٤٤٦)،و**مسلم**،ج٨،ص٢٠،رقم(٢٥٨٥).

[٣٣٩] -قطب،**المعالم**،ص٥٢

[٣٤٠] -ينظر:سفر،محمود بن محمد،**الحضارة تحد**،ص٩٨

رابط يتعلق بإرادتهم الحرة واختيارهم الذاتي هو المجتمع المتحضر، أما المجتمع الذي يتجمع فيه الناس على أمر خارج إرادتهم الإنسانية فهو المجتمع المتخلف[٣٤١].

إن بناء أصل المجتمع على أساس من هذا الفهم الرفيع للمعنى العظيم لا يكفي وحده لتحقيق الإنجاز المأمول، بل إن هذا الفهم لا بد أن يتغلغل ليحيط القلوب كلها فيَنْظِمها في عقده، لتغدو في مسارها واحدة لا تشذُّ حركة في الحياة أو خفقة في الوجود عن خطها، وتوزَن الأمور تبعاً لها، وتُقاس حيثيات الحياة بمعاييرها، فتغدو هي الموجّه والمرشد، وحين تظلل العقيدة الأفئدة وتغدو المظلّة التي تهفو إليها الأرواح، والآصرة التي تجتمع عليها القلوب، عندها تتعزَّز معاني الوحدة والالتئام، وتذوب عوامل الفرقة والبعاد، وتَسْعد النفس بهذا الركن الركين الذي آبت إليه وأوت بين جنباته.

هذه الآصرة هي التي تؤلّف بين الأفراد وتوحِّد بينهم وتجعل منهم جماعة بناء ونهضة قادرة على إحياء معالم فكرتها، بناء على وحدتها وتكاتفها، فإذا ما اختلفت المنازع الفكرية انبثقت العقيدة لتفصل"**إن ابني من أهلي"..."إنه ليس من أهلك"{هود٤٥-٤٦}**.

وإذا ما اشتجرت المسالك العملية نتيجة اختلاف المنازع الفكرية،نطقت العقيدة كلمتها "**وأعتزلكم وما تدعون"{مريم٤٨}.."إني مهاجر إلى ربي"{العنكبوت٢٦}..**فتغدو-هذه العقيدة-بكليتها الجوهر والكيان، ويغدو أفرادها هم كلماتها المتحركة على الأرض.

أ-المشهد الأول:نوح عليه السلام:

يقول تعالى على لسان نوح-عليه السلام-وقد دبّت بين جوانحه عاطفة الأبوة:

"وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ

---

[٣٤١]-ينظر:قطب،**معالم في الطريق**،ص١٤٥-١٤٦

صَٰلِحٍۖ فَلَا تَسۡـَٔلۡنِ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۖ إِنِّيٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ

﴿٤٦﴾{هود}

تلكم العاطفة التي قامت تتحدث في مقام تطغى فيه على أيّ حديث، هذه العاطفة التي شحن الله بها قلوب الآباء على أبنائهم ليكونوا قادرين على تحمُّل متاعب تربيتهم[٣٤٢]، إلا أن الحال هنا جدُّ مختلف، حيث إنه مقام تربية للأمة وللأجيال القادمة أن تقوم الساعة، إنها إعلانٌ لمبدأ عظيم فالقرابة بين الأفراد-أياً كانت الوشائج والصلات-هي قرابة الدين والعمل الصالح لا قرابة النسب والدم، سواء كان ابنك أو زوجك أو أياً كانت العلاقة بك لكنه ليس من أهل دينك أو ولايتك عندها ينقطع عنك[٣٤٣] وتنفصم العرى بينك وبينه ولم يعد من رابط يُبكى عليه .

ونوح-عليه السلام-يمثّل للأمة قائدها وموجهها، والقرآن في هذا الموقف يخاطب روح القيادة في كل فرد فينا، الروح التي يجب أن تتأصل في أعماقنا لتنبري قويةً معلنةً أن الأهلية ليست أهلية الدم واللحم، وإنما أهلية المنهج والاتباع، وكما أعلنها المولى سبحانه**"إنه ليس من أهلك إنه عمل غير صالح"** أكدها الحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم: **"سلمان منا أهل البيت"**[٣٤٤] لتنكر الذات ويثبت العمل[٣٤٥] وتغدو الفكرة هي الأصل والمحور.

---

[٣٤٢] -ينظر:الشعراوي،ص٤٢٠٣.

[٣٤٣] -يتظر:السمرقندي،**بحر العلوم**،ج٢،ص١٥٣،وينظر:الزحيلي،وهبة بن مصطفى(١٤١٨)،**التفسير المنير**،ط٢،ج١٢،ص٧٦،بيروت:دار الفكر.

[٣٤٤] -أخرجه الحاكم،**المستدرك على الصحيحين**،ج٣،ص٦٩١،رقم(٦٥٣٩)،دار الكتب العلمية.

[٣٤٥] -ينظر:الشعراوي،ص٤٢٠٤.

ب-المشهد الثاني:إبراهيم عليه السلام:

لقد بالغ إبراهيم في إرشاد قومه ودعوتهم حتى وصل معهم إلى الدرجة التي لا يرجى من ورائها خير[٣٤٦] فكان لا بد من الهجرة، ليست الهجرة بملء الإرادة ولكنها رغماً عن كل إرادة، **"إني مهاجر"**بما تحمله من معنى المفاعلة مصورةً لنا مشاهد الأذى والعذاب الذي بدر من قومه له فاضطره للخروج من غير رغبة منه[٣٤٧]، ولكنه المبدأ الذي تُبنى عليه المجتمعات، وتهجر لأجله مجتمعات، وهجرة الأوطان من أرفع مظانّ التضحية والتي-لا شك-تترك في النفوس التي تركها أثراً عميقاً قد لا تظهر آثاره إلا بعد زمن طويل، لينتصب عملاق المعنى الخالد-الذي لأجله هَجَر الأوطان أحبابها-نافضاً عن كاهله ركام الخوف وغبار الوهن، محققاً-أي العملاق الإيماني –كأمة ما عجز عن تحقيقه ذاك المهاجر فرداً.

لقد هاجر إبراهيم إلى الله، إلى حيث يتجرد فيه لعبادة الله وتحقيق الغاية التي أوجده الله على هذه الأرض لأجلها[٣٤٨]، اعتزل من ربطته بهم وشائج الأرض من أجل الله وفي سبيل ما يؤمن به من مبدأ يدعو إليه[٣٤٩]، مختاراً غربة البلاد على غربة الأضداد، مثبتاً للتاريخ أن الوطن دار تحكمها عقيدة ومنهاج حياة، والجنسية فيها عقيدة ومنهاج حياة، ذلكم هو معنى الوطن اللائق بالإنسان، وتلكم هي الآصرة اللائقة بالآدميين[٣٥٠]، فالأرواح كما قال الحبيب المصطفى-صلى الله عليه وسلم-:**جنودٌ مجندة ما تعارف منها ائتلف،وما تنافر منها اختلف"**[٣٥١]ولن تُجدي نفعاً الإقامة في مجموع فَقَد كل سَمْت للتناغم بينه وبين أفراده، وفرَّقت سُبُل الغايات مسعاهم، فعلى الرغم من كون إبراهيم الخليل أمة وحده-كما وصفه المولى عز وجل-**"إن إبراهيم كان أمة"**{النحل١٢٠}بحيازته من الفضائل البشرية ما لا يمكن أن يوجد إلا متفرقاً، واستكمال صفات الخير فيه-عليه السلام-[٣٥٢]إلا أن ذلك لم يكن كافياً أبداً لدفع عجلة النهوض والارتقاء بهذه المجموعة لتكون في مصافّ أصحاب الحضارات القادرين على

---

[٣٤٦]-ينظر:الرازي،ج٢٥،ص٤٩.

[٣٤٧]-ينظر:الشعراوي،ص٣٢٩٢.

[٣٤٨]-ينظر:أبو السعود،ج٧،ص١٩٩،وينظر:أبو حيان،ج٩،ص١١٥.

[٣٤٩]-ينظر:الشعراوي،ص٥٥٦٢.

[٣٥٠]-ينظر:قطب،**معالم في الطريق**،ص١٩٥.

[٣٥١]-أخرجه **البخاري**،ج٤،ص١٦٢،رقم(٣٣٣٥)،و**مسلم**،ج٨،ص٤١،رقم(٦٨٧٦).

[٣٥٢]-ينظر:الزمخشري،ج٢،ص٦٤٢ ،وينظر:النسفي،ج٢،ص٢٧٥،وينظر:حقي،روح البيان،ج٥،ص٧١.

ترك بصماتهم عبر التاريخ، لأن عملية البناء لا تقوم على كاهل فرد-وإن كان أمة وحده-ولكنها تحتاج إلى أفراد يتميز كلٌّ منهم بجوهرية فرديته التي تَطْبعه بطابع مميز، تماماً كحاجتها إلى المنهج الذي يراعي فردية كل واحد ضمن حياته الجماعية، لتتألق طاقات الأفراد مع كونهم أعضاء في جماعة واحدة[٣٥٣]، فالفردية جوهر حقيقي لا يمكن تناسيه إذا لم تجد الجماعة التي تتناغم معها محققة بها أملها ومحققاً من خلالها مَطْمَحه، فلا بد من الانطلاق بعيداً بحثاً عن المحضن المناسب ليتمكن من تحقيق التوازن بين النزعتين اللتين تراوداه :حبه لفرديته والتي تدفعه إلى رغبة الاستقلال، وحبه لبني جنسه وتطلعه إلى العيش معهم بسلام[٣٥٤]، ولن يجد ذلك إلا من خلال رابطة العقيدة التي تذوب فيها فردية الوجود عبر الزمان والمكان، ليستشعر المؤمن أنه جزء منتظم بموكب المؤمنين، موصول بصفتهم عبر الفواصل الشعوبية والأرضية[٣٥٥]،وعندما تتقوّم هذه المفاهيم في النفس وتنسلك جميعها في عقد واحد سمته الربانية، حينها يمكن لهؤلاء الأفراد أن ينطلقوا في مجتمعهم نحو القمة، ومن ثَمّ الشهادة على العالمين.

المطلب الرابع:صور من تغلغل هذه الروح في قلوب أصحابها:

المشهد الأول:موسى عليه السلام:

من أكثر المشاهد تألقاً بمعانيها في هذا الجانب مشهد موسى نبي الله والعبد الصالح في رحلة سيرهما الطويلة العميقة، وهما يمران عبر مراحل ثلاث، تحمل كلٌّ منها من العبر ما يقف المرء حيالها عاجزاً إلا عن مزيد من استلهام وتفكر وإمعان.

الدرس الأول:

يقول تعالى:"فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِى ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا ﴿٧١﴾"{الكهف}و(إذا)ظرف للزمان الماضي ليؤذن هذا التوقيت بمبادرته خرق السفينة ساعة ركوبها، فكأن الركوب كان لأجل

---

[٣٥٣] -ينظر:كاريل،ألكسيس،**الإنسان ذلك المجهول**،ص٥١،٤٩-٥٢،(ترجمة:عادل شفيق).

[٣٥٤] -ينظر:السامرائي،**نحن والحضارة والشهود**،ج٢،ص٦٧-٧٧

[٣٥٥] -ينظر:الترابي،**الإيمان بالله**،ص٨٦

الخرق لأن الشيء المقصود هو الذي يبادِر قاصده بفعله، ولذا قُدّم الظرف على عامله اهتماماً به ومؤكداً أن وقت الركوب مقصود لإيقاع الفعل فيه[٣٥٦].

ولكن موسى عليه السلام لم يكن ذاك الفرد المتقاعس السلبي الذي يكتفي برؤية الأذى يقع على من حوله فيصمت مكتفياً بالمشاهدة مع حسرة تعتلج فؤاده-كما هو حال أفراد الأمة اليوم-ولكنها المبادرة الفاعلة، والإيجابية المتحرقة الناطقة، التي جعلته يُتبع استفهامه"**أخرقتها لتغرق أهلها**"؟ لقد نسي العهد الذي قطعه على نفسه-وهذا حال الإنسان في مسار حياته-"لأن التجربة العملية لها وقع وطعم غير التصور النظري"[٣٥٧]، فكلامه النظري شيء ورؤيته لخرق السفينة وإتلافها دون مبرر-من وجهة نظره-شيء آخر[٣٥٨]، وبالرغم من روعة الروح الحارة الدافقة في شرايين نبي الله موسى إلا أنها تستوقفنا كأتباع لنبصر عبر الطريق أن بقاء الحياة وارتقاء الفكرة فيها محكوم بدائرة المجموع الذي لا ينكر ذات الفرد وألقها، ولا ينساق في الوقت نفسه وراء انفعالاتها، بل له ميزان حاكم منضبط خطَّ المنهج الرباني معالمه، ليضمن للأمة سلامة سيرها، مرفوعاً به شأنها، محفوظةً بربانيته ونقائه كرامتها وإنسانيتها، فعندما تجلت للنبي-الفرد-حقيقة الفعل وسر التصرف آب إلى نفسه مدركاً الحقيقة الغائبة والتي لو تبدّت له حينها لما توانى عن ذات الفعل لحظة واحدة، إنهم مساكين، يكدحون دهرهم لتحصيل عيشهم،ضعفاء ينبغي أن يشفق عليهم[٣٥٩]، ووراءهم ملك طاغية يقتحم كل سفينة تعجبه، مسخِّراً إياها لخدمة مصالحه وتحقيق شهواته[٣٦٠] غصباً وعنوة وقهراً، وبما أن الأمر كذلك فلا بد من مقاومة، إلا أن لكل موقف منطقه، ولكل ميدان صولته وجولته، وأمام الطاغية لا يجدي الاستجداء، فلا بد من الخرق، لتأتي العِبَر تباعا، فما ركب العبد الصالح السفينة لحاجته لها وإنما سعى لذلك ركضاً وراء حاجة يقضيها لأخيه يدفع عنه بها ظلم حاكميه، مُعلّماً موسى-ومن بعده-كيف تكون العلائق بين الأفراد،حين يربو الواحد منهم عن حاجة نفسه ومصلحتها سعياً وراء حاجة أخيه، بروح تدفعها المبادرة التي تأبى تمثيل دور المتفرج المنتظر لوقوع البلاء، والمكتفي بتقليب الأكف وحوقلة

---

[٣٥٦]-ينظر:ابن عاشور،ج١٥،ص١١٠.

[٣٥٧]-ينظر:قطب،الظلال،ج٤،ص٢٢٧٩.

[٣٥٨]-ينظر:الشعراوي،ص٢١٩٥.

[٣٥٩]-ينظر:ابن عاشور،ج١٥،ص١١٧،وينظر:أبو حيان،ج٧،ص٢١٢.

[٣٦٠]-ينظر:ابن عاشور،ج١٥،ص١١٧.

الألسن، وليس الأمر كذلك فحسب، وإنما ثمة عبرة أخرى تجعل من كل فرد في مجتمعه طاقة فعّالة مثمرة ترفض معها كل روح قاعدة كسول تدّعي العجز أو الوهن أو الضعف، فالعبد الصالح ليس بذي سلطان ولا صاحب مال حتى يتمكّن من مساعدة هؤلاء الضعفاء، ولكنه يملك علماً اختصّه الله به فسخره لدفع عجلة المكان الذي مرَّ فيه إلى الأمام، ليخطّ بفعله ذاك عنواناً عريضاً في معنى الإيجابية الفاعلة، مُعلّما السائرين من بعد ألا يستهينوا بقدرة امتنّ الله بها عليهم، وليعملوا جاهدين على شحذها وبلورتها وتسخيرها في تحقيق إرادة الله بخلافة الإنسان على أرضه، من خلال بذل كل المستطاع لا بعضه، فالخروج من الوهن-في أي أمة من الأمم- لن يكون إلا بنفير تستثار فيه إرادة الأمة لتستيقظ معه كوامنها وتُحَرَّك سواكنها، فيغدو كل فرد منتجاً في ذاته، مفيداً لغيره.

لتتألق العبرة الثالثة بتكاتف الأفراد وتآزرهم، وآلية التعامل بينهم بما يظللها من حب مع فهم، وحرص يحيطه عدل، فقد روي أن العبد الصالح "اعتذر إلى القوم، وذكر لهم شأن الملك الغاصب-ولم يكونوا يعلمون بخبره-وقال:أردت إذا هي مرت به أن يدعها لعيبها"[٣٦١]، إنها الروح المرجوة القادرة على خرق سحب الانهزام والإشراق في فضاءات القيادة.

الدرس الثاني:

والذي يتمثل في لقيا الغلام والانفعالات العظيمة التي حملها موسى بين جنبيه "فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴿٨١﴾"**{الكهف}** وقد ظهر

التعرض لعنوان الربوبية في السياق القرآني مضافاً إلى الأبوين مما يدل على إرادة وصول الخير لهما[٣٦٢] والحرص عليهما حرصاً مليئاً بخوف يشوبه التعظيم لهول ما يعلم[٣٦٣]، وما أقدم على فعله إلا لعلمه، حاملا رسالة لمن بعده عن الروح التي يجب أن يحملها كل فرد رباني بين جنبيه باستشعاره أن أفراد المجتمع كلهم مسؤوليته، يفزع لتقويم اعوجاجهم وتصويب خطئهم وكأن كل واحد منهم ابنٌ له، دون أن تصل الأمور لدرجة القتل، فما أقدم عليه العبد الصالح إلا بوحي من الله خصّه به سبحانه من دون

١-ابن حجر العسقلاني،أحمد بن علي(١٣٧٩)،**فتح الباري شرح صحيح البخاري**،بيروت:دار المعرفة،ج٨،ص٤٢١

[٣٦٢]-ينظر:أبو السعود،ج٥،ص٢٣٨

[٣٦٣]-ينظر:الخازن،ج٤،ص٢٢٦

الخلائق، إنها المثابرة في التوجيه والتعليم والبحث عن المخارج، والجد في إيجاد الحلول.

الدرس الثالث:

تُختم الجولة بدرس بليغ عظيم، درس يليق بنبيّ الله موسى عليه السلام، أحد أصحاب أُولي العزم، لما فيه من مجاهدة النفس ومضادة الهوى وركوب المرارة لبلوغ المراد، فإن مَقْدم العبد الصالح وموسى إلى القرية-التي بلغ من شدة لؤم أهلها وسوء طباعهم أن منعوا عنهم الإطعام بل حتى الضيافة بما تعنيه من مجرد إيواء واستقبال- لكفيل بأن يكون العذر والمبرر لأي ردة فعل تصدر من عابرَيْ سبيل.

لقد سعيا بين بيوتات القرية، يطرقان أبوابها بحثاً عن قلب يرق لحالهما-وقد بلغ منهما الجوع مبلغه-فلم يواجَها إلا بالصد المنبئ عن كلّ بخل وسوء يُجمع عليه أهل هذه القرية جميعاً، بالرغم من كون مسألة طلب الطعام من أصدق أنواع السؤال[٣٦٤]، ليكون المقابل من القائد المعلم تقديم الخير لمن بسط بين يديه الشر، وبناء الجدار لمن هدم حاجته تحت قدميه، والتأني في إصدار الحكم وعدم التعميم"**وكان أبوهما صالحا**"رغم شيوع الفساد وعموم البلوى، ولكن الباني عليه أن يبحث عن البذار الجيد فيسقيه بدعوة، بعمل صادق في غيب مجهول، بهمة لتثمر بَعْدُ القطاف في الأمة.

إن المتصدي للبناء شخص قد تعلق قلبه بالسماء، لا يسمح لهنات الجسد وأنات الروح بالسيطرة أو الاستعباد، لقد تحرر من ربقة كل متعلَّق له بطين أو ما انبثق عنه، فغدت تصرفاته وقراراته ملك فكره لا ملك هواه، وفكره مأسور بحب الله، فهو لا يرى إلاّه، ولا يسعى إلا لأجل رضاه، إنها الروح التي ينبغي أن تجلّل القلب الساعيَ إلى رفع أمته لتصل القمة، وإن قوبل بالمهانة والسخط والتبكيت ممن حوله، يرمونه بالحجر فيرميهم بالثمر لأنه كالشجر كما قال الإمام البنا.

لقد رفع المنهج القرآني من درجة الشعور الفردي ليصل إلى مستوى الشعور الجماعي بما غرسه فيه من معان تجافي كل فردية أو أثرة أو أنانية أو تقوقع حول الذات، ليبعده عن دائرة الأنا التي لا تورِّث إلا مزيداً من التجافي والبعاد، والذي يفارق

---

[٣٦٤]-ينظر:الخازن،ج٤،ص٢٢٦،وينظر:ابن عاشور،ج١٥،ص١١٠،وينظر:الشعراوي،ص٢٢٠١

بين أبناء الجماعة الواحدة، مرتقيا بهم إلى حالة الاندماج في المجموع والتفاني في البذل والعطاء سعياً لتقديم كل ما من شأنه أن يُؤلّف ويُقرّب ويسدّد الخطى نحو الأفضل لهذه الجماعة، والتي برقيها وسعادتها يهنأ الفرد ويعلو شأنه "دون تجاهل للفردية التي تنفذ في الكيان لتجعل من الذات حدثاً فريداً في تاريخ العالم وإن ظلت غير منظورة[٣٦٥]".

إن روح الحب والتآخي التي تسود بين المجموع والتي تعكس بسيادتها راحةً للفرد وطمأنينة للجماعة، لهي الروح التي حرص رسول الله-صلى الله عليه وسلم-أن يبدأ بترسيخ مفهومها في أول عمل قام به لحظة شروعه في بناء أمته من المدينة المنورة، حيث تبدّت هذه الروح بأبهى صورها وملامحها في حفر الخندق، ليُحصّل المسلمون معها نتائج ترتقي بهم إلى مصاف المعجزة، في الوقت نفسه الذي تبدّت به معالم الفردية بأجلى سماتها في حال المسلمين اليوم وهي تتنازعهم بين صوفية منعزلة من جهة، أو مجون أعمى وسلطة مستبدة من جهة أخرى، أسفرت معها عن أبغض أنواع الخسر الحضاري الذي ولدته اتجاهات البعد عن التواصي بالحق والتواصي بالصبر والذي أقسم الله به في سورة العصر[٣٦٦].

المشهد الثاني:جندٌ فاعلون في عهد نبيّ الله سليمان:

عندما يندفع الفرد بتلقائية فعالة محاولاً تجاوز حدود ذاته في حرصه على الإنجاز ليصل إلى حثّ غيره ودفعهم لمشاركته في تحقيق العمل، عندها يمكننا أن نصف هذا المجتمع بسريان هذه الروح الجماعية فيه، والتي تجمع عناصره على غاية واحدة تمكّنهم حقيقة في نهاية المطاف من بلوغ ما ينشدون من رقي وحضارة، هذه الروح ببعديها الفردي والجماعي ستنشيء عزما جماعياً يزداد به النشيط نشاطاً وينتعش به الخامل فيأخذه تيار الجماعة، وينعصم به من تراوده أسباب الخمول والتراجع فلا يتأخر عن مسيرة البناء ليدخل الجميع في نفير الأمة الحضاري[٣٦٧].

---

[٣٦٥]-كاريل،**الإنسان ذلك المجهول**،ص١٨٥

[٣٦٦]-ينظر:النجار،**عوامل التحضر**،ص٢٢٥

[٣٦٧]-ينظر:المصدر السابق،ص٢٢٢-٢٢٦

إنها صيحة النملة وهي تدوي بين جنبات واديها: "حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوۡاْ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمۡلِ قَالَتۡ نَمۡلَةٞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمۡلُ ٱدۡخُلُواْ مَسَٰكِنَكُمۡ لَا يَحۡطِمَنَّكُمۡ سُلَيۡمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ١٨"{النمل} لقد انبرت هذه النملة لحراسة شعبها وأجهدت نفسها بمراقبة المكان لتُبصر عن بُعْد الخطر المحدّق بهم، فيكون ثمّة فائدة من التحذير بتوفّر الزمن المناسب لأخذ الاحتياط اللازم ساعة وقوع الخطر، وهي في مهمتها تلك تقلّدت كل أوسمة الكمال، من حق يكتنف كلامها، ودقة في حُكْمها، وفهم لطبيعة تكوينها وبني جنسها، فسليمان وجنوده سيحطمونكم، ولكن ليس ظلماً، بل لأنهم لا يشعرون، وهي تدرك حقيقة تكوينها، فالحطم هو ما يفنيها، فنادت محذرة منه وليس ما سوى ذلك[٣٦٨]، لقد تأصلت الروح المسؤولة في ذات هذا الكائن الصغير فتَحرّك وفقا له ليحفظ أمته، وليثبت أن الارتقاء الحضاري لا يتم عبر زيادة معدلات التواجد البشري بقدر ما يعني توجيه هذا الإنسان لاستثمار أعلى درجات فعاليته وإنتاجه في دفعه لأمته نحو الأمام[٣٦٩].

ويتتابع توارد مشاهد تقف الأمم أمامها صاغرة في عظمتها وروعة إنجازها، فمن نملة إلى هدهد، إلى عفريت من الجن، إلى من عنده علم من الكتاب، كلهم أفذاذ حريصون على إثبات عضويتهم الفاعلة في المجتمع الذي إليه ينتمون، وما أبرزتهم الآيات إلا لاشتمالهم على صفات تؤهلهم لأن يكونوا بفعالهم في مصاف القادة-أو بمعنى آخر-ينبغي على كل مبدع أن يتخلق بخلقهم ويتحلى بشمائلهم.

لقد رأى الهدهدُ الباطلَ منتصباً فعرَّض نفسه للموت لأجل أن يزيل نُصُبه ويعلوَ الحق بدلاً عنه، فهو يعلم تماماً أنه فردٌ في جماعة لها من الإجراءات التي تضبط من خلالها تصرفات الأفراد في إطارها بما يحفظ فيها قيمها[٣٧٠]، أما العقل المسلم اليوم فقد تَلبَّسه ركوده وخموده فغاب عن مجريات الأحداث في المجتمعات من حوله، ليخرج

---

[٣٦٨] -ينظر:الشعراوي،ص٥٢٠،وينظر:الطنطاوي،محمد سيد،**التفسير الوسيط للقرآن الكريم**،ج١٠،ص٣١٥

[٣٦٩] -ينظر:سفر،محمود بن محمد،**الحضارة تحد**،ص٦٦-٦٧

[٣٧٠] -ينظر:الترابي،**الإيمان بالله**،ص٧٤،وينظر:أبو حيان،ج٨،ص٢٢٨

بذلك من دائرة التحدي مكتفياً بالمشاهدة، مسقطاً عن نفسه واجب التكليف الذي فرضه الله عليه لعمارة الأرض.

لقد غدا تعايش المسلمين اليوم مع واقعهم بشيء من اللامبالاة-إلى جانب الأنانية الفردية-قانعين بأدنى قدر من المشاركة في إنتاجية المجتمع[٣٧١]، بينما نجد عفريتاً من الجن في مملكة العدل ومجتمع الإنتاج لا يصبر أن يسبقه أحد في تحقيق المطلوب[٣٧٢] رفعة لأمته، ونشراً لفكرته، وامتداداً لغايته، ونصرة لدعوته، لتقع المهمة على صاحب العلم فلا مُمَيَّز عليه أيّاً كان، وعندما تتواكب جزيئات الكسب الفردي لتنخرط ضمن الهدف العام تبرز أعظم حضارة-تماماً كحضارة سليمان عليه السلام-حيث يتمتع كل فرد بروح الوفاق التي تسعد بها نفسه، ويسلم من شقاء الشقاق، وتزكو معنى عضويته في المجتمع، ويأبى أن ينساق وراء دعوات الغرب والشرق، فأما أولها فتؤله الفرد وتعبد البطولة، وأما ثانيها فتقدس دور الجمهور مهدرة كل قيمة للفرد، ليأتي منهج السماء بالاعتدال المتوازن الذي يحفظ لكل دوره ووزنه وأهميته[٣٧٣]، موّفراً السعادة التي عجزت عنها أنظمة البشر ومناهجهم ورؤاهم[٣٧٤] كمثل مبدأ المساواة والديموقراطية التي قاموا ينادون بها، لتكرّس مزيداً من احتقار الفردية وإهمال تمايز الشخصية التي يتسم بها كل فرد على حدة، فما عاد هناك ثمة مجال للمواهب كي تنمو، وللنوابغ أن تتواجد، وزاد الطين بلة حين سعوا إلى التعامل مع الفرد كأنه آلة مهملين كل معنى للذوق والجمال[٣٧٥]، بل إنهم حتى عند حديثهم عن الفردية ينظرون إليها من زاوية تزيد من المسافات بين أبناء المجتمع الواحد، ليغدو هناك المتقدم المثابر، والمتأخر الخامل، بما يقف عائقاً دون اندفاع المجتمع بأكمله نحو النهوض، كمثل دعوة أينشتاين بقوله: "إن جميع الخبرات المادية والعقلية والأخلاقية كان مصدرها الأفراد الخلاقون"[٣٧٦] ومن سواهم فهم هباء منثور، ليس له أصل أو قيمة أو حتى شعور.

---

[٣٧١] -ينظر:سفر،**دراسة في البناء الحضاري**،ص٤٩

[٣٧٢] -ينظر:المراغي،،أحمد مصطفى،**تفسير المراغي**،ج١٩،ص١٤١،مصر:مطبعة مصطفى البابي الحلبي

[٣٧٣] -ينظر:السامرائي،**نحن والحضارة**،ج١،ص١٣٥،وينظر:النجار،**فقه التحضر**،ص١١٥

[٣٧٤] -ينظر:الأميري،**الإسلام وأزمة الحضارة**،ص٥٠

[٣٧٥] -ينظر:النجار،**عوامل التحضر**،ص٢٢٤-٢٢٥،وينظر:كاريل،**الإنسان ذلك المجهول**،ص٢٠٩

[٣٧٦] -السامرائي،**نحن والحضارة والشهود**،ج١،ص١٣٦

لقد ركزت الآيات السابقات الضوء على هذه العناصر المميزة في المجتمع-رغم ضعفها-مرتفعة بها إلى سقف الاقتداء لتكون محل التأسي، فيرتفع المجتمع بالسير حذوها، وتتقدم الخطوات باقتفاء أثرها.

المشهد الثالث:الرجل المؤمن في سورة "يس"

يدفع القرآن الكريم بمنهجيته التربوية، الطليعة المؤمنة المبدعة إلى الانخراط بالجماهير للارتقاء معها وبها إلى حيث القمة التي يرسمون، وإلا فإنهم سيجدون أنفسهم وحدهم ولن يتمكنوا مطلقا من تحقيق ما يرجون، فلا بد من التقاء القيادة بالجماهير، والقلة المبدعة بالكثرة المتبعة، وهذا ما بدت مظاهره في كثير من الآيات بتصوير حال النبي القائد وهو يكابد ويكافح لأجل استجلاب هذا الجمهور المتبع، صانعاً منه الكثرة المبدعة المرتقية البناءة، بحيث تتضافر جهود الفرد مع جهود الجماعة، ويتداعم في الأمة سعي الرعاة والرعية، بشكل تحقق فيه ذاتها الحضارية[٣٧٧]، إلا أن الطريق محفوف بالأشواك، بل بالمصاعب العظام التي لا يصبر عليها إلا العظام، والوصول إلى تلكم النتيجة دونها خرط القتاد، لأن سياسة الجمهور وتحويل مسلكه ليس بالأمر الهين أو اليسير، لذلك جاءت البشارة على لسان الحبيب المصطفى-صلى الله عليه وسلم-**"لأن يُهدى بك رجل واحد خير لك من حمر النعم"**[٣٧٨].

وهذا مشهد من مشاهد الفاعلية المؤمنة المنطلقة بحركتها، محاولة تحريك من حولها، دافعة بهم إلى الإنجاز والفعل المثمر، مقدمة روحها قربانا في سبيل فكرتها، يقول تعالى:" وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُواْ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾ ٱتَّبِعُواْ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا لِىَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٢﴾ ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدْنِ

---

[٣٧٧] -ينظر:خليل،**التفسير الإسلامي للتاريخ**،ص١٦٤-١٦٥،وينظر:الأميري،**الإسلام وأزمة الحضارة**،ص١٧

[٣٧٨] -أخرجه **البخاري**،ج٤،ص٥٨،رقم(٢٩٤٢).

ٱلرَّحۡمَٰنُ بِضُرّٖ لَّا تُغۡنِ عَنِّي شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَا يُنقِذُونِ ﴿٢٣﴾ إِنِّيٓ إِذٗا لَّفِي ضَلَٰلٖ

مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ إِنِّيٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمۡ فَٱسۡمَعُونِ ﴿٢٥﴾ قِيلَ ٱدۡخُلِ ٱلۡجَنَّةَۖ قَالَ يَٰلَيۡتَ

قَوۡمِي يَعۡلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ ﴿٢٧﴾**"{ يس}**

لقد رفع القرآن الكريم من شأن هذا الرجل حتى جاء النظم بتنكيره وتنوينه إشارة إلى تعظيمه وتفخيم شأنه ورفعة مقامه عند ربه سبحانه[٣٧٩]، وما ذاك إلا لما تحرّك في أعماقه من مشاعر دفعته إلى التيقن من عجزه مع أفراد قلائل عن النهوض بالمهام الملقاة على عاتقهم، فانطلق إلى ذاك المجموع يستحثهم لمناصرته، يبث فيهم وحدة الهدف الذي يجمعه معهم[٣٨٠] **"وما لي لا أعبد الذي فطرني وإليه ترجعون"**يقدّم لهم الفكرة مُدْمجاً نفسه معهم، فهو لا يريد لهم إلا ما يريده لنفسه[٣٨١]، لقد ترك دنياه وأقبل من مكانه رغم بعده، وحثَّ السير بصفاء نفس وسلامة قلب وعلو همة ومضاء عزيمة، كي يعلن كلمة الحق[٣٨٢] ويعرض بضاعة السموّ، رافضاً السلبية والانعزال، مُقْدِماً على التضحية لشدة استشعاره بالاتحاد مع جماعته، لدرجة لم يبال فيها بالشقاء الذي سيحيق به لينعم مَن بَعْده، ولا بالموت ليَعزّ من خَلفه، فالله المقسط الحسيب لا يغفل عن وجه من وجوه التقدير، ولا يقيس العمل بالمقاييس الظاهرية، وإنما ينسب ذلك إلى قدرة المرء وإمكاناته، ودرجة المعاسرة والمياسرة في الظروف المحيطة به[٣٨٣]، **"قيل ادخل الجنة"** لتكتمل مهمته التي سرت في شرايينه مسرى الدماء، **"قال يا ليت قومي يعلون بما غفر لي ربي وجعلني من المكرمين"** لقد تمنى الخير لقتلته، ونصح قومه حياً وميتاً[٣٨٤].

إن معنى التضحية جزء أصيل من مهمة البناء الحضاري،لأن تشييد البنيان لن يقوم وفق ظروف متاحة،ومناخات فكرية ونفسية واجتماعية وسياسية مناسبة، وإنما

---

[٣٧٩] -ينظر:الحقي،ج١١،ص٣٣٦،وينظر:الألوسي،ج٢٢،ص٢٢٥.

[٣٨٠] -ينظر:النجار،**عوامل التحضر**،ص٢٢٣.

[٣٨١] -ينظر:الزمخشري،ج٤،ص١٣،وينظر:النسفي،ج٤،ص٧.

[٣٨٢] -ينظر:الألوسي،ج٢٢،ص٢٢٦،وينظر:الطنطاوي،ج١٢،ص٢٣.

[٣٨٣] -ينظر:الترابي،**الإيمان بالله**،ص٨٦-٩٠.

[٣٨٤] -ينظر:الزمخشري،ج٤،ص١١،ابن كثير،ج٦،ص٥٧٢.

سيكون على النقيض من ذلك كله، إنها مهمة تهدف إلى هدم نُصُب وإسقاط رايات وتعرية زيف شعارات، كي يتلألأ من وراء ذاك الدَخَن كله، نصاعة الحق ونور المنهج، وكم يحتاج هذا إلى ثمن غال ونفيس، هذا الثمن تجاوزه الإيمان بما يحمله من معاني البذل التي يغرسها في أعماق الفرد لتقديم أسمى آيات العطاء من أجل الآخرين دون انتظار أجر، لأن أجره قد تكفل الله به سبحانه[٣٨٥] "وَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمۡوَٰتَۢاۚ بَلۡ أَحۡيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمۡ يُرۡزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ وَيَسۡتَبۡشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمۡ يَلۡحَقُواْ بِهِم مِّنۡ خَلۡفِهِمۡ أَلَّا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ "{آل عمران} "يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ تِجَٰرَةٖ تُنجِيكُم مِّنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ ﴿١٠﴾ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿١١﴾ يَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡ وَيُدۡخِلۡكُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةٗ فِي جَنَّٰتِ عَدۡنٖۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿١٢﴾{الصف}

المطلب الخامس:مفارقة لابد منها:

إن المتتبع لسيرة الأمم عبر الزمان يصل إلى حقيقة مفادها أنه لا بد للمجموعة من قائد يقودها ومرجعية تستظل برأيها، وإلا فإن نسيجها لن يقوى على مجابهة

[٣٨٥] -ينظر:الترابي،**الإيمان بالله**،ص١٩٦-١٩٧.

عواصف البقاء وأمواج الاختلافات وتضارب المصالح وطغيان الذوات، وسيؤدي ذلك بلا ريب إلى الفناء.

على أن هذا المشهد سيتراوح بين ملمحين متناقضين، ملمح يسيطر فيه الفرد على المجموع في صورة الآمر الناهي الذي لا يقبل رأياً مخالفاً أو فكراً مغايراً، لتعلن الحضارة على يديه نذير أفولها متمثلة في فرعون الذي لازال صدى صوته يحيطنا من كل حدب وصوب**"قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ (٢٩)"{غافر}**

وصورة أخرى تقف على الشاطئ الآخر، حيث تكون الروح الجماعية هي المسيطرة على الأمة بصورة تعكس مراد الفرد في قلب حاكمه، وأمنية الحاكم في قلوب أفراده، ليغدو كلاً منهما مرآة للآخر حينها تزهر الحياة أجمل وجود، وترتقي الأمة أعلى مسالك النهوض "قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾ إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ﴿٣٢﴾ قَالُوا۟ نَحْنُ أُو۟لُوا۟ قُوَّةٍ وَأُو۟لُوا۟ بَأْسٍ شَدِيدٍ وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ

أَذِلَّةً وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٣٤﴾ وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ ﴿٣٥﴾ **{النمل}**♦

أما على الصعيد الأول حين تلتبس الذات بالقيم وتنشأ تبعاً لذلك الكهانات المحورية التي تحول دون أي حراك للنهوض[٣٨٦] مما يستدعي ظهور الفئة أو المنهج أو التيار الذي يفرض على الأفراد ما ينزع عنهم حقوقهم، ويحرمهم من إنسانيتهم، أو يطالبهم بالتضحية التي قد تصل إلى درجة إزهاق الروح بحجة المصلحة العامة، والتي لا تحمل في حقيقتها إلا تحقيقاً لرغبات شخصية وأهواء دنيوية تحمل الفرد معها أن يشح بالتجاوب الصادق، مما يقود إلى فوز المتمكنين بالنصيب الأوفى من خيرات هذا المجتمع اختصاماً من حق المستضعفين، ليتكرّس بذلك التخلُّف، ويتفاقم ضغط المشكلات[٣٨٧]، حيث يغدو الفرد وحدة في القطيع، يتخلى عن فرديته، ويمضي بلا شعور بأدنى مسؤولية أو كبرياء لديه، فاحتقار فرديته يؤدي إلى اختفائها[٣٨٨]، ليسيطر قانون الغاب**"ما أريكم إلا ما أرى"**إنه سبيل الرشاد والصلاح برأي السلطة والقوة، والتي لا تقبل غيره صواباً، بكل ما تحمل(ما-إلا)من معاني الحصر والتأكيد[٣٨٩]، على أن سنة الله في المجتمعات أبرزت لنا حقيقة لا تكاد تخفى على ناظر، فعندما تصل العنجهية في قلب صاحبها إلى درجة لا يرى معها إلا نفسه، يفرض عليهم وجهته، ويسيّرهم وفق إرادته، عندها يؤذن الزمان بزوال هيبته لأن الخوف الشديد من تمرد الجمهور عليه يكون قد بلغ مبلغه[٣٩٠]، إلا أنه يتجلد تجلد الآيل للزوال.

إن مصالح الأرض على كثرتها لن تتسع كي تكون الجامعة التي تحوي بين جنبيها أهل الأرض كلهم كروح واحدة، لأنها محدودة بين فئات معدودة، أما جامعة

♦سيتم طرح هذين المشهدين بتبسط أكبر في الفصل الأخير على أنهما أنموذجان سلبي وإيجابي على المناحي السياسية للأمة.

[٣٨٦]-ينظر:حسنة،الوراثة الحضارية،ص٨.

[٣٨٧]-ينظر:الترابي،**الإيمان بالله**،ص١٩٦-١٩٧.

[٣٨٨]-ينظر:كاريل،**الإنسان ذلك المجهول**،ص٢٠٨.

[٣٨٩]-ينظر:أبو حيان،ج٩،ص٢٥٤

[٣٩٠]-ينظر:الزمخشري،ج٤،ص١٦٤،وينظر:ابن عطية،ج٦،ص٣

الإيمان فإنها الأقدر على أن تكون الجامع والدافع والمحرك للأمة الإنسانية جمعاء في تجاوب يدفع الفرد والجماعة معاً لتحقيق المقاصد العامة تحت مظلة الحب المتبادل دون تسلط فرد أو قوة ، لينطلق الجميع بحرية لن ينعموا بطعمها إلا في ظل شريعة الله وعبادته، حيث لا سلطة إلا لله[٣٩١].

وأما على الصعيد الآخر، فيتجلى لنا أنموذج الفرد الذي يرقى في ظل جماعته، وترتقي هي به رغم احتفاظه بسماته، فها هي ملكة سبأ "تأبى أن تخاطر بالاستبداد بمصالح قومها، أو تعريض ملكها لمهاوي وأخطاء المستبدين[٣٩٢]"، ليأتي ذكرها في كتاب الله فيكون مثلاً يحتذى فيما يجب أن يكون عليه الفرد الحاكم مع الأفراد والأتباع، فلا يُقبل منه استبداد بالرأي بل يجب عليه أن يتخذ له من أهل الرأي والبصيرة مَن يحرص على مشاورتهم، ولا يقطع أمراً دون الرجوع إليهم[٣٩٣].

لقد أثبتت الملكة في موقعها دلائل حسن سياستها ورجاحة عقلها[٣٩٤]، وأثبت قومها تميزهم، وثقتهم بقدراتهم وعمق فهمهم لمعنى الانتماء للجماعة بإعطائها كل ثمين لأجل الحفاظ عليها والخضوع في الوقت نفسه لقانونها حرصاً على ترابطها، "بحيث ظهر ميلهم جلياً للدفاع عن مملكتهم بالقوة[٣٩٥]"، مظهرين بذلك إمكاناتهم الذاتية، ولكنه الانتماء الصادق الذي دفعهم إلى القول: **"والأمر إليك فانظري ماذا تأمرين"** متمثلين كمال الطاعة والانقياد[٣٩٦]، أين هذا الفهم لمعنى الفردية في ظل معنى الجماعة ضمن منظومة المجتمع العصري، الذي عامل الناس كخلاصات على أساس قواعد مرسومة دون أدنى اعتبار لتمايز شخصياتهم، وتدفق عطاءاتهم، ليكون بالإمكان سوقهم كقطعان كبيرة أشبه بقطعان الأغنام[٣٩٧]، مما أدى إلى ضياع هذا الإنسان الحديث في الجمهور على نحو ليس له نظير، يتأثر ويخضع للآراء التي تلقي بها الجماعة دون أن يُعدّ ذلك

---

[٣٩١] -ينظر:الترابي،**الإيمان بالله**،ص١٩٤-١٩٥

[٣٩٢] -ابن عاشور،ج١٩،ص٢٥٨

[٣٩٣] -ينظر:الحقي،ج٦،ص٢٥٠،وينظر:القشيري،عبد الكريم بن هوازن،**لطائف الإشارات**،ج٥،ص٤٨١،(تحقيق:إبراهيم البسيوني)، مصر:الهيئة المصرية العامة، وينظر:ابن عاشور،ج١٩،ص٢٥٨

[٣٩٤] -ينظر:الطنطاوي،**الوسيط**،ج١٠،ص٣٢٢.

[٣٩٥] -ابن عاشور،ج١٩،ص٢٥٩.

[٣٩٦] -ينظر:الرازي،ج٢٤،ص١٦٧.

[٣٩٧] -ينظر:كاريل،**الإنسان ذلك المجهول**،ص٢٠٧.

ضعفاً، فيتنازل عن أبسط حقوقه في تحقيق ذاته وإبداع أفكاره[٣٩٨]، مما يبشِّر بنذير الأفول لهذه المجتمعات-رغم ما بلغت من شأو في ميادين التقدم والنمو العلمي والتكنولوجي-لتعود إلى عصور الهمجية والوحشية بالعمل على مزيد من الانحطاط الأخلاقي والإنساني لإنسانها، دون النظر إلى آفاقه التي ملكه الله إياها[٣٩٩].

إن من أهم الأسس التي بُني عليها المنهج القرآني في الارتقاء الحضاري، هو التأكيد على وحدة الغاية التي تربط قلوب المؤمنين، لتكون هي الدافع وفي الوقت نفسه الضابط الذي يُلجم تعدد الغايات وتشتتها في أعماق الأفراد، فيغدو السعي وراء المال أو اللهاث خلف المنصب والسلطة متأطراً متأدباً بأخلاقيات الإيمان التي تحد من تصرفاتهم وسلوكياتهم دون وقوع الصراع لأجلها[٤٠٠]، لينهض المجتمع بأكمله محققا على أرض واقعه ما أنيط به من أمانة حملها على كاهله.

---

[٣٩٨] -ينظر:اشفيتسر،**فلسفة الحضارة**،ص٣٠.

[٣٩٩] -ينظر:قطب،**الإسلام ومشكلات الحضارة**،ص١١٣.

[٤٠٠] -ينظر:النجار،**الإيمان بالله**،ص٢٠٠-٢٠٥،وينظر:الترابي،**الإيمان بالله**،ص٥١،١٣٤.

المبحث الخامس:سموّ العلم:

خلق الله سبحانه الإنسان لأجل تحقيق غاية أوردها في مَعْرض الحديث عن بَدْء الخليقة بقوله تعالى:"إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً "{البقرة٣٠}وزوّده بأدوات تمكّنه من تحقيق المَهمّة التي كُلّف بها موحياً إليه برموزها ومفاتيحها التي تؤهله-مع ما أعطيه من إمكانات-للولوج إلى عالمها، وتطويعها لأجل إنجاز مهمته على أكمل وجه وأتمه.

لقد أراد الله للإنسان أن يكون خليفة في الأرض فمنحه قدرة على الاستيعاب المعرفي للكائنات من خلال إمداده بوسائل إدراكية، ليتمكن من نقل العالم الخارجي في مواصفاته الكمية إلى عالمه الداخلي على سبيل التصور، فيصبح هذا الكائن الصغير حاملاً في ذاته لذلك العالم الكبير، كما منحه المقدرة الجسدية على التنفيذ والعمل والإبداع والإرادة الحرة لاختيار أسلوب الحياة التي يقوده إليها فكره ودوافعه النفسية والجسدية، وتلك أسس تقود ولا ريب إلى تصور دور الإنسان كقوة فاعلة، مفكرة، مريدة، منفذة، مستقلة، وليحصل له معها ضَرْبٌ من الرِّفعة والاستعلاء أكدهما قوله تعالى:**"وعلم آدم الأسماء كلها..."**[٤٠١]

والعلم-كما عرّفه الجرجاني- "هو الاعتقاد الجازم المطابق للواقع"[٤٠٢]، وزاد الراغب بأنه "إدراك للشيء بحقيقته"[٤٠٣]، أما التعليم فهو فعلٌ يترتب عليه العلم غالباً بلا تخلف عنه، ولا يحصل ذلك بمجرد إضافة المعلم، بل يتوقف على استعداد المتعلم[٤٠٤]، فقد روي عن علي بن أبي طالب-رضي الله عنه-أنه قال:"القلوب أوعية فخيرها أوعاها[٤٠٥]".

---

[٤٠١]-ينظر:النجار،عبد المجيد(٢٠٠٥):**خلافة الإنسان بين الوحي والعقل**،ط٣،ص٥٧،الدار العربية للعلوم، وينظر:خليل،عمادالدين(١٤٠٣):**حول إعادة تشكيل العقل المسلم**،ص١٠٢،،قطر:رئاسة المحاكم الشرعية والشؤون الدينية،وينظر:التفسير الإسلامي للتاريخ،ص١٩١-١٩٢

[٤٠٢]-الجرجاني،**التعريفات**،ص١٩٩

[٤٠٣]-الأصفهاني،**المفردات**،ص٣٤٧

[٤٠٤]-ينظر:البيضاوي،عمر بن محمد(ت٦٨٥)،**أنوار التنزيل وأسرار التأويل**،ج١،ص٢٨٤،دار الفكر،وينظر:أبو السعود،ج٦،ص٨٤.

[٤٠٥]-علي بن أبي طالب(١٨٨٥):**نهج البلاغة**،جمعه من كلامه:السيد المرتضى،ص١٠٦،بيروت:المطبعة الأدبية.

وقد خلق الله الإنسان عالِماً مزوّداً بالقدرات التي تمكّنه من القيام بواجب الاستخلاف وعمارة الأرض، فبدايات المعرفة الإنسانية إنما هي ذلكم العلم الوهبي لآدم عليه السلام، لتمضي البشرية من بعد مؤسسة على هذه الأصول العلمية-اعتماداً على ما وهبها الله من قدرات-مكتَسبات معرفية جديدة عن طريق النظر في هذا الكون واستقراء سنن الله فيه[٤٠٦].

إن الكلمة الأولى نزولاً من كتاب الله-اقرأ-حملت معها حركة التحول المعرفي،لتتتابع بعدها نداءات القرآن المنبثقة من فعل القراءة والتفكير والتعقل والتدبر منبثة في نسيج كتاب الله[٤٠٧]،موجهةً العقل المسلم إلى ما يجب أن يكون عليه، واضعةً بذلك غايته نصب عينيه، ليغدو المسلم-كما أراد له مولاه-نسيجاً وحده، عقلاً وروحاً وجسداً ووجداناً[٤٠٨]، فالذي يملك ناصية العلم يملك معها ناصية العالَم،ومن ملك العلم ملك القوة.

لقد وضع القرآن العقل البشري في المناخ العلمي، ووفر له الشروط والظروف المطلوبة لتحقيق ذلك، وسعى إلى تكوين بيئة عمل وإنجاز تتضمن الشروط والمواصفات التي تمكنه من العطاء، حيث رسم سياسة العلم والتقنية، وضبط المسيرة العلمية بقِيَمه الهادية، وحدّد هدف العلم وبيّن حكمته، ولفت نظر الإنسان إلى عِلَل الأشياء وأسبابها، والربط بين ظواهرها وبواطنها، باعثاً بذلك أمةً من الناس لا يزال عقلها يعمل ويكدّ ما استجابت لخطاب ربها[٤٠٩]، وعلى الرغم من ارتقاء فكرة كون الإسلام دين العلم والمعرفة إلى رتبة الحقائق المؤيدة بالأدلة والبراهين التاريخية، إلا أن أعداءه استطاعوا استيراد المعارك التي دارت بين العلماء ورجال الكنيسة في العصور الوسطى إلى المناخ الإسلامي في محاولة للحصول على انتصارات موهومة دون وعي بالإنجازات العلمية للأمة الإسلامية.

---

[٤٠٦] -ينظر:النجار،زغلول راغب(١٤٠٣):**قضية التخلف العلمي والتقني في العالم الإسلامي المعاصر**،ص٣١-٣٢،قطر:رئاسة المحاكم الشرعية والشؤون الدينية.

[٤٠٧] -ينظر:خليل،عماد الدين،**إعادة تشكيل العقل المسلم**،ص٤٢-٤٣.

[٤٠٨] -ينظر:المصدر السابق،ص٢٥.

[٤٠٩] -ينظر:النجار،زغلول،**قضية التخلف العلمي**،ص١٥،وينظر:خليل،عماد الدين،**إعادة تشكيل العقل المسلم**،ص٤٧.

وسنعرض من خلال هذا المبحث إلى تأصيل لقضية العلم المؤطر كما طرحها القرآن من حيث إن مردّه الأول إلى الله سبحانه، وأنه وحده من أعطى ووهب وحدّد الهدف والحكمة من وراء عطائه، وما شرود الإنسان في العصر الحديث إلا نتيجة لغياب حقيقة الكينونة الإلهية في ذاته، وجريه وراء منجزاته غافلا عمّن مكّنه منها وهيّأ له أسبابها، وأن هذا الشرود وتلكم الغفلة هي طبيعة هذا المخلوق حين يغيب الله عن عقله وروحه، "لأن الاقتصار على مدارك العقل بعيداً عن الهَدْي المقصدي المتمثل في الوحي يجعل من الإنسان خادماً للحضارة، فيبرز دور الإنسان المكلف أمام تضاؤل دور الإنسان المكرّم"[٤١٠].

ولا بدَّ لي أن أنوّه هنا إلى أني لن أسلك في هذا المبحث مسلكي في المباحث السابقة، بوضع قصة بعينها باحثةً بين ثناياها عن معان تصب في الهدف وتؤصل للغاية، ولكنه سيكون إشارات ولفتات نقتبسها من هنا وهناك، نستلهم منها ما يعيننا على تَلَمُّس الحقيقة وتجليتها.

المطلب الأول:الأنبياء علماء وبناة حضارة

يقول تعالى:"لَقَدۡ كَانَ فِي قَصَصِهِمۡ عِبۡرَةٞ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِۗ مَا كَانَ حَدِيثٗا يُفۡتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصۡدِيقَ ٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَتَفۡصِيلَ كُلِّ شَيۡءٖ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴿١١١﴾ "{يوسف}

جعل الله سبحانه للبشرية على مرّ تاريخها نماذج وأعلاماً ليكونوا المنارة وشارة الهداية للأجيال إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، وعلى رأس هؤلاء جميعاً أنبياء الله

---

[٤١٠] -الفاضل،ابن عاشور،**روح الحضارة**،ص٣.

ورسله، أصفياؤه من خلقه، حيث تَرسم لنا الآيات ملامح شخصيتهم ومدارج خطوهم، كي نقتفي أثرها، وعلى رأس هذه الملامح والصفات جميعاً ما حباهم الله به سبحانه من علم وحكمة، إذ يقول سبحانه في حق إبراهيم عليه السلام:" وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَـٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَـٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾ {الأنعام}

وأما عن يوسف: "وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَـٰقَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦﴾{يوسف}

وكذا في شأن النبيين الملكين(داود وسليمان)" **وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا"** فقد آتاهما الله سبحانه علماً سنياً غزيراً[٤١١] فكان مقابل ذلك منهما"وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥﴾{النمل} وهذا حال أهل العلم الربانيين، يدركون أن ماحباهم الله به من نعمة العلم هي من أجلّ النعم وأعظمها، فبالرغم مما أُعطياه من الملك إلا أن شكرهما عليه لم يكن كشكرهما على العلم[٤١٢]، إضافة إلى أنها النعمة الوحيدة التي لا توَّرث ولا يمكن لها أن تُحصَّل إلا بالاكتساب[٤١٣].

---

[٤١١] -ينظر:الرازي،ج٢٤،ص٥٤٦.

[٤١٢] -ينظر:الكشاف،ج٣،ص٣٥٧،وينظر:الرازي،ج٢٤،ص٥٤٧،وينظر:ابن عجيبة،البحر المديد،ج٥،ص٣١١.

[٤١٣] -ينظر:الرازي،ج٢١،ص٥١٠.

وقد نُكّر العلم تنكيراً يلفت إلى تعظيمه وتنويعه، وإن جاءت الآيات تكشف لنا عن بعض جوانبه مما اختصَّ به كلٌّ واحد منهما-عليهما السلام-كصنعة الدروع ومنطق الطير[٤١٤].

هكذا أريد للعقل المسلم أن يظلَّ متوهجاً منذ لحظة الوعي الأولى[٤١٥]، ليتمكّن من تحقيق الشهادة والقيادة، حيث إن الشهادة تتطلب معرفة-فلا شهادة من غير معرفة-وإذا شك الشاهد في شهادته سقطت فكيف إذا لم يكن له علمٌ ولا معرفة[٤١٦]، وكذا شأن أمة القرآن وما ينبغي أن تكون عليه إن أرادت أن تحقق شهادتها على الناس.

إن القرآن يدعو إلى حضارة تنمو وتزدهر على كل المستويات الروحية والأخلاقية والطبيعية، ولكن بشرط أن تضبطه القيم والمعايير الدينية الآتية من عند الله[٤١٧]، إذ إنه لابد للسائر بغية إعمار الأرض من ربط علمه المادي بالقيم المعنوية، كأمثال الحرية والتكريم والتسامح والأخوة والمساواة، "ليحوّل علمه إلى عمل حتى لا يكون كشجرة بلا ثمر[٤١٨]".

المشهدالأول: إبراهيم عليه السلام:

وصف الله سبحانه إبراهيم عليه السلام بأنه أمة وحده، فقد قامت حياته على العلم لتمتلئ سيرته بآداب طالبه، وذكاء حامله، وتجرد الداعي إليه والعامل به، فيكون بكليته دستور علم للأجيال من بعده.

---

[٤١٤] -ينظر:ابن عجيبة،**البحر المديد**،ج٥،ص٣١١.

[٤١٥] -ينظر،خليل،عماد الدين،**إعادة تشكيل العقل المسلم**،ص٢٧-٢٨.

[٤١٦] -ينظر،السامرائي،**نحن والحضارة والشهود**،ج٢،ص٨٦.

[٤١٧] -ينظر،خليل،عماد الدين،**إعادة تشكيل العقل المسلم**،ص١٢٣

[٤١٨] -الخطيب البغدادي،أحمد بن علي بن ثابت(١٣٩٧):**اقتضاء العلم العمل**،ط٤،ص٣٧،ت:ناصر الدين الألباني،بيروت:المكتب الإسلامي

أ- يقول سبحانه على لسان خليله:"يَـٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدۡ جَآءَنِي مِنَ ٱلۡعِلۡمِ مَا لَمۡ يَأۡتِكَ فَٱتَّبِعۡنِيٓ أَهۡدِكَ صِرَٰطٗا سَوِيّٗا ﴿٤٣﴾ يَـٰٓأَبَتِ لَا تَعۡبُدِ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ كَانَ لِلرَّحۡمَٰنِ عَصِيّٗا ﴿٤٤﴾ {مريم}

يُقرُّ المولى سبحانه حقيقة على لسان خليله بعد إثباتها، وهي أحقية العالم بالاتباع، باعتبارها فكرة مركوزة في غريزة العقول، لأن البشر لا يفترون عن تقصّي مظانّ العلم والمعرفة لجلب ما ينفع ودفع ما يضر[٤١٩]، وهنا تُجلّي الآيات صفات طالب العلم الذي يبدو قوياً بقناعاته وحقّه، متواضعاً بأسلوبه وأدائه، فهو-عليه الصلاة والسلام- "لم يصف أباه بالجهل المفرط-وإن كان في أقصاه-ولا نفسه بالعلم الفائق-وإن كان كذلك- بل أبرز نفسه في صورة رفيق له، أعرفَ بمسالك الطريق ودروبه[٤٢٠]"، باسطاً بين يديْ مُحدّثه بضاعته **"إني قد جاءني من العلم ما لم يأتك"** فأمر العلوم والمعارف لا ينتهي وإنما هو قائمٌ متجددٌ ما بقيت الحياة[٤٢١]، وما أعْرِضُه بين يديك بعضٌ مما لا علم لك به،امتنّ الله به عليّ[٤٢٢].

إنها سمات العالم الذي يحرص على باطنه كما هو ساع في جوارحه، ليغدو كله لله مستحقاً لقب الخليفة الذي أراده الله له.

لقد أقبل إبراهيم على أمر الله وهدي الله، مستعداً لتلقي العلم بكافة أشكاله **"بقلب سليم"** من كافة رواسب الأرض وعوالقها، فلم تأخذه فتنة مال ولا بنين، ولا هوت به آفة كفر أو شرك، ولا أحاطته غشاوات حقد أوغش أو حسد، وإنما جاء بقلب سليم من ذلك كله، مجللاً فؤاده بالإخلاص وحب الله ليستحق وعد الله **"واتقوا الله ويعلمكم**

---

[٤١٩] -ينظر:ابن عاشور،ج١٦،ص٤٦

[٤٢٠] -أبو السعود،ج٥،ص٢٦٧.

[٤٢١] -ينظر:أبو حيان،ج٦،ص١٤٣.

[٤٢٢] -ينظر:البغوي،الحسين بن مسعود(ت٥١٠)،**معالم التنزيل**،ط٤،ج٥،ص٢٣٤،دار طيبة،١٩٩٧،وينظر:ابن كثير،ج٥،ص٢٣٤،أبو حيان،ج٦،ص١٤٣.

الله"{البقرة٢٨٢}[٤٢٣]، فعِلم البشر مجرداً لا يجدي وحده لأنه محدود الوسائل لا يحيط بأبعاد الواقع في الدنيا، ولا يستبين وجوه المصالح بيقين قاطع، ولا يهتدي إلى أفضل السبل لتحقيق المقاصد، ولأنه-بالغاً ما بلغ من علم الشهادة-تحيط به أستار الغيب، لذلك ما كان للإنسان أبداً أن يستغني عن علم ربه[٤٢٤]، فأصل منطلق العلوم كلها هو رسوخ هذه الفكرة في عقل المرء وقلبه ليتمكن من استكشاف الحياة وغوامضها دون أن تجرفه بتيارها، انبهاراً بعظمتها، أو تمرداً من نفسه بخضوعها لها-أي الطبيعة-حتى يغدو عبداً لكل شئ إلا الله الذي خلقه.

لأجل ذلك يتابع إبراهيم الخليل-عليه الصلاة والسلام-وضع الضوابط ورفع المعالم وكشف الظُلم للسائر عبر التاريخ"ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهۡدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِى هُوَ يُطۡعِمُنِى وَيَسۡقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضۡتُ فَهُوَ يَشۡفِينِ ﴿٨٠﴾ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحۡيِينِ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِىٓ أَطۡمَعُ أَن يَغۡفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوۡمَ ٱلدِّينِ ﴿٨٢﴾ رَبِّ هَبۡ لِى حُكۡمًا وَأَلۡحِقۡنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٣﴾ {الشعراء}

وهذا شأن القرآن في نسيج آياته كلها، نجدها وهي تمنح عقل المسلم رؤية تركيبية للكون والحياة والإنسان والوجود تربط بين الأسباب والمسببات، تسعى إلى وضع يدها على الخيط الذي يربط بين الظواهر والأشياء، تملكه القدرة على الرؤية الاستشرافية للظواهر بحثاً عن العلائق والارتباطات وصولاً إلى الحقيقة المرتجاة كي يصل إلى وحدانية الخالق[٤٢٥]، فالغاية من أي شيء توجد قبل الشيء نفسه، ليوجد الشيء على مقتضى الغاية منه، فما خلقني إلا ليهدين، هو ذا قانون الصيانة الذي يحفظ به الله

---

[٤٢٣] -ينظر:الكشاف،ج٣،ص٣٢١،وينظر،الخازن،ج٣،ص٣٢٧.

[٤٢٤] -ينظر:الترابي،**الإيمان بالله**،ص٣٦.

[٤٢٥] -خليل،عماد الدين،**إعادة تشكيل العقل المسلم**،ص٤٨.

للإنسان حياته ويضمن له سلامته، ولأن الكثيرين قاموا يدّعون وضع قوانين صيانة لهذا المخلوق يهدونه بها آمن السبل وأفضلها، جيء بضمير الفصل(**هو**)تأكيداً أن الهداية لن تكون إلا من عند خالق هذا الخليفة وموجده لا من عند أحد غيره أنّى كان، ولأنّ أحداً لم يدّع الخلق أو الإحياء أو الإماتة فلم يحتج نفيها إلى تأكيد ولكنه عاد ليظهر في الإطعام والسقاء والشفاء.

إن إبراهيم عليه السلام بهذا الكلام الذي يسوقه للبشرية ويثبته الله سبحانه عنه شهادة صدق أبد الدهر، ينتقل بنا من ظواهر الأسباب إلى بواطنها، لأن الناس قد تُفتن بالأسباب فتظن أن الطبيب يشفي غافلة عن كونه وسيلة للشفاء لا سببا لها[٤٢٦].

إنها منهجية القرآن في توجيهه العقل ماضياً في البحث عن خفايا الأمور من خلال ظواهرها دون أن يقف خارج حدود حسّه وسمعه وبصره، إنه منطق التوازن الحركي الذي يرفض الانحراف والسكون أو هو القاعدة التي تشكّلها آيات القرآن كي تكفل نموّاً سليماً لأية حضارة محافظة على نقطة التوازن بين تجربتي الروح والمادة دون طغيان إحداهما على الأخرى[٤٢٧].

لقد جاءت كشوفات العلم قائمة على فكرة تأليه العقل والانبهار بقدراته، فأورثت أهله خواءً روحياً، وضياعاً جعلت أحدهم يقول: "ينبغي لنا أن نعترف بأن افتقارنا الكامل الآن إلى أية نظرية في الكون هو المصدر الأخير لكل الكوارث وألوان الشقاء التي يعجُّ بها العصر الحاضر، ولهذا يجب أن نعمل معاً من أجل إيجاد نظرية في الكون والحياة، حتى نستطيع بذلك أن نصل إلى مستوى عقلي يجعلنا متمدينين فعلاً وحقاً"[٤٢٨].

إن هذه الحيرة التي أحاطت بأحابيلها أهل العلم وسادته يسجلها القرآن الكريم بكلمات موجزات فاتحاً سُبُل العلم كلها، مؤطراً لها بإطارها الضابط الآمن،"**الذي خلقني فهو يهدين**".

لقد تعالى صراخ أهل العلم الحديث مطالبين بتحرير أنفسهم من التكنولوجيا العمياء التي أورثتهم جهلاً بذواتهم، أفرزت تبعاً لها عَتَهاً عقليا وسوءاً أخلاقياً، وإجراماً

---

[٤٢٦] -ينظر:الشعراوي،ص٢٩٧٣،وص٨٥٧،وص١٣٨٦،وينظر:فضل عباس،**القصص القرآني**،ص١٣٥.

[٤٢٧] -ينظر:خليل،**إعادة تشكيل**،ص١٢٤.

[٤٢٨] -ينظر:اشفيتسر،فلسفة الحضارة،ص٨.

منفلتاً، مطالبين بثورة مادية عقلية لاستبدال الحياة العصرية كي يتمكّنوا من إحداث التغيير بإعادة صياغة الإنسان من جديد[٤٢٩].

إنها بعض الإرهاصات التي قرر إبراهيم-عليه الصلاة والسلام-حتمية وقوعها أثناء تحذيره لأبيه وهو ينبهه إلى خطورة الانزلاق في مغبة العلم الذي أوتيه، والذي جاء خالياً من حقيقة فحواه،" يَٰٓأَبَتِ لَا تَعۡبُدِ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ كَانَ لِلرَّحۡمَٰنِ عَصِيّٗا ٤٤ يَٰٓأَبَتِ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٞ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيۡطَٰنِ وَلِيّٗا ٤٥"**{مريم}** فحينما تفقد الحياة توازنها تفقد مع ذلك مصداقية سيرها وتبدو متأرجحة على حافة هاوية لا يؤمن معها من الانهيار شيء أبدا.

أما عندما ينمو العقل في دائرة الإيمان والإذعان لله سبحانه فلا يمكن حينها أن يتجاوز حدوده بطغيان على أيّ من مخلوقات الله في الأرض، أو استكبار على من هم حوله من بني البشر الذين يشاطرونه شيئاً من العلم-بغض النظر عن مقدار التفاوت في كمّه وكيفيته-في ذات الوقت الذي نراه في حال تفلُّته من كل إطار وقد غدا منطلِقاً بلا عقال يضبط سيره، حينها سيكون البلاء الذي يصيب البشرية بشرّ شظاياه، فأما الطبيعة فتصَّعَّد زفرات من شدة ويلات ما تعانيه من كُرَبِه، وأما البشر فيحيون حياة يتمنون فيها الموت كلَّ يوم ألف مرة ومرة.

إنها إيماءات يوحي بها الفارق بين جواب الوالد الجاهل، والولد العالِم العامِل، فأما الأب فلم يتمالك غروره أن نطق قائلا: **"لأرجمنك"** لأن النفس المستكبرة لا تحتمل أن ترى أعلم منها يتحرك بين يديها، وأما الابن فبرزانة العالم العامل ردَّ عنجهية الشارد قائلاً: **"سلامٌ عليك سأستغفر لك ربي".**

هو ذا العقل-وعاء العلم-الذي يدعو المنهج القرآني إلى تبنيه وتنميته، وتلكم هي الأطر التي لا يفتأ يوضح معالمها ويرسم سماتها حتى تغدو مَعْلماً واضحاً تهتدي

---

[٤٢٩] -كاريل،**الإنسان ذلك المجهول**،ص٢١٣،وص٢٤٣،وص٢٤٤.

البشرية بهديه في مسارها على أرض الله، وما أشدّها على النفس-حين تَبْعد عن مِنهج ربها-أن تتقيد بقيود تحول دونها ودون تفلُّتها وراء أهوائها وشهواتها، سواء كان هذا الهوى من عالِم في مخبره، أو ساه في ملهاه.

وهاهي الدول المتقدمة علمياً اليوم أصبحت تهدد مصير البشرية بالفناء، والحضارة الإنسانية جمعاء بالزوال، وهي وراء أغلب المشاكل التي يواجهها إنسان اليوم بسبب كفرها بالله وجحودها واستعلائها على الحق، فالإنسان حين لا يعبد الله يعبد ذاته، وعابدُ ذاته تقتله الأنانية ويفسده الغرور ولا يمكن أن يكون لبنة صالحة في هذه الحياة[٤٣٠]، لأجل ذلك أظهر اسم الشيطان بدل إضماره **"إن الشيطان كان للرحمن عصيّا"** لزيادة التنفير منه، ناهيك عن وصفه بالعصيّ مبالغةً في العصيان، ليزيده الفعل(كان)دلالة على عدم مفارقته عصيان ربه وأنه متمكن منه وقائمٌ عليه بلدد وعناد[٤٣١]، ومن لم يتبع الرحمن لا شك أنه سيكون للشيطان وليا، ذاك الذي كان للرحمن عصيا، "والمطيع للعاصي عاص[٤٣٢]" وعليه أن ينتظر ما تُوُّعّد به من عذاب، وإنما سماه إبراهيم مساساً لأنه قياساً لما أُعدّ في الآخرة لا يتجاوز ذلك الوصف.

إن كلَّ ما يحلُّ بالبشرية من بلايا، ويفتك بها من أوبئة، إنما هو مساسٌ من عذاب الرحمن ابتداءً من قلق الإنسان واضطراب أعصابه واعتلال صحته، وانتهاءً بإفساد الأرض بصورة لا يستطاع معها الإصلاح، كمثل التلوث البيئي والكيميائي والإشعاعي، مروراً بتزايد انتشار الجوع ونقص الغذاء، وتضخم تكديس الأسلحة، واستنزاف موارد الطاقة[٤٣٣]،مما غدا مهدداً رئيساً للسلام العالمي، ومفجّراً لبراكين التمرد والضياع والجريمة والشقاء، مما لا يمكن أن تستقر معه البشرية في حياة آمنة سوية[٤٣٤].

---

[٤٣٠] -ينظر:النجار،زغلول،**قضية التخلف العلمي**،ص٤٠-٤١.

[٤٣١] -ينظر:ابن عاشور،ج١٦،ص٤٧،الشعراوي،ص٢٢٧٨.

[٤٣٢] -أبو السعود،ج٥،ص٢٦٧.

[٤٣٣] -ينظر:النجار،زغلول،**قضية التخلف العلمي**،ص٢٩-٣٠.

[٤٣٤] -ينظر:الأميري،**الإسلام وأزمة الحضارة**،ص٢٧.

هذا كله مجرد مساس،"التصاقٌ خفيف"[٤٣٥]من عذاب الرحمن الفخيم العظيم والذي لا يدفعه كونه من الرحمن، لفظاعة الجرم الذي وصل إلى حدّ الحرمان مِن رَحمةِ مَنْ شأنُه سعةُ الرحمة[٤٣٦].

إن الدين ليس ثمرة مرحلية من ثمرات السذاجة العقلية التي اتصف بها إنسان العصور البدائية الأولى-كما تدّعي بعض المذاهب المادية المعاصرة-بحيث يستطيع إنسان هذا العصر المستنير أن يستأصلها من ضميره ويبعدها عن ممارسته وتحريك حياته، ولكنها التلبية الوحيدة لحاجة أساسية حقيقية من حاجات الإنسان السوي، تستمر في ملازمته خلال سائر العصور[٤٣٧].

ب-هذا الإنسان إنما خلقه الله ليكون سلطاناً في هذا الكون لغاية تطبيق المهمة التي كلفه الله بها، هذه الزعامة بما تحمله من أبعادها العلمية ودقائقها المعرفية، ليتمكن من تطويع مقدرات هذا المملوك وتسييرها وفقاً للمطلوب، ملّكها الله سبحانه لخليله إبراهيم-عليه الصلاة والسلام-"وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلۡمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيۡهِ ٱلَّيۡلُ رَءَا كَوۡكَبٗاۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّيۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلۡأٓفِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلۡقَمَرَ بَازِغٗا قَالَ هَٰذَا رَبِّيۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمۡ يَهۡدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمۡسَ بَازِغَةٗ قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَآ أَكۡبَرُۖ فَلَمَّآ

---

[٤٣٥] -الشعراوي،ص٢٢٤٩.

[٤٣٦] -ينظر:أبو السعود،ج٥،ص٢٦٧،وينظر:ابن عاشور،ج١٦،ص٤٧.

[٤٣٧] -ينظر:الأميري،**الإسلام وأزمة الحضارة**،ص٣٥.

أَفَلَتْ قَالَ يَـٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ

ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾"{الأنعام}

فقد أراد الله لعبده ونبيه-عليه الصلاة والسلام-أن يرى كل الأشياء الظاهرة والخافية، وكأن الحق ينبهنا أن العالم فيه ما يقع تحت الإحساس والإدراك، وفيه ما هو خارجٌ عن هذه الدائرة، فهناك ملك ظاهر مشاهَدٌ مرئي، وهناك ملكوت غامضٌ مخفي يحتاج إلى بحث وتمحيص* وكشف وتنقيب، فنحن نرى السماء والأرض بوضوح، ولكن العظمة والسر ليسا في السماء والأرض فقط، بل هناك أشياء دقيقة جداً بلغت من اللطف أنها لا تدرك بالنظر، وحين يتأمل العقل ما وصل إليه العلم من جراثيم ضئيلة وذرة ومكوناتها وأمثالها الكثير مما لازال محجوباً عن علم الإنسان[٤٣٨]، ليدرك أيَّ عظمة منحها له المنهج القرآني وهو يدفع به إلى مسالك الحياة ليفتح مغاليقها.

هذا هو شأن القرآن، يضع الجماعة المؤمنة في قلب العالم والطبيعة، ويدفعها إلى أن تبذل جهدها من أجل التنقيب عن السنن والنواميس في أعماق التربة، وفي صميم العلاقات المادية بين الجزيئات والذرات، إننا بإزاء حركة حضارية شاملة تربط بين مسألة الإيمان ومسألة الإبداع والكشف، بين التلقي عن الله، والتوغل قُدُماً في مسالك الطبيعة ومنحنياتها وغوامضها، بين تحقيق مستوى روحي عال للإنسان على الأرض وبين تسخير طاقات العالم لتحقيق الدرجة نفسها من التقدم على المستوى المادي[٤٣٩].

---

*أورد أبو هلال العسكري في الفروق اللغوية أن:"الملك ما يدرك بالحس،ويقال له عالم الشهادة،والملكوت مالم يدرك به وهو عالم الغيب وعالم الأمر،ولكون عالم الشهادة بالنسبة إلى عالم الغيب كالقطرة من البحر،يسمى الأول ملكاً والثاني ملكوتاً،لما يقرر أن زيادة المباني تدل على زيادة المعاني"ص٥١٢ .

١ -ينظر:الشعراوي،ص٤١٨،وص٧٨٢،وينظر:النجار،**الإيمان بالله**،ص١٨٤.

[٤٣٩] -ينظر:النجار،زغلول،**إعادة تشكيل العقل المسلم**،ص٦١.

"وليكون من الموقنين" ذلكم هو مستوى التعريف والتبصير الذي بصّره الله إبراهيم، وتلكم هي الإرادة الكاشفة والنظر الصحيح[٤٤٠] التي تُعلي من قدر الإنسان إلى منزلة التكريم التي شاءها الله له.

فبالتوحيد يتسامى الإنسان من أن تعتقل همه الطبيعة المحسوسة في الأرض والسماء، بل يتخذها دليلاً إلى عالم الغيب وسُلّماً إلى الله الواحد القهار[٤٤١].

لقد أراد الله سبحانه أن يزيد من متانة الأطر التي تضبط حركة العقل أثناء سيره في الكون باحثاً منقباً ومستكشفاً، حتى لا يقع بين دائرتي سوء، إما أن تطغى عليه ذاته فيسعى في الأرض فساداً غير آبه بأبسط قواعد المنطق السوي وبدهياته، وإما أن يتضاءل شأنه أمام نفسه فيذلَّ لغير الله، ويتخذ من عظائم ما يرى في خلق الله آلهةً يعبدها.

"لئن لم يهدني ربي لأكونن من القوم الضالين" فالناس لهم أسباب مباشرة في الحياة من ضوء يحتاجونه من الشمس، وقمر ينير لهم في الليل، وغير ذلك مما يُرى فيه السببية الظاهرة، فيعتقد أنها الفاعلة، فيتألهُها من دون الله[٤٤٢]، ويشذ العقل بذلك عن مساره الذي خلقه الله لأجله في الحياة، فلا بد لهذا العقل أن يرتقي في تسلسل الأسباب إلى أن ينتهي إلى مسبب ليس وراءه سبب، وإذا انتهت يد المخلوق وعجزت في الأسباب، تبدأ يد الخالق، فالذين يفتنون بالأسباب هم الذين ينظرون إليها على أنها الفاعلة بذاتها[٤٤٣]، والقرآن الكريم يريد أن يبني العقل المسلم على تصوّر سيادته على الطبيعة مما يورِّثه تقديراً خاصّاً لمركزه في الوجود ولموقفه تجاهها، فمهما هالته مظاهرها وقواها لم يكن له أن يذل لها أو يعبدها[٤٤٤]، لذا فإن الوقوف عند حلقات الأسباب هو وقفة عقلية سطحية[٤٤٥]، **"أولم ينظروا في ملكوت السماوات والأرض"**{الأعراف١٨٥}والقرآن لا يرضى بأقل من التفكير بما فيه من إعمال للعقل، لنصل إلى منزلة إبراهيم التي رفعه الله إليها بسعيه وبذله على نفسه، وكدّه في سبيل ارتقاء هذه المكانة **"وكذلك نري"** بكل

---

[٤٤٠] -ينظر:الكشاف،ج٢،ص٤٠،وينظر:ابن عاشور،ج٦،ص١٧٤.

[٤٤١] -ينظر:الترابي،**الإيمان بالله**،ص٥١.

[٤٤٢] -ينظر:الشعراوي،ص٨٥٦.

[٤٤٣] -ينظر:المصدر السابق نفسه.

[٤٤٤] -ينظر:الترابي،**الإيمان بالله**،ص٥٢.

[٤٤٥] -ينظر:أبو السعود،ج٣،ص١٥٢.

ما يحمله اسم الإشارة من معنى البعد، إيذاناً بعلوّ درجة المشار إليه وبُعْد منزلته في الفضل وكمال تميُّزه بذلك[٤٤٦].

هذا هو التوازن الذي يميز المنهج القرآني وهو يرسم طريق العقل أثناء سيره في رحاب الكون، حيث يقرر أن للمعرفة مصدرين: وحيٌ ووجود، ويُتَّخذ بعدها من العقل والحواس وسائل إدراك، دون أن يُغفل دور العقل بما يُمثله من مصدر للمعرفة في بعض الأحيان[٤٤٧]، وإلا فهو الضلال بكل ما يعنيه من عدول عن الطريق والمنهج والغاية المرادة[٤٤٨].

المشهدالثاني: يوسف عليه السلام:

جعل الله سبحانه من يوسف-عليه السلام-أنموذجاً لتحقيق هذا المطلب"**وكذلك يجتبيك ربك ويعلمك من تأويل الأحاديث.**"فإن علوم قومه وأفهامهم-رغم تنوعها واتساعها وضربها قُدُماً في تاريخ زمانها-إلا أنها وقفت عاجزة أمام معضلة الطبيعة، عندما أمسكت عن سنة الله فيها من إنزال ماء الحياة فأوشك الوجود بقيادتهم على الهلاك لولا أن امتنّ الله عليهم بإقامة يوسف الصديق بينهم كي ينجو بهم إلى ما يرجون وينشدون، حيث آتى الله نبيه علم تأويل الأحاديث، وذلك "بإرجاع الحوادث إلى عِلِلِها وأسبابها وإدراك حقائقها على التمام"[٤٤٩]، سواءً كان خبراً متحدثاً به أو بحثاً في خلقه سبحانه للوصول إليه، ليكون ذات التواضع الذي قابل به داود وسليمان عطاء الله لهما، تنطق به شفتا يوسف الصديق "**ذلكما مما علمني ربي**" فإن عِظم علمه والطريقة التي حصل عليه بها أثارت عجب السائلين[٤٥٠]، ولكنها لم تترك في نفس العالم الرباني كِبْراً وعُجْباً كذاك الذي أصاب الإنسان في عصرنا وهو يرى المخترعات الحديثة والكشوف العلمية وتفجيره للطاقة الذرية وبناء الصواريخ وغزو الفضاء، مما حدا به إلى الجنون الذي أصاب نيتشة حين أعلن عن موت الإله ليلد-بزعمهم-الإنسان الأعلى (السوبرمان)وتكون فتنة عمياء جعلت الإنسان يؤله عقله، فالوحي-كما يدّعون-لا يسعه

---

[٤٤٦] -ينظر:المصدر السابق نفسه.

[٤٤٧] -ينظر:النجار،زغلول،**خلافة الإنسان بين الوحي والعقل**،ص١٢.

[٤٤٨] -ينظر:الراغب،**المفردات**،ص٣٠٠.

[٤٤٩] -ابن عاشور،ج١٢،ص٢٠

[٤٥٠] -ينظر،المصدر السابق،ص٦٢

أن يحقق للإنسان خلافته على اعتبار أن مخترعاتهم وكشوفهم لم يَرد بها نص من نصوص الوحي!!![٤٥١]، فكان لزاماً أن يحق عليهم جزاء الشاردين لتمتلئ الأرض بعلمهم ظلماً وجوراً.

أما المحسنون فإن لهم في الحياة شأناً كذاك الذي أنعم الله به على يوسف الصديق**"ولما بلغ أشده آتيناه حكما وعلما"**لتظلل قوته ما حباه الله به من حُكْم وحِكمة وعلم تقود خطاه، فَعِلمه بحقائق الأشياء يقوده لوضعها في نصابها وتسخيرها كما أراد الله لها أن تكون، كي يتقلب بين جانبي العلم-عمليّه ونظريّه[٤٥٢]-ليقوده كلاهما إلى مزيد من الهداية والاطمئنان في ميادين الذات،وعلى أرض الواقع.

إن الترقي بالتقدم في الطريق إلى الله لا يتم بالتوجه إليه بالعبادة المباشرة فحسب، وإنما من خلال العلم بالحقائق والتعامل بقيم الفضيلة بين الناس[٤٥٣] **"الخلق كلهم عيال الله،وأحبهم إلى الله أنفعهم لعياله"**[٤٥٤]

المطلب الثاني:صفات طالب العلم:

لقد بلغ من اهتمام القرآن بالعلم أن رسم معالم شخصية طالبه والساعي إليه بصورة تصل إلى أعلى مراتب الدقة والتفصيل، ولنأخذ مثالاً لها ما بيّنه لنا المولى سبحانه في قصة موسى مع العبد الصالح إذ يقول عزَّ وجلّ:"قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلۡ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمۡتَ رُشۡدٗا ٦٦**{**الكهف**}**حيث يمكننا أن نتلمس إشارات القرآن في هذا الشأن من خلال حديث موسى عليه الصلاة والسلام-وهو النبي العالِم-مع العبد الصالح، الذي وجهه الله سبحانه ليتلقى على يديه نوعاً من العلم لم يعرفه بعد، لقد بدت أولى سمات طالب العلم في شخص موسى-عليه الصلاة والسلام-وهو يعرض حاجته بين يديْ معلمه(**هل أتبعك**) بمنتهى التواضع للعالِم، حيث جعل نفسه تبعاً

---

[٤٥١] -ينظر:النجار،**خلافة الإنسان بين الوحي والعقل**،ص١٧،وص٣١.

[٤٥٢] - ينظر:الرازي،ج١٨،ص٤٣٧،وينظر:ابن عاشور،ج١٢،ص٤٤.

[٤٥٣] -ينظر:النجار،**عوامل التحضر**،ص٢٤

[٤٥٤] -أخرجه البيهقي،**شعب الإيمان**،ج٩،ص٥٢١.

له، مستأذناً في إثبات هذه التبعية، مقرّاً لنفسه بالجهل ولأستاذه بالعلم، راجياً تحصيل بعض مما يعلم معلمه لا كله، إمعاناً في تواضعه حتى لا يُفهم من رجائه مطالبته بالمساواة مع أستاذه[٤٥٥].

لقد سعى موسى بجد وجهد حثيثين طلباً لعلم بدا له جهله به، فكابد لأجل الحصول عليه مشقة السير وعناء البحث وطول السفر[٤٥٦] كي يقابل المعلم الذي اشترط عليه الصمت إزاء ما يرى ويشاهد أنّى بلغت درجة العَجب والإنكار **"فإن اتبعتني فلا تسألني"** مُعلّما بذلك الأجيال أدباً إضافياً من آداب المتعلم، فلا مفاتحة بسؤال للمعلم لما خفي على طالب العلم قبل أن يُفصح له أستاذه عن سرّه[٤٥٧].

إنها مؤشرات ولفتات تدفع بوجه أولئكم الذين يربطون بين التخلف والدين معتبرين أن العقيدة من أهم عوامل النكوص والانهزام، أو أنها السد المانع دون أيّ ترقّ أو صعود، رابطين الإلحاد بالرقيّ الفكريّ والتقدم العلميّ، مصمّين الآذان عما ينادي به علماء الاجتماع من ربط كل نهضة لمجتمع أو انتكاستها بحالة الدين أو العقيدة فيها[٤٥٨]، مغمضين الأعين عن هذا النسج الفريد المنبث في آيات كتاب الله عن كل ما يتعلق بالعلم بدءاً من ماهيته وانتهاءً بصفات طالبه.

المطلب الثالث: تفعيل العلم لتحقيق الغاية:

إن أي عمل أو إبداع تبدو مظاهره جليّة في جنبات الكون لا شك وأنه منطلق من قاعدة معلومات أخرجته بصورته النهائية، وجعلت منه منجزاً حضارياً يُضاف رصيده إلى الأمة التي هيأت له أسبابه، على أن هذا المنجز لا بد أن يكون محكوماً بتخطيط مرسوم ضمن إطار موقف كلي شامل صادر عن نظام مبرمج، يهدف إلى تحقيق غاية واضحة[٤٥٩]، وعلى الرغم من اختلاف الأهداف وتباين الغايات في الكم الهائل من السباق العلمي الذي تشهده الأرض اليوم، إلا أن الغاية الحقيقية التي لأجلها أوجد الله العقل ووجهه إلى البحث والتأمل لم تتغير ولم تتبدل، إنها عبادة الله..العبادة

---

[٤٥٥] -ينظر:الرازي،ج٢١،ص٤٨٣ ،وينظر:أبو حيان،ج٦،ص١٤٠،دار الكتب العلمية.

[٤٥٦] -ينظر:الرازي،ج٢١،ص٤٧٩ ،وينظر:أبو حيان،ج٦،ص١٣٩.

[٤٥٧] -ينظر:أبو حيان،ج٦،ص١٤٠.

[٤٥٨] -ينظر:نقرة،التهامي،**سيكيولوجية القصة**،ص٢٠.

[٤٥٩] -ينظر:خليل،عماد الدين،**التفسير الإسلامي للتاريخ**،ص١٧٩.

التي لا تقف عند حد أركان الإسلام فحسب، ولكنها تتجاوزه إلى عمارة الكون كبنيان حيّ للإسلام.

أ-المشهد الأول:

هذه المعاني وعاها العبد الصالح-**ذو القرنين**-وهو يسعى بما مكّن الله له من أسباب وآتاه من قوة علم وفهم وساعد، فسخّرها جميعاً لإحقاق الحق الذي أراده له مولاه، وإزهاق الباطل في كل صوره ومنعطفاته.

"آتوني زُبر الحديد"والمتأمل في هذه الآية يلفت نظره الآلية التي تصرَّف بها ذو القرنين في بنائه والتي تُعطي مؤشراً قوياً على متانة علمه وتمكُّنه من قواعد ونظريات وأصول هذا الفن حتى أخرجه بهذه الصورة التي آل إليها.

لقد طلب منه القوم سدّاً يحميهم ويدفع عنهم ظلم الجناة، فبنى لهم ردماً عظيماً، أرادوه سدّاً ببساطة علمهم، فشيّد لهم ردماً بعمق فهمه "فالسد قد تحدث له هزة من أي جانب فينهدم كله، أما الردم إن حدثت له هزة يزدد تماسكاً[٤٦٠]" "إنه بناءٌ يتحدى طاقة العدوان[٤٦١]" هذا البناء أشبه ما يكون بما يفعله المهندسون في المعمار بالحديد والخرسانة.

لقد أمر بقطع الحديد ليضع فوقها الحطب، ثم أمر بالنفخ حتى يصبح ناراً، فإذا ما التهب الحديد نادى بالنحاس المذاب **"قال آتوني أفرغ عليه قطرا"** لينسبك الحديد الملتهب مع النحاس المذاب ويتكون حائط صلب عال أملس لا يُعتلى ولا يُخرق[٤٦٢].

ويستوقفنا أمر النفخ في هذه الزبر الكثيرة، فهي حين تغدو ناراً لا يقدر مخلوق على الاقتراب منها فهل تراها معجزة بصرف الله تأثير تلك الحرارة العظيمة عن أبدان أولئك النافخين كما قال مفسرونا[٤٦٣]؟!!!أظنه-وكما توحي به سياق الآيات مما أوتيه ذو القرنين-أنه مؤشر جديد على تمكُّنه بإقدامه على إبداع آلة تحقق له مقصده في تسهيل عملية النفخ دون أن يلحق أذىً بالنافخين.

---

[٤٦٠] -الشعراوي،ص٧٠٠

[٤٦١] -الشعراوي،ص١٢٢٦

[٤٦٢] -ينظر:الخازن،ج٣،ص١٧٨،وينظر:الشعراوي،ص٢٢٢٠

[٤٦٣] -ينظر:الرازي،ج٢١،ص٥٠٠،وينظر:الخازن،ج٣،ص١٧٨

هو ذا العلم الذي تُبنى عليه حضارة بما يحمل أهله من استعداد مزدوج، فهم متأهبون للعمل إيجابياً، في ذات الوقت الذي يتحركون فيه بأخلاقياتهم الرفيعة، ليكون النتاج أعمالا ذوات قيمة حقيقية تنبثق من المعنى الحقيقي الذي يهبونه للعالم والحياة[٤٦٤]، هذا المعنى الذي لخصّه ذو القرنين بجملة نطق بها لسانه **"هذا رحمة من ربي فإذا جاء وعد ربي جعله دكاء"** ليرتقي بالعقل البشري وهو في قمة عطائه وإنجازه موجهاً إياه أن هذه المنجزات على عظمتها ليست هدفاً نهائياً، وأن الحياة الحقيقية هي الحياة الأخرى التي تتميز بالبقاء والدوام، وأن كل ما يقدَّم في هذه الحياة إنما هو وسيلة فحسب لتهيئة الحياة الدنيا لعبادة الله وحده، وإيجاد المناخ المناسب لممارسة الاستخلاف على الأرض.

ب- المشهد الثاني:

وعلى ذات البعد وفي نفس المسار"وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ ۖ فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ ﴿٨٠﴾ **"{**الأنبياء**}** فالعلم هو نقل قضية مفيدة في الوجود من عالِم بها إلى جاهِل بها، والإنسان دائماً في حاجة إلى معرفة وتعلم لأنه خليفة الله في الأرض، ولن يؤدي هذه المهمة إلا بحركة واسعة بين الناس، هذه الحركة تحتاج إلى فهم ومعرفة وتفاعل وتبادل معارف وثقافات[٤٦٥]".

هذه الإشارات التي تعنينا من خلال زاوية العلم التي نظرنا من خلالها إلى تعليم الله لداود-عليه السلام-صناعة الدروع-والتي سبق الإسهاب في الحديث حولها*-لنخرج منها أن القضية العلمية قد تكون لها مقدمات في الكون يُعمل العقل فيها نظره، وقد تأتي بالتجربة أو الخاطر يقذفه الله في قلب الإنسان[٤٦٦] فيقلبها في مراحلها، متجاوزاً في كل مرحلة عيب سابقتها حتى يصل إلى الإتقان الذي حضَّ الله عليه نبيه **"وقدّر في السرد"** لنصل إلى التقنية التي ينشدون من العلم بدقائق الأنشطة وتفاصيل فنونها والقدرة على توظيفها، من أجل زيادة الإنتاج وتحسينه، إنه الإتقان الذي حرص الحبيب المصطفى

---

[٤٦٤] -ينظر:اشفيتسر،**فلسفة الحضارة**،ص٥

[٤٦٥] -ينظر:الشعراوي،ص٢٥٤٥.

*ينظر:ص١٠٦-١٠٧من مبحث الإعداد المادي من هذا الفصل.

[٤٦٦] -ينظر:الشعراوي،ص٢٥٤٥.

صلى الله عليه وسلم على تربيته في نفوس أمته"**إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملاً أن يتقنه**"[٤٦٧]دافعاً الأفراد إلى حسن الأداء بأعلى قدر من الاستطاعة وبأقل تكلفة ممكنة[٤٦٨].

ج-المشهد الثالث:

عبر السير في دروب القرآن التي تنير لنا سبل العلم وتقنن لنا معالمها تستوقفنا بعضٌ من المشاهد في قصة نبي الله سليمان عليه السلام.

أ-ونبدؤها بالهدهد الذي أقبل بثقة العالم المتيقن ملقياً بين يدي قائده ومليكه جملة ما لديه فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾ وبفهم القائد وعمقه يصغي للعامل عنده، يُقدّر مبادرته ويعلي من شأن إيجابيته، فاسحاً المجال للنابهين والنابغين في مملكته أن يكون لهم دوراً فاعلاً أنّى كان مقامهم وقدرهم الاجتماعي[٤٦٩]، دون أن يثنيه ذلك عن تمحيص المعلومة وتقليبها قبل ترتيب النتائج عليها، فمصير العقل في سعيه إلى اكتشاف الحقيقة محكوم في الإصابة والخطأ-إلى حد كبير-بمقدار المعطيات، فكلما كانت أوسع كانت إصابة الحقيقة أضمن[٤٧٠].

إنه الأنموذج لإعداد أمة العلم، القائد العالِم الذي يُسدل سمعه لجنديه العالِم، معطياً إياه الفرصة كاملةً كي يُخرج مواهبه ويصبَّها في بوتقة حضارة هذه الأمة ورفعتها، دون أن يحوِّله عن ذلك عُجْبٌ أو كِبَرٌ أو استعلاء[٤٧١]، فتأتي النتيجة تسخير هذا العلم كله، وهذه الفنون بأشكالها تحقيقاً للغاية، ليكون الذي عنده علمٌ من الكتاب أول البناة في تثبيت اللبنات الأولى للهداية في قلب أمة أخرى، ولا يهمنا جنّاً كان أم إنساً-على اختلاف ما ورد عند المفسرين، وهل هو سليمان النبيّ ذاته أم هو عبدٌ من عباد الله

-أخرجه أبو يعلى،أحمد بن علي(١٩٨٤)**مسند أبي يعلى**،ط١،ج٧،ص٣٤٩،(ت:حسن سليم أسد)،دمشق:دار المأمون،وقال:إسناده لين

[٤٦٨] -ينظر:النجار،زغلول،**قضية التخلف العلمي**،ص٤٤-٤٥.

[٤٦٩] -ينظر:أبو حيان،ج٧،ص٥٠،وينظر:الشعراوي،ص٣١٠٩.

[٤٧٠] -ينظر:النجار،**الإيمان بالله**،ص١٨٣.

[٤٧١] -ينظر:الكشاف،ج٣،ص٣٦٤،وينظر:البيضاوي،ج٤،ص٢٦٣،وينظر:الخازن،ج٥،ص١٤١.

لديه[٤٧٢]-ولكن المهم إدراك سليمان للقانون الذي يتميّز به هذا العبد في الحركة والسرعة وحسن استخدامه له[٤٧٣]، ناهيك عن الآثار العظيمة للحصول السريع على المعلومات من خلال النظام الذي استخدمه سليمان في مملكته، والتي مكّنته من معرفة غياب الهدهد بهذه السرعة التي يفيدها الحرف(ف) **"فقال ما لي لا أرى الهدهد"** وآثار ذلك على حفظ نظام الدولة وأمنها في الداخل والخارج، وكأنه يذكرنا بمنجزات العلم الحديث وكيف سهل الوصول إلى المعلومات بالأجهزة الإلكترونية[٤٧٤]، غير أن سليمان لم يزد على أن قال:**"هذا من فضل ربي"** لأنه يدرك بعمق عقيدته سرَّ وجوده وإطار انطلاقته في هذا الوجود**"وفوق كل ذي علم عليم"**فليس من عالِم إلا فوقه عالم حتى ينتهي إلى الله عزّ وجل.

ب- حين يضع الإنسان نفسه وقدراته في سياق واحد وتوجه واحد ومجرى واحد مع خلائق الله كافة وسننه المذخورة في الطبيعة،حينها سيتجاوز مواقع الارتطام التي تفتت الطاقة وتُضعف فاعليتها، متحولاً إلى طاقة فذّة في ميدان الفعل والإنجاز، وقدرة مذهلة في مجال العطاء والإبداع، إنه الإنسان المؤمن[٤٧٥].

هذا الإنسان الذي ينطلق في كافة المجالات متشعباً في ثنايا حضارات الشعوب، لا يتقوقع في دائرة ذاته،منقفلاً على حدود الأنا، وإنما يغترف ما ينمي عقله، ويوسّع فكره، جاعلاً حُداءه "الحكمة ضالة المؤمن أنّى وجدها فهو أحق الناس بها" حريصاً على الانتقاء الذكي الذي يتناغم مع كينونته الموحدة العابدة لمولاها سبحانه[٤٧٦]، ولن يكون له ذلك دون أن يتبحر في لغات الأرض ويقف على دلائلها مدركاً أسرارها.

إنها إشارات القرآن إلى العقل المسلم التي لا تقبل منه الوقوف عند حد واحد، ولا ترضى له الأخذ بل تدفعه دوماً إلى الإثراء والإغناء حتى لو من خلال التأمل في

---

[٤٧٢] -تنظر التفاسير عند هذا الموضع مثل:ابن عاشور،ج١٠،ص٣٦٠،ابن عطية،ج٤،ص٣١٠،أبو السعود،ج٦،ص٢٨٧.

[٤٧٣] -ينظر:الشعراوي،ص٣١٢.

[٤٧٤] -ينظر:الكيلاني،إبراهيم زيد،(٢٠٠٤):**خصائص الأمة الحضارية كما تبينها سورة المائدة**،ط١،ص١٢ .

[٤٧٥] -ينظر:خليل،عماد الدين،**إعادة تشكيل العقل المسلم**،ص٣٣.

[٤٧٦] -ينظر:خليل،عماد الدين،إعادة تشكيل العقل المسلم، ص٦٥-٦٦،وص٧٣-٧٤.

حال نملة "حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوۡاْ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمۡلِ قَالَتۡ نَمۡلَةٞ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمۡلُ ٱدۡخُلُواْ مَسَـٰكِنَكُمۡ لَا يَحۡطِمَنَّكُمۡ سُلَيۡمَـٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ﴿١٨﴾{النمل}

لقد ملّك الله نبيه سليمان-عليه الصلاة والسلام-علم اللغات فاستطاع فك الشيفرة مع الهدهد ودار بينهما حوار انتهى بهداية أمة من منطلق علم، وتمكّن من سماع النملة لتَعْلَم الأجيال من بعد كم هو ثقيلٌ عبء الخلافة على ظهرها، لقد شاع أمر عدل سليمان حتى بلغ أمره النمل في جحوره، فما أساؤوا الظن بمقدمه واحتمالية مقتلهم تحت نعاله بل راحوا يلتمسون له عذرا، فهم لا يشعرون، إنها أممٌ واسعة أحاطها الله بنا كلٌّ لها لغة ومنطق، وعاطفة وشعور، وكلُّها أمانة تقيِّد العقل المسلم وهو يتعامل معها، وهاهو العلم المعاصر قد توصّل إلى دراسة لغة الكائنات وأثبتها محاولاً الوقوف على حقيقة عواطفها[٤٧٧].

إنه توجيه الله للعقل كي يدرك ويتعلم كل أنواع العلوم وأشكالها وعلى رأسها اللغات التي تفتح له أبواب العلوم على مصراعيها، فيصبح ميراث البشرية كلها ميداناً صالحاً لطالب العلم أن يرتاده وينتقي منه ما يفيده ويعزز وجوده ويحقق له هدفه[٤٧٨].

لذا يمكننا القول:

إن الثمار الحضارية للمسلمين من العلوم والمنجزات إنما هي ثمار لحرية العقل التي تأتت من الإيمان بالله الواحد، وحينما تغبَّش الإيمان بالوحدانية في أبعادها الشاملة، وضاق معها مجال التحرر العقلي، عندها انحسرت مكتشفات الحقيقة، أما ما نراه في الغرب والذي يوهم تحرر عقولهم التي أفرزت هذه الحضارة بكل أبعادها، فإنه تحررٌ ضيق ناقص، بقي محكوما بالأهواء والشهوات، بعيداً عن دائرة القيم والأخلاق، ليتحول إلى أهم وسيلة للسيطرة على الشعوب، ويغدو بغياب الحضور الإلهي علم تدمير رفيع المستوى.

---

[٤٧٧] -ينظر:الشعراوي،ص٢٥٤٤.

[٤٧٨] -الشعراوي،ص١٧٠٧.

الفصل الثالث

خصائص البناء الحضاري في القصص القرآني

المبحث الأول: شمولية الفهم والصياغة

المبحث الثاني: واقعية الطرح

المبحث الثالث: مرونة التطبيق

المبحث الرابع: تأصيلية الفكرة

المبحث الخامس: حقيقية المضمون

المبحث السادس: امتداد النفع

المبحث السابع: القدرة على التأثير

الفصل الثالث: خصائص البناء الحضاري في القصص القرآني:

تميّزت منهجية القصة القرآنية في طرحها للفكرة بمزايا تفرّدت بها عمّا سواها-على طريقة القرآن وتفرُّده-بما احتوته من خصائص ارتقت بها رتبة السنة الكونية في تأصيلها للحقيقة، وأعطت دليلاً عملياً وبرهاناً وجودياً على صلاحية هذا الكتاب الكريم-بكل ما يحمل بين دفتيه-ليمتدَّ عبر الزمان والمكان، مؤثراً في كل جيل، محيطاً بكل جانب من جوانب الحياة، قادراً على التعامل مع آليات الأحداث واختلافات المحدَثين، دون أن يمسَّ ذلك ثوابته، أو يغيّر خطَّ سيره لتحقيق أهدافه وغاياته.

ويأتي هذا الفصل ليُدعّم من خلال الدليل والبرهان هذه الحقيقة، عبر اقتطاف مشاهد من قصص القرآن، ملقياً الضوء على نماذج تعكس لنا طبيعة هذه المضامين، تاريخاً مضى، ومستقبلاً آت، ناهيك عن حاضر معاش.

المبحث الأول:شمولية الفهم والصياغة.

الصياغة هي الإطار العام والقالب المشاهد، إنها اللفظ الذي أعجزت هيئته في القرآن البلغاء وحارت دون بلوغ آفاقه ألباب الفصحاء، "لتلاحم أجزائه، وسهولة مخارجه[٤٧٩]" الذي لا يكاد تطرق السمع حتى يخلص إلى القلب، فتنشرح له الصدور لما يرد عليها من حسن الصورة وطرائق الدلالة، ناهيك عما يغشاها من روعة ومهابة لا تكون لسواه من الكلام منظوماً كان أم منثوراً[٤٨٠].

هذه الصياغة المعجزة المسماة بالأسلوب، والتي انفردت بطريقة في تأليف الكلام واختيار الألفاظ[٤٨١]، ليتعانق مع المضمون المعجز مكونةً القرآن المعجزة التي لا تفنى ولا تخلق، والتي يجد فيها السائل-أيّاً كان مشربه وأنّى كان زمانه-وجهته وحاجته وخلاصة مراده.

---

[٤٧٩] -الجاحظ،أبو عثمان(١٩٩٨):**البيان والتبيين**،ج١،ص٦٧،(ت:عبد السلام هارون)،دار الكتب العلمية.

[٤٨٠] -ينظر:الخطابي(١٩٩١):**بيان إعجاز القرآن،ضمن ثلاث رسائل**،ط٤،ص٩٠،(ت:محمد خلف الله ومحمد زغلول سلاّم)،مصر: دار المعارف.

[٤٨١] -ينظر:الباقلاني،محمد بن الطيب،**إعجاز القرآن**،ص٣٥،(ت:أحمد صقر)،القاهرة:دار المعارف.

وقد شملت القصة القرآنية بين جنبيها الحياتين-الدنيا والآخرة-مخاطبة الجنسين-الذكر والأنثى-ملامسة جانبي العقل والوجدان، كلُّ هذا في إطار لفظ وصياغة أسلوب يتَّسع لِقَدْر عظيم من الفهم الشامل العميق.

وسيكون لنا في هذا المبحث وقفتان:أولاهما في سورة التحريم، حيث يتجلى دور المرأة وأثرها في سير الأمة ورسم معالم تاريخها، وثانيهما في سورة لقمان، حيث مشهد الأب المربي الواعي وهو يخطُّ لولده-ولكل أبناء الأمة من بعده- ملامح خطوهم، ومدارج حبوهم، مُظهراً أثر ذلك على شخصية الجماعة التي لا فكاك للفرد عنها أو مفرَّ له منها،حريصين من خلال الطرح على تبين معنى الشمولية التي توحي بها ألفاظ المعاني.

المطلب الأول:شمولية القصة القرآنية لنوعي الرجل والمرأة:

يلمح المتأمل في القصة القرآنية التوازن العجيب في ذكرها للمرأة وأهمية دورها في سير التاريخ، إلى جانب ذكر الرجل وموقعه وتأثيره في تحريك عجلة الحياة وتوجيه الأحداث، فبينما نرى المرأة ملكة ذات دولة وسلطان ولها في قومها المكانة التي اكتسبتها بعقلها وحكمتها[٤٨٢]، نلمحها وهي ذات إرادة تقرر وتختار وتصر متحملة نتائج موقفها دون لبس أو تردد.

يقول تعالى:"ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱمۡرَأَتَ نُوحٖ وَٱمۡرَأَتَ لُوطٖۖ كَانَتَا تَحۡتَ عَبۡدَيۡنِ مِنۡ عِبَادِنَا صَٰلِحَيۡنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمۡ يُغۡنِيَا عَنۡهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗا وَقِيلَ ٱدۡخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ١٠ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا

[٤٨٢] -ينظر:الخطيب،عبد الكريم:**القصص القرآني في منطوقة ومفهومه**،ص١١١،بيروت:دار المعرفة.

لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱمۡرَأَتَ فِرۡعَوۡنَ إِذۡ قَالَتۡ رَبِّ ٱبۡنِ لِي عِندَكَ بَيۡتٗا فِي ٱلۡجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرۡعَوۡنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِي مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١١﴾"{التحريم}

والحياة لا يمكنها أن تستمر معتمدة على أحد العنصرين دون الآخر، فكلاهما يمكنه أن يكون عامل هدم لأمته، كما يمكنه أن يكون عامل بناء، وكما أنه في الرجال غُواةٌ وضُلاّل يُعمَون عن الحق ويلجّون في الضلال والغيّ، كذلك في النساء من تكابر وتتأبى على الهداية[٤٨٣]، وما سبب غمس هاتين المرأتين-امرأة نوح وامرأة لوط-في النار إلا لجريمة الخيانة-كما وصفها القرآن الكريم-وهي الخيانة العظمى-كما هي في عرفنا اليوم-فإن كانت خيانة الزوج جريمة لا تُرحم، إلا أنها لا ترقى إلى مرتبة الخيانة العظمى، فإن خيانة الفكرة والمبدأ والانتماء يصل إلى الخطورة بمكان أن اختصه الله بالذكر على يدي هاتين المرأتين رغم مكانتهما الاجتماعية.

لقد حفظ الله أنبياءه من أن يمسَّ جانبهم العالي وصمٌ معيبٌ كخيانة الزوجية[٤٨٤]، ولكن خيانة المبدأ والفكرة ممن يقربهم لا يطعن بمقامهم، وهي في الوقت نفسه تمثّل حالةً للناظر تجعل منها مثلاً يضرب وأنموذجاً يعتبر، حيث إن هاتين المرأتين لم تتوانيا-رغم شرف البيت الذي تأويان إليه-من القيام بدور الجاسوس[٤٨٥]الذي ينقل أخبار أحد الطرفين إلى الآخر، ليكون اختيارهما منحازاً لأعداء أقرب الناس لهما-زوجيهما-مخبرة الأجيال من بعد مقدار مسؤولية المرأة في بناء المجتمعات والدفع بعجلتها سواءً كان الدفع للأمام-علوّاً وبناءً ونهوضاً-أم للخلف-ارتكاساً وانهزاماً ونكوصاً.

إنها حالة غريبة عبّر عنها النظم القرآني بالمَثَل، لتنطبق على كل حالة مشاكلة لها في الغرابة[٤٨٦] سواءً كانت غرابتها بهذه السلبية المفرطة المترائية في فعل هاتين المرأتين، أم الإيجابية المتألقة التي نلمحها في امرأة فرعون وهي تمثّل دور العاقل الرشيد الذي يزن الأمور بعقله متعرفاً على مواطن الخير، حاملاً إرادة قاطعة، ورأياً

---

[٤٨٣] -ينظر:الخطيب،**القصص القرآني**،ص١٠٧.

[٤٨٤] -ينظر:الديرزوري،عبد القادر آل غازي(١٣٨٢)،**بيان المعاني**،ج٦،ص،٢٣٩،دمشق:مطبعة الترقي.

[٤٨٥] -ينظر:حجازي،محمد محمود،**التفسير الواضح**،ج٣،ص٧٠٧،دار الجيل الجديد

[٤٨٦] -حجازي:**التفسير الواضح**،ج٣،ص٧٠٧

حرّاً قاهراً الحدود، محطماً القيود، معبّراً عن مشيئته على الوجه الذي اختار، ليكون بذلك مناطاً للتكليف وأهلاً للثواب والعقاب.

فامرأة فرعون لم يضلّلها زور زوجها وبهتانه، ولم تُخِفْها قوة بطشه وسلطانه، ولم تزغها زخارف ملكه وصولجانه، فقد استبان لها الهدى فتحررت من دائرة فلك الطغيان[٤٨٧]، لتكون المَثل المضروب للعقل الحر والإرادة الحرة العنصران الأكثر أهمية، والخصيصتان الأعظم تماسّاً والأشد حاجة لكل جيل أراد أن ينهض، أو أمة عزمت على الارتقاء...

وقد جاءت هاتان الصفتان متمثلتان في امرأة شاء الله عدم ذكر اسمها-كما لتكون عَلَماً على جنس المرأة، منبّهاً أن هذا العنصر يمثّل واقعاً من الحياة، ويشغل جانباً كبيراً من جوانبها[٤٨٨]، مقرّاً أن شمولية الفهم لا تبدأ من شخص بل من فكرة تَصْدق على نمط معين من الناس[٤٨٩] أنّى كانت أنواعهم وأجناسهم، هذه الفكرة التي ترتقي بنظر المؤمن إزاء مجريات الأحداث من حوله ليحرص منها على كسبه الأخروي الخاص، وحسابه من المسؤولية الذي يحفزه للاستقامة في كل حال[٤٩٠]، فالعبادة في نظره ليست حواراً جزئياً مع الله سبحانه يؤديها في آلية ملؤها الكسل والتراخي، وإنما هي فاعلية تسود أرجاء حياته كلها[٤٩١]، لتغدو هذه الحياة على اتساعها محراباً يعكف فيه عبادةً لله، فتظهر الدنيا والآخرة عنده خطّاً واحداً ينبني آخره على أوله[٤٩٢]، مؤلفاً من فهمه معنى الحياة كما يريده القرآن[٤٩٣].

المطلب الثاني:شمولية القصة القرآنية لجوانب الحاجة الإنسانية:

يمثل المشهد التربوي الفريد بين لقمان وابنه خريطة دقيقة لبناء برنامج حضاري شمولي، لا يكاد يترك جانباً أو منحى إلا يتطرق إليه، ملامساً أوتاره، موضحاً

---

[٤٨٧] -ينظر:الديرزوري،ج٦،ص٢٣٩

[٤٨٨] -ينظر:المصدر السابق،ص١١٣

[٤٨٩] -ينظر:فارس،أحمد محمد،**النماذج الإنسانية في القرآن**،ص٦٦،بيروت:دار الفكر.

[٤٩٠] -ينظر:الترابي،**الإيمان بالله**،ص٤٦.

[٤٩١] -**ينظر:خليل،عماد الدين،التفسير** الإسلامي للتاريخ،ص١٨٨-١٨٩.

[٤٩٢] -ينظر:الترابي:**الإيمان بالله**،ص٩٤.

[٤٩٣] -ينظر:أسد،محمد(١٩٨١):**الإسلام على مفترق الطرق**،ص٢٢،(ترجمة:عمر فروخ)،بيروت:دار العلم للملايين.

أدقّ تفاصيله، مبيناً سُبل التعامل معه، يقول تعالى:"وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا لُقۡمَٰنَ ٱلۡحِكۡمَةَ أَنِ ٱشۡكُرۡ لِلَّهِۚ وَمَن يَشۡكُرۡ فَإِنَّمَا يَشۡكُرُ لِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٞ ١٢ وَإِذۡ قَالَ لُقۡمَٰنُ لِٱبۡنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَيَّ لَا تُشۡرِكۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ ١٣ وَوَصَّيۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيۡهِ حَمَلَتۡهُ أُمُّهُۥ وَهۡنًا عَلَىٰ وَهۡنٖ وَفِصَٰلُهُۥ فِي عَامَيۡنِ أَنِ ٱشۡكُرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيۡكَ إِلَيَّ ٱلۡمَصِيرُ ١٤ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشۡرِكَ بِي مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٞ فَلَا تُطِعۡهُمَاۖ وَصَاحِبۡهُمَا فِي ٱلدُّنۡيَا مَعۡرُوفٗاۖ وَٱتَّبِعۡ سَبِيلَ مَنۡ أَنَابَ إِلَيَّۚ ثُمَّ إِلَيَّ مَرۡجِعُكُمۡ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ١٥ يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثۡقَالَ حَبَّةٖ مِّنۡ خَرۡدَلٖ فَتَكُن فِي صَخۡرَةٍ أَوۡ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَأۡتِ بِهَا ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٞ ١٦ يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱنۡهَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ١٧ وَلَا تُصَعِّرۡ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمۡشِ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَرَحًاۖ

إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخۡتَالٖ فَخُورٖ ١٨ وَٱقۡصِدۡ فِي مَشۡيِكَ وَٱغۡضُضۡ مِن صَوۡتِكَۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلۡأَصۡوَٰتِ لَصَوۡتُ ٱلۡحَمِيرِ ١٩" **{لقمان}**

لقد جمع لقمان في هذه الموعظة أصولاً عظيمة شملت الاعتقادات والأعمال والمعاملات، مبتدئاً بقوله سبحانه:**" يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ (١٣)** "لأن النفس المعرّضة للتزكية والكمال يجب أن يُقدَّم لها قبل ذلك تخليتها عن مبادئ الفساد والضلال، فإن إصلاح الاعتقاد أصلٌ لإصلاح العمل[٤٩٤]، ولا يمكن لأمة منهزمة أرادت رأب صدعها ووأد هزيمتها أن تتمكن من الانطلاق في ميادين ما حلَّ بها من فساد قبل أن ترجع إلى معتقدها، فتقوّم على أساسه تفكيرها، وتُنقّي وفقاً لمنظومته وتيرة سلوكها، لتبدأ أولى خطواتها نحو الإصلاح في مَدْرج الحضارة.

وجاءت فاصلة الآية في قوله سبحانه:**"يا بنيّ لا تشرك بالله إن الشرك لظلمٌ عظيم"** لتلقي بشمولية صياغتها-مع ما تحتضنه من شمولية معناها-سرَّ الانحطاط الذي يصيب الأمم ويودي بنهضتها، فإن الشرك كما أنه ظلمٌ لحقوق الخالق هو في الوقت ذاته ظلم العبد لنفسه، حين يلقي بها في حضيض العبودية لغير الله-بشراً كان أو صنماً-وظلمٌ لمن حوله بتعديه على حقوقهم وكرامتهم وإنسانيتهم وحريتهم، بل إن ظلمه يصل إلى حقائق الأشياء حين يعمل على قلبها وإفسادها وسوء التعامل معها[٤٩٥]فلا تسلم منه نفسه ولا البشر من حوله، ولا الطبيعة المحيطة به، وترتكس البشرية بوجوده بها وعيشه فيها، وإن بدت على يديه مزهرة مشرقة مدة من الزمن إلا أنها الصحوة التي تسبق الموت الأكيد.

لقد كان الصراع القائم بين المذاهب في نظرتها إلى العلاقة بين الله والطبيعة والإنسان، وتقديم إحداها على الأخرى كعامل أهم في صنع التاريخ، هو العامل الرئيس في تفشي هذا اللون من الظلم، وما أسفر عنه من انقسام المجتمعات إلى فريقين، أحدهما يدّعي التدين مرتدياً لباس السلبية والمسكنة، والآخر يصرخ بالتمدن رافعاً لواء التفلت،

---

[٤٩٤]-ينظر:ابن عاشور،ج٢،ص١٠٠-١٠١.

[٤٩٥]-ينظر:المصدر السابق،ص١٠١.

لتُدمَّر الأخلاق، وتُفنى القيم، وتنحسر العلوم المؤطرة، وتتعطل رسالة الدين في إصلاح المجتمعات ومحاربة الشر والفساد.

أما النهج القرآني بفهمه الموضوعي الشامل، ومنطلقه الثابت، حيث التوحيد الخالص، فيأتي ليوازن بين سائر القيم التي تصنع التاريخ، دافعاً بالروحية منها لتنطلق من إسار الفرد-كممارسات شخصية-إلى دائرة العالم، لتشارك في قلبه وحركة تاريخه وإدارة عجلته[٤٩٦].

لذلك نجد الآيات تتدرج من تثبيت المفهوم العقدي للفرد إلى تحقيق الأمن النفسي الذي يتيح له فرصة الانطلاق بعزم وثبات، هذا الأمن الذي لن يصل إليه إلا من خلال محضن آمن يأويه ، مراعية-أي الآيات- في ذلك طرح كل ما يعترض سبيل هذا الأمن، أو يكدر طريقه، لا سيّما اختلاف الفهم وتباين الانتماء فاصلة بين حقيقة الولاء الذي لا رهان عليه، وبين طبيعة السلوك الذي يجب أن يسود"وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَـٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ وَإِن جَـٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ۚ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾"فكما أوجب الله سبحانه على الفرد رعاية هذه البؤرة بحفظ مكانة الأبوين فيها وإظهار أكمل العناية وأتمها بهما[٤٩٧]، كان توجيهه على عدم المراهنة عليها بتسليطها على طاعة الله[٤٩٨]، ليتحقق من جرّاء هذه النظرة الشمولية ذلكم الاتزان الذي ينتج أمناً داخلياً، واستقراراً ذاتياً، تجعل الفرد معه

---

[٤٩٦] -ينظر:خليل،عماد الدين:**التفسير الإسلامي**،ص١٥-١٧،وينظر:الكيلاني،ماجد عرسان(١٩٩٨):**فلسفة التربية الإسلامية**،ص٨٥،بيروت:مؤسسة الريّان.

[٤٩٧] -ينظر:الرازي،ج١٠،ص٧٦.

[٤٩٨] -ينظر:ابن عطية،ج٥،ص٢١٦.

مطمئناً إلى معالم إنسانيته، فيغدو عقله وعقيدته وعواطفه كلها متجانسة متعاونة، قادرة على تحقيق ما أنيط بها من مسؤولية الخلافة والبناء.

لقد حرص لقمان أن يرفع لابنه-وكل من يخطو خطوه على الطريق-علماً واضحاً، وصرحاً جليّاً، لا يزيغ ناظره"**وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ**"موضحاً بذلك حقيقة الانتماء، مجليّا مسألة الولاء بصورة لا تدع مجالاً للَبْس في الفهم أو تردد في الشعور، فالمكلف في الإنسان إنما هي نفسه، وما بدنه إلا آلة لها، ومن ثمّ فإن مقياس صلاحه وفساده يقاسان بصلاح نفسه وفسادها، وكذا رقيّه وانحطاطه لا يبينان إلا برقيّها وانحطاطها[٤٩٩]ولن تبلغ أعلى درجات رقيّها وأسمى منازل رفعتها إلا حين تحدد وجهة ولائها فتخترق حدود الأرض، وتتعالى فوق دركات الطين، واصلةً ذاتها بمصدر العلوّ وحده، راضية به سبحانه موجهاً ومرشداً عمن سواه.

ولأن السمت الشمولي هو الذي يميّز النظرة القرآنية، فإننا نراه يعمد إلى استحضار أوسع ما يمكن من المادة التي يكون على أساسها وضع ضروب العلاج[٥٠٠] لكل ما يعترض الفرد من أمراض تفتك بفكره وصحة سيره، ولتبنى على أساسها المفاهيم المراد تثبيتها في أعماق الفرد الباني "يا **بُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ(١٦)**" فغرس الهيبة والخشية والمراقبة لله جاءت بصرف النظر إلى الملك الواسع العريض الذي لا يخفى على الله فيه شيء مهما دقَّ أو قلَّ أو خفي[٥٠١]، دالة بذلك على أهمية العلم في متون هذه الثقافة، حتى ليغدو-في كثير من الأحيان-إشارة إلى القيم الدينية التي نزلت في مقابلة الأهواء والظنون البشرية[٥٠٢]، بل إن درجة تعظيمه بلغت حداً أن قُيّد به الحكم بمنع الشرك بالله-وهو أكبر الكبائر-"**أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ**"[٥٠٣]، ليغدو الدين والعلم كلاهما سواءً في لغة القرآن، دستور الحضارة المرتقب علوّها، والتي تتميز بإنسانية خطابها الإلهي، جاعلة ميدانها العقل البشري، وعطاؤها الفعل الإنساني وهمها تحصيل الحكمة أيّاً كان وعاؤها، لذلك جاء نسيجها إنسانياً من الناحية

---

[٤٩٩]-ينظر:ابن باديس،عبد الحميد،**مجالس التذكير**،ص١٠٧.

[٥٠٠]-ينظر:النجار،**عوامل التحضر**،ص١٥٨.

[٥٠١]-ينظر:الطنطاوي،**الوسيط**،ج١١،ص١٢١.

[٥٠٢]-ينظر:خليل،عماد الدين،**إعادة تشكيل العقل المسلم**،ص٦٠.

[٥٠٣]-ينظر:رضا،محمد رشيد(١٩٩٠)،**المنار**،ج١١،ص٢٠٤،الهيئة المصرية العامة.

التاريخية،وبعدها عالميّاً من الناحية الجغرافية[٥٠٤]**"إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ (١٧)"**مشيرةً إلى قِدَم هذه الطاعات وتتابع الأمر بها في سائر الأمم[٥٠٥].

ثم ينتقل لقمان بحكمة المربي وهدوء الواثق ليوسّع آفاق المعاني أمام الأجيال-التي تتمثل بابنه بين يديه-وهو يرسم لها مفهوم العبادة الحقة وانعكاساتها السلوكية على آلية التعامل مع الحياة والأحياء "يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱنۡهَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ﴿١٧﴾ وَلَا تُصَعِّرۡ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمۡشِ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَرَحًاۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخۡتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾ وَٱقۡصِدۡ فِي مَشۡيِكَ وَٱغۡضُضۡ مِن صَوۡتِكَۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلۡأَصۡوَٰتِ لَصَوۡتُ ٱلۡحَمِيرِ ﴿١٩﴾

وابتداؤه الأمر بإقامة الصلاة لينتقل بذلك من مرحلة التنظير الفكري إلى ميدان الترجمة العملي، فلن تُبنى الأمم من خلال مناهج خلابة لا تعايش الواقع وتعارك همومه وتلبي حاجاته، والإشارة إليها على وجه الخصوص دون سواها، بوصفها الوسام الذي يميّز أهلها ويعلو بهم، فهي عماد دينهم، وأما تقييد إتيانها بإقامتها، للتوثق من توفيتها حقها بمراعاة شرائطها وحفظها والثبات على دوام طلبتها، لا العناية بهيئتها فحسب[٥٠٦]، ليكون بذلك آمراً لنفسه بكل خير، قادراً على الانطلاق ليأمر غيره، مُعْملاً فيهم مِنهج الإصلاح الذي آمن به، جاعلاً منهم لبنات صالحات لتأسيس البنيان الصُّلب القادر على إثبات وجوده، والعصيّ على الذوبان في أحماض الحضارات والثقافات المختلفة، مثبتاً من خلال مرحلية سيره أن بناء الأمم وتشييدها يبدأ من بناء ذوات النفوس وتأسيسها.

---

[٥٠٤]-ينظر:ابن عاشور،الفاضل،**روح الحضارة**،ص٦.

[٥٠٥]-ينظر:طنطاوي،**الوسيط**،ج١١،ص١٢١.

[٥٠٦]-ينظر:الراغب،**المفردات**،ص٤١٧-٤١٨.

لقد جاء الأمر في هذه الآية بالإفراد-باعتبار أن الحديث موجه من لقمان لابنه- ولكنه في حقيقته موجّه إلى كلّ فرد في الأمة-والذي هو بمثابة الابن للقمان-ليشعره بمسؤوليته وعظم دوره وخطورة الأمانة وثقلها على كاهله**"وكلهم آتيه يوم القيامة فرداً"**{مريم٩٥} فالحساب لن يكون جماعياً، والتبعة في هذه الحياة فردية، وإن كانت في بعض جوانبها جماعية، ولن يُعذر فردٌ تخلّفت جماعته، أو تقاعست أمته، لذلك ابتدأت الآية بعماد الدين-الصلاة-وختمت بعماد رضوان الله-الصبر-لأنه أساس المداومة على الطاعات[٥٠٧]حين تعزُّ الطاعات.

إن مشكلة المجتمع الإسلامي اليوم أنه يتكلم تبعاً لمبادئ القرآن دون أن يحياها، فالذي ينقص المسلم ليس منطق الفكرة ولكن منطق العمل والحركة، فهو لا يفكر ليعمل بل ليقول كلاماً مجرداً، وكم هو مؤلمٌ أن نرى ذلك الرجل الأوربي ذا عزم ونشاط وحركة دائبة، بينما لا نلمح هذا عند المسلم الذي يقول له مولاه**"ولا تمش في الأرض مرحاً"**[٥٠٨].

لقد ركّزت الآيات على ملمحين رئيسين**"واقصد في مشيك""واغضض من صوتك"**لتكون أولاهما دالة على الأفعال، والأخرى على الأقوال، وما المرء إلا قولٌ وفعل، وهو مأمورٌ بالاعتدال فيهما معاً حين يريد أن يكون القدوة المحتذاة والنواة الجاذبة.

أما الإفراط فإنه سبيل الانهزام ودليل الانهيار، سواءً كان بالفعل على هيئة المتكبر المعرض بوجهه المحتقر لغيره[٥٠٩]**"ولا تصعّر خدَّك للناس"** أو بالقول، برفع الصوت ليثبت ذاته عبر صراخه، مغروراً بنفسه، غير مكترث لغيره**"واغضض من صوتك"**.

فالحريص على الارتقاء شخص تعاظمت نفسه بين جوانحه فتواضع للخلق من حوله، منصتاً لحديثهم، مستفيداً مما عندهم، مثبتاً أن أصالة الأخلاق بقاؤها وإن

---

[٥٠٧]-ينظر:الزحيلي،**التفسير المنير**،ج٢١،ص١٤٩.

[٥٠٨]-ينظر:ابن نبي،مالك،**شروط النهضة**،ص١٤٦-١٤٧.

[٥٠٩]-ينظر:الزحيلي،ج٢١،ص١٥٠،وينظر:الماوردي،ج٤،ص٣٣٩.

تعارضت مع المصلحة الشخصية"[٥١٠]، دون أن يحتاج ذلك لرقابة دائمة تلاحقه في حلّه وترحاله، حيث تكفيه الإشارة**"إن الله لا يحب كل مختال فخور"**،في الوقت ذاته الذي تحتاج فيه الأخلاق الوضعية-رغم تطبيقها بصدق ودقة في كثير من الأحيان-إلى رقابة أكيدة تبسطها الجماعة، ولأن رقابتها ظاهرية لا تسري إلا على السلوك المشاهد فحسب فإن الالتزام بها يستدعي الكثير من المنافقة التي تقلص من تأثيرها في الواقع[٥١١].

إن تسليط القرآن الضوء على كل دوافع الإنسان ونوازعه الباطنية، الشعورية منها واللاشعورية، والإشارة إلى مساحات تركيبه الداخلي قوة وضعفاً، إقداماً وإحجاما، استقامة وطغيانا، التزاماً للقيم العليا أو ارتكاساً في الشهوات، لتفسِّر لنا أسباب العلوّ والنكوص في وقائع التاريخ البشري[٥١٢].

هي ذي وصايا لقمان للأمة، وبتنفيذها يسعد الأفراد، وترقى المجتمعات[٥١٣].

المبحث الثاني: واقعية الطرح..

خرج علينا من يدّعي خيالية القصة القرآنية، سواءً بعناصرها ورموزها، أو أحداثها ومضامينها، حتى حدا القول ببعضهم إلى كونها تلفيقاً واختراعا تقوم على تخليص العناصر القصصية من معانيها التاريخية وجعلها صالحة لاستثارة العواطف والانفعالات لتتحقق العبرة والعظة، ومن ثمّ فهي لا تعدو دائرة الأساطير[٥١٤].

هذه الخلاصة الباطلة التي توصلت لها بعض العقول القاصرة، تأتي الحقيقة القرآنية لتثبت من خلال عرضها دقة الطرح في رسمها للنماذج الإنسانية، وانطباق هذه الصورة المرسومة على الواقع، لتمثّل أنموذجا بشرياً مكروراً[٥١٥].

---

[٥١٠] -**ينظر:بيجوفتش،علي عزت(رئيس البوسنة والهرسك)(١٩٩٤):الإسلام** بين الشرق والغرب،ط١،ص٢٠٤،(ترجمة:محمد يوسف عدس)مؤسسة بافاريا.

[٥١١] -ينظر:الترابي،**الإيمان بالله**،ص٢٠٨.

[٥١٢] -ينظر:خليل،عماد الدين،**التفسير الإسلامي**،ص١٦٠.

[٥١٣] -ينظر:أبو حيان،ج٨،ص٤١٦،وينظر:الطنطاوي،ج١١،ص١٢٣.

[٥١٤] -ينظر:خلف الله،محمد أحمد:**الفن القصصي في القرآن**،ص٢٥٤،١٨٠.

[٥١٥] -ينظر:الخالدي،صلاح عبد الفتاح(١٩٨٣):**نظرية التصوير الفني عند سيد قطب**،ط١،ص٢٦٠،٢٥٩،عمان:دار الفرقان.

إن روعة العرض والجمال الفني في القصة القرآنية إنما هو أداة مقصودة للتأثير الوجداني-متى استقام التفكير وصحت الأفهام-وإدراكه دليل استعداد لتلقي تأثيره المطلوب[٥١٦]، إذ إن الناظر إلى القصص في القرآن يمكنه أن يقتطف منها ما يشاء مما يثري نظريته، ويدّعم فكرته، وما ذاك إلا نظراً لمصداقية طرحها وواقعية نهجها في بسطها للأحداث، ومعالجتها للمواقف، وتسليطها الضوء على الأفراد.

وفي سبيل إثبات هذا المبدأ-واقعية الطرح والتطبيق-لتدعيم نظرية البناء الحضاري من خلال النظر إلى القصص القرآني، يمكننا أن نلمس أثر ذلك جليّاً واضحاً في المشاهد التي نعرضها مع نبي الله موسى-عليه الصلاة والسلام-فبالرغم من قوته التي عُرف بها حتى ذهبت مثلاً يُضرب"**فوكزه موسى فقضى عليه**"إلا أن هذه القوة البدنية الهائلة التي مكّنته من السقيا للفتاتين بسهولة وسرعة مذهلة، لم تكن حاجزاً يحول دون مشاعر الخوف التي تعتور المرء أثناء مواجهته للحياة، ومصارعته للأفكار، ومحاولته ارتقاء المشاقّ، وعروج الصعاب لأجل تحقيق الغايات ونيل المطالب الساميات.

المشهد الأول:الخوف من المجهول:

يقول تعالى:"وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢٠﴾ فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ ۖ قَالَ رَبِّ نَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يَهْدِيَنِى سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿٢٢﴾ {القصص}

---

[٥١٦] -ينظر:قطب،سيد،**التصوير الفني**،ص١١٨،١١٧،دار الشروق دون(ط-ت)،وينظر:قطب:سيد،**مشاهد القيامة في القرآن**،ص٢٢٩،دار الشروق.

تتمثل واقعية القرآن في قصصه أول ما تتمثل في حديثه عن الواقع كما هو"دون تبرير أو تعديل أو تحوير، إلا أنه من خلال حركته على الأرض ينطلق إلى أهدافه ومثالياته وآفاقه"[٥١٧]، حيث يسمي الأسماء بمسمياتها، فالمشاعر التي سيطرت على نبيه وكليمه موسى-عليه السلام-سماها خوفاً دون أن يبحث لها عن مسمى آخر، إنه الخوف ذلكم"الغم الذي يلحق بالإنسان لأمر قد يقع[٥١٨]" موجهاً النظر إلى أن محور القصة القرآنية الذي تنجذب إليه خيوطها جميعاً، إنما هو من البشر لا يتميزعنهم بواقعه الشعوري وأعماقه المحسوسة بشيء يحول دونهم ودونه، أو يجعل منه مثالاً يصعب ارتقاؤه أو احتذاء نهجه.

إنه الإنسان عندما تخترق الفكرة أعماقه فتستقر بين جوانحه،ويأبى أن يضيّعها لأجل الدنيا أنّى سمت مغرياتها، وتلوّنت أسماؤها، فيختار الفرار بها بحثاً لها عن مرتع آمن تأوي إليه وتنمو بين أرجائه، حتى إذا ما استوت على سوقها، وأينعت مبادئها واقعاً يُرى، أظهرها ليثبتها فيَسعد بها غيره، ولكن هذا لا يعني أن صاحب المبدأ يتجرد من مشاعره، وينطلق خارج إنسانيته، إنه إنسان، بكل مشاعره ومخاوفه وهواجسه، إنسان حتى وهو يملك من القوة الجسدية أضعاف ما يملك سواه، إنسان حتى لو بلغ يقينه بالله الدرجة التي بلغها في قلب موسى عليه السلام.

لقد هاجر موسى كما هاجر من قبل إبراهيم ومن بعد محمد عليهما الصلاة والسلام، هاجر فرداً لتهاجر أمة خاتم النبيين جماعة ويكون الشعار في كلّ"**إني مهاجرٌ إلى ربي**"لأجل إحقاق حق آمنت به وسعت إليه.

خرج موسى من مصر لا يحمل إلا إيمانه بين جنبيه، خرج بلا زاد ولا ظهر ولا ماء، لا شيء معه إلا حسن ظنه بربه[٥١٩] الذي دفعه ليلهج قائلاً:"**عسى ربي أن يهديني سواء السبيل**"فليس من همّ يشغله، أو فكرة تسيطر على باله إلا استقامة النهج الذي يسلكه، لقد ألهمه الله هذا الدعاء[٥٢٠] ليكون أنموذجاً لمن بعده.

---

[٥١٧]-ينظر:خليل،**التفسير الإسلامي**،ص١٢.

[٥١٨]-ينظر:الزمخشري،ج٣،ص٣٠٢.

[٥١٩]-ينظر:الطبري،ج١٩،ص٥٥٠،٥٤٩،وينظر:ابن عطية،ج٥،ص١٨٩،وينظر:ابن عاشور،ج٢،ص٣٦.

[٥٢٠]-ينظر:ابن عاشور،ج٢٠،ص٣٧.

إن الهجرة بالفكرة سنة من سنن الله سار عليها أنبياؤه من قبل، وإن بناء حضارة في أمة مهزومة يعني تطهيرها من فكر السوء ومعتقد الباطل، وهذا أمرٌ لن تنثر في طريقه الرياحين، إنها مواجهات وتضحيات، تحتاج إلى عزمات، وصدق نيات.

لقد أدرك موسى ذلك تماماً، فما إن أوى إلى نفسه في خلوة حتى نادى مولاه **"رب إني لما أنزلت إلي من خير فقير"**مختاراً صفة الربوبية على لفظة الألوهية التي تقتضي معبوداً له أوامر ونواه، والموقف هنا يحتاج برمته إلى عناية ورعاية[٥٢١]، لقد خرجت يا رب إليك ولأجلك، وقد حففتني بنعم وخيرات لا أحصي لها عدّاً، هذا الخير الذي أعايش بعضه في غربتي وجوعتي ووحشتي، فحقيقة الخير في عاقبته الآخرة لا في صورته الظاهرة[٥٢٢]،ولكني أحتاجك فأعني..

إنها وقفة من وقفات الواقعية التي تنطق بها كل لفظة من لفظات القصة ومقاطعها، واقعية في الفعل، وواقعية في القول، ما ظهر منهما وما بطن، فأما الباطن من الفعل فذلكم الإصرار على المبدأ والثبات على الفكرة التي زامنها ظاهرياً هجرة وبحثٌ عن ملجأ وملاذ، وأما الباطن من القول فمكمنه حسن اللجوء والتوكل، واليقين بوعد الله، والتي رافقها ظاهرياً الدعاء والاستغاثة، تلكم هي الطريق التي لا ثاني لها لمن أراد أن يصعد علوّاً من وهدة الهزيمة، وقيعان التخلف.

المشهد الثاني:الخوف الثاني عند التبليغ والمواجهة:

إن من أسمى سمات واقعية هذا الدين أنه لا يفترض المشكلات ليفترض لها الحلول، إنما يواجه الواقع بوسائل مكافئة لوجوده، بالدعوة والبيان لتصحيح المعتقدات والتصورات، وبالقوة والجهاد لإزالة الأنظمة والسلطات الحائلة بين الجمهرة من الناس وبين تصحيح مسارهم ومسلكهم[٥٢٣]، من خلال واقع معاش بكل ما يحمله هذا الواقع من مجريات الحياة الاعتيادية[٥٢٤]، فهذا موسى عليه السلام يتلقى الأمر بالتبليغ ومواجهة الطغيان مُمَثَّلاً في أسوأ صورة يمكن أن تصل إليها أمة، لقد وصفها الله سبحانه بقوله:

---

[٥٢١] -ينظر:الشعراوي،ص٦٨٤٠.

[٥٢٢] -ينظر:ابن عاشور،ج٢٠،ص٤١.

[٥٢٣] -ينظر:قطب،المعالم،ص٤٤، ٧٧.

[٥٢٤] -ينظر:داود،منى بنت عبد الله(١٩٩٨):**منهج الدعوة إلى العقيدة في ضوء القصص القرآني"قصص أولي العزم من الرسل"**،ط١،ص١٩٢،بيروت:دار ابن حزم.

"وَإِذۡ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئۡتِ ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾ قَوۡمَ فِرۡعَوۡنَۚ أَلَا يَتَّقُونَ ﴿١١﴾"**{الشعراء}**لتعكس حقيقة الحالة التي يُطلب من موسى-عليه السلام-مواجهتها، والتي تمثل العنفوان على مرّ التاريخ في التردي والعتوّ والطغيان، حتى غدا الظلم وصفاً يوصفون به، وسَمْتاً يعرفون من خلاله، ليغدو البديل عن اسمهم ومسماهم ونسبهم[٥٢٥]، لتنساب على إثر ذلك المشاعر الطبيعية التي تعتري الفرد الإنسان في مثل هده الحالة، إنه يطالب بمجابهة من ادّعى الألوهية وأشربت القلوب خوفاً ومهابة منه[٥٢٦]، فما يفتر أن ينطق لسانه"قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿١٢﴾ وَيَضِيقُ صَدۡرِي وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِي فَأَرۡسِلۡ إِلَىٰ هَٰرُونَ ﴿١٣﴾ وَلَهُمۡ عَلَيَّ ذَنۢبٞ فَأَخَافُ أَن يَقۡتُلُونِ ﴿١٤﴾

"{الشعراء} هي ذاتها العوائق التي تعتري البناة والموجهين على طول الدرب الشائك المرير..خوفٌ من التكذيب، وصدٌّ وإعراضٌ واتهام ومكائد يضيق معها الصدر ويغتم الفؤاد، فتنقبض الروح، ويتلجلج تبعاً لانقباضها اللسان، فيمسك عن انطلاقته في التعبير، وإفصاحه عن الغرض المطلوب[٥٢٧].

ولكن أنّى لكليم الله-وهو الأنموذج الأمثل-الذي تسعى القصة من خلال طرحها الواقعي، وملامستها الحقيقة كما هي، أن يكون تَعلُّله ذاك هروباً أو نكوصاً، ولكنه التعليم والإرشاد، فهذه المشاعر الطبيعية التي تعتري النفوس حين تواجه بثقل المهمة الملقاة على عاتقها لا يسلم منها القادة والموجهون الذين تعقد على مناكبهم أماني الأمة وآمال الأجيال، ولكنه الخوف الذي يدفع إلى مزيد من الإبداع والتفكير، الخوف الذي يلد الخطوات والوسائل، وينتج الحلول، فيلقي بصاحبه في أتون الصراع قويّاً رغم خوفه، ثابتاً رغم إنسانية مشاعره، لأنه واثق الخطو وثوقه بمن يسعى إليه، مولاه سبحانه.

---

[٥٢٥]-ينظر:الزمخشري،ج٣،ص٣٠١

[٥٢٦]-ينظر:أبو حيان،ج٧،ص٣

[٥٢٧]-ينظر:ابن عطية،ج٥،ص١٢٨،وينظر:الماوردي،ج٤،ص١٦٦،وينظر:الألوسي،ج١٠،ص٦٥

لقد تلقى موسى-عليه السلام- الأمر الرباني بالنهوض بأمته، فعبّر عن مشاعره كما هي، ملتمساً المعونة[٥٢٨]، دالاً بذلك على استسلامه واسترساله بين يديْ آمره سبحانه، متلقياً إياه بالسمع والطاعة[٥٢٩]، جاعلاً من طلبه رفقة أخيه هارون له في رحلة نهضته بأمته إشارة إلى الأجيال اللاحقة على أهمية الصحبة والأخوة الربانية، بما يكتنفها من صدق الانتماء، ووضوح الهدف، وتجرد الهوى.

لقد خطَّ موسى-عليه السلام- للأمة من بعده وسائلَ أربع تعينهم على النهوض والإقدام، اثنان ذاتيان انشراح الصدر الذي به تُقابل كل الصعاب، وتيسير الأمر الذي تقوى به النفس على أداء المهمات، وأما الثالث فالوسيلة التي لابد منها للمواجهة، اللسان، موطن الإقناع، فحسن نطقه فضيلة عظيمة وموهبة جسيمة، ليأتي العامل الأخير، المؤازرة والتي لا غنى عنها ولا مضيّ دونها[٥٣٠].

"إن البشرية لا تستجيب عادة لمنهج مقروء أو مسموع، وإنما تستجيب لمنهج حيّ متحرك، ممثَّل في حياة جماعة من البشر، متَرجَم إلى واقع تراه العين، وتلمسه اليد، وتلاحظ آثاره العقول[٥٣١]".

هذا الواقع الذي تسعى الآيات من خلال رسمها الدقيق إلى إيجاده بين يديْ أبنائها، محققين صورة يكونون من خلالها نماذج حية مرئية متحركة قادرة على التأثير بالفعل دون القول، والإنتاج دون التنظير.

لقد تبدت مظاهر الخوف على موسى أربع مرات، حال خروجه مهاجراً، وساعة تلقيه الأمر بالتبليغ، ولحظة المواجهة خوف القتل بالذنب القديم، وعند اشتداد الأزمة في ميدان التحدي حين"**أوجس في نفسه خيفة**"لتكون هذه اللمحات إشارة إلى واقعية الطرح القرآني، وواقعية التطبيق الرباني في تعامله مع نفوس عباده، مثبتاً أن هذه القصص لم يؤمر بتطبيقها أفراد بلغوا درجة من المثالية المجردة التي لا وجود لها

---

[٥٢٨] -ينظر:الزمخشري،ج٣،ص٣٠٢

[٥٢٩] -ينظر:الألوسي،ج١٠،ص٦٥

[٥٣٠] -ينظر:النيسابوري،ج٤،ص٥٣٦ ،**وينظر:الشنقيطي،ج٨،ص٤٧ - ٥٠ ،وينظر:الزحيلي،التفسير المنير،ج١٦،ص٢٠٣**

[٥٣١] -ينظر:قطب،الإسلام ومشكلات الحضارة،ص١٨٠

على أرض الواقع، وإنما دقة واقعيتها تكمن في"تصويرها للناس وكشفها عن دخائلهم، وتحليلها فكرهم وسلوكهم، انطلاقاً من معطيات الواقع لا من العلم الإلهي فقط[٥٣٢]".

المبحث الثالث:مرونة التطبيق.

تأتي مرونة القصة القرآنية من مرونة الأسلوب القرآني في سياقاته جميعاً، تلك الخاصية التي تمنح كتاب الله مزية الصلاحية المستقبلية، وتجعله بسعة دلالاته الكتاب الخالد الذي تزدحم عليه الوفود لتصدر عنه ريّانة راضية، دونما تصادم أو تناقض[٥٣٣]، هذه المزية التي تنطلق بالقصص القرآني خارج إسار الزمان والمكان ليكون ذا دلالات كبرى على حركة التاريخ، ببعده عن التفاصيل والجزئيات الموقوتة، كي يمتد ويمتد شاملاً أكبر قدر من الوقائع، ملامساً أكبر عدد من المعاني[٥٣٤].

على أن ذلك لا يمسُّ مطلقاً ثبات الهدف الذي يسعى النص لتأصيله، فديمومة هذا الهدف ليست حكراً على آليات محددة للتفاعل مع مستجدات الواقع، وإنما يتعامل معه بمرونة ويسر تمكنه من تحقيق ذاته بأشكال متعددة ضمن أطر واضحة ومعالم ثابتة، مثبتاً بذلك فاعليته واستمراريته، مع الاحتفاظ بأصالته ووضوحه.

هذه المعاني التي يعانق فيها النص أصالة المورد وثبات الغاية، تَجَدُّد الواقع وتَغيُّر الملابسات، عرض لها علماؤنا في مباحث أطلقوا عليها قواعد أصول الفقه، والتي نستجلي من خلالها حقيقة مرونة هذا الدين، الذي تقف بين يديه المذاهب شرقيها وغربيها خجلة واهية، وهي تلمح عظمته في كل منعطف، وعند كل جيل.

وسأحاول أن أضع يدي من خلال مشاهد ثلاثة أعرض لها بعضاً من هذه القواعد كرمز للمرونة، وعلامة جودة فائقة على خلود هذه المعاني متمثلة في نصوص هذا الكتاب المعجز من خلال قصصه، التي هي بعض آيه..

---

٥٣٢ -ينظر:فارس،أحمد محمد،**النماذج الإنسانية**،ص٦٧

٥٣٣ -ينظر:الشحود،علي بن نايف،**الإعجاز اللغوي والبياني في القرآن**،ص٢٥١

٥٣٤ -ينظر:خليل،**التفسير الإسلامي**،ص١٠٩

المشهدالأول: إبراهيم عليه السلام

"الضرورات تبيح المحظورات"

قَالُوٓاْ ءَأَنتَ فَعَلۡتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلۡ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمۡ هَٰذَا فَسۡـَٔلُوهُمۡ إِن كَانُواْ يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾ فَرَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ فَقَالُوٓاْ إِنَّكُمۡ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ نُكِسُواْ عَلَىٰ رُءُوسِهِمۡ لَقَدۡ عَلِمۡتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ أَفَتَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَا يَضُرُّكُمۡ ﴿٦٦﴾ أُفّٖ لَّكُمۡ وَلِمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿٦٧﴾ {الأنبياء}

وكما أن الضرورة تقدر بقدرها تبعاً للموقف والمرحلة، فإن منعرجات الطريق تضع السائر فيه أمام معضلة يضطر معها إلى اختراق معهود، دون أن يهوي بثباته بعيداً عن إيمانه، ذلكم أن ثبات قِيَم الدين في السلوك لا يعني جمودها، فَتَغيُّرها تبعاً لحاجات الواقع المتغير ضمن إطار القيم ذاتها هو سبيلها لتحقيق نفسها بين الناس[٥٣٥]، أو لعلّ تلوّنها يكون المطرقة التي تدك عروش الوهم والتقليد في قلوب المحيطين به لتصنع منهم ما يُصلح مستقبلهم، تلكم هي دواعي الخليل إبراهيم-عليه السلام-وهو يخرق أفئدة قومه قبل أسماعهم **"بل فعله كبيرهم هذا"** وهم يدركون تماماً عن أي مفهوم يتكلم، إنه يشير إلى صنم صنعوه بأيديهم، وإله تعبَّدته قلوبهم، مدركةً جوارحهم بطلانه، غير متجرئة عقولهم على نكرانه، "فقال قولته مكيدة منه لهم[٥٣٦]"، أو "موعظة بين

---

[٥٣٥] -ينظر:الترابي،**الإيمان بالله**،ص١٦٣.

[٥٣٦] -ينظر:ابن أبي زمنين،**مختصر تفسير يحيي بن سلام**،ص٤٣١.

أيديهم[٥٣٧]"، ليقولوا إنهم لا ينطقون ولا ينفعون ولا يضرون فيدفعهم بالحجّة الآتية من اعترافهم، وقد جوّزت الأمة فرض الباطل مع الخصم ليرجع إلى الحق[٥٣٨]، لتثبت هذه المبادئ السنية قدرتها على البقاء والارتقاء معاً، فبقاؤها في نصوصها وأصولها لا تحول دونها ودون قدرتها على التفريع والتنويع بمرونة تؤهلها للتكيف مع سير الزمان[٥٣٩]، مراعية المصالح أيّاً كان نمط التغيير الجاري عليها ضمن أطر وقواعد كلية، تندرج تحتها كل ما يمكن من الجزئيات التفصيلية[٥٤٠].

هذه الملامح لمرونة الفهم هي التي يسَّرت لصاحبها مرونة في التطبيق، وعاها الجيل الفريد على أكمل صورة وأتمها، فلم يقفوا عند حدود الكلمات متمسكين بأهداب الألفاظ، وإنما اتخذوا من عمق ثقتهم وفهمهم لطبيعة هذا الدين وتحقيق الغاية التي يسعون لتثبيت أركانها، منطلقاً لتحركاتهم وسرّاً لسلوكياتهم، فهاهو على بن أبي طالب يجيب حين سئل عن قول رسول الله-صلى الله عليه وسلم-**"غيّروا الشيب ولا تشبهوا باليهود"**[٥٤١]إنما قال رسول الله ذلك والدين قُلّ-أي المسلمون قلة-فأما الآن وقد اتسع نطاقه فامرؤ وما اختار[٥٤٢].

أما معاذ بن جبل فقد أرسله رسول الله إلى اليمن يأتيه بزكاتها، فطلب من أهلها أن يعطوه قماشاً بدل الزكاة، معللاً ذلك بقوله:إنه أهون عليكم وخيرٌ للمهاجرين بالمدينة[٥٤٣]، خاطّاً لمن بعده من الأجيال منهجية تفكير المبصر الذي يدرك حاجة أمته فيسعى إلى سدّها، عاملاً على رأب صدعها، حيث لم تمنعه إقامة الحبيب القائد-صلى الله عليه وسلم-بينهم-والذي كان يحثهم على إعمال الفكر- من انطلاقة تفكيره لأنه وعى حقيقة هذا الدين، وعمق ماتدعو إليه نصوصه، إنها مبادئ تسعى إلى تكوين هذه النماذج

---

[٥٣٧]-ينظر:الطبري،ج٢١،ص٦٤.

[٥٣٨]-ينظر:القرطبي،ج١١ص٣٠٠،وينظر:ابن كثير،ج٧،ص٤

[٥٣٩]-ينظر:الأميري،**الإسلام وأزمة الحضارة**،ص٣٨

[٥٤٠]-ينظر:النجار،**فقه التدين**،ج٢،ص١٠٣

[٥٤١]-رواه الترمذي،ج٤،ص٢٣٢،وقال:حسن صحيح،وكذا النسائي في سننه،ج٨،ص١٣٧.

[٥٤٢]-ينظر:علي بن أبي طالب،**نهج البلاغة**، جمعه من كلامه السيد المرتضى، ص٦٨٣.

[٥٤٣]-البيهقي:**السنن الكبرى**،كتاب الزكاة،ج٤،ص١١٣

عميقة الفهم، بعيدة النظر، مرنة الحركة، سلسة السير، لتكون وحدها القادرة على النهوض وتحقيق الشهود.

المشهد الثاني: مؤمن آل فرعون

"الضرورات تُقدَّر بقدرها"

"وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَـٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ۖ وَإِن يَكُ كَـٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ ۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴿٢٨﴾ يَـٰقَوْمِ لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ظَـٰهِرِينَ فِى ٱلْأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأْسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا ۚ قَالَ فِرْعَوْنُ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٢٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَـٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ ﴿٣٠﴾"**{غافر}**

النهضة المنشودة لأي أمة من الأمم لن تجد الطريق أمامها ممهداً مذللا، وإنما لابد لها من بذل، ولابد للبذل من تبعات تترتب عليه، هذا الاستيعاب لمرحلية السير وتدرج الطريق، يضع البناة في دربهم الشائك أمام محكات وعوائق تستلزم منهم فهماً عميقاً، ومرونة خاصة في التعامل مع ما يعترضهم، دون أن يخرجهم ذلك عن دائرة الإطار العام والهدف الثابت الذي يسعون إليه ويدورون حول محوره، كما أن أصناف البناة واختلاف منابتهم من جهة، ومراكزهم في مجتمعاتهم من جهة أخرى، تتطلب لكل منهم نوعاً خاصاً من الحراك الذي يتمكن من خلاله القيام بالدور المنوط به وتحقيق

المطلوب منه على أكمل صورة يقدر الوصول إليها، دون أن يمسَّ معتقده أو يهتك متانة بنيانه الداخلي.

ومؤمن آل فرعون هو الأنموذج القرآني الذي كان له الدور العظيم والشأن البعيد في التصدي لخطط فرعون، هذا الموقف الذي خلّده القرآن الكريم مثبتاً رضى الله سبحانه عنه وعن أمثاله.

لقد مضى هذا المؤمن الذي أبهمت الآيات اسمه، مكتفية بالإشارة إلى أنه "رجلٌ مؤمن"، لتبرز أن الرجولة في الإيمان، أيّاً كان هذا المؤمن، في أيّ زمان وفي أيّ مكان، وبأيّ اسم وأيّ صفة[٥٤٤]، مضى حاملاً إيمانه في أعماقه، ذلكم الإيمان الذي ضربت معانيه في جذور فكره، فأدرك أن المسؤولية التي تنتظره-تبعاً للمكانة التي يشغلها والمنزلة التي يرتقيها[٥٤٥]-ليست بالهينة، وإنما تحتاج إلى حنكة وذكاء، وتخطيط ودهاء، فكتم إيمانه خوفاً من أن يبطش فرعون به كما فعل بالسحرة من قبله، فلا يتمكن من تحقيق ما أنيط به، وحمله على عاتقه من أمانة التبليغ، فالرجل لم يكن يريد الإيمان لنفسه وحسب، بل إنه كان يريد إن يكون داعية لفرعون وقومه جميعاً إلى الإيمان بمعتقده، ولو أعلن إيمانه بين يدي الطاغية لأخذت الأخير العزة بالإثم وأبى الاستماع إلى كلمة منه، لقد كان إيمانه راسخاً وثيقاً، بلغ مبلغ اليقين، فأقدم على الكتمان عن سياسة حكيمة وتدبير محكم[٥٤٦].

وتطوي لنا الآيات لحظة إيمان هذا الرجل، وزمن الكتمان الممتد الطويل، ذلكم الزمن الذي استغرق الجهد الجهيد في بث الدعوة وكسب الأنصار، ليكون من المقربين من الفرعونية الطاغية فئة لا يستهان بها آمنت بالله، وأخذت على نفسها عهد الدفاع عن الفكرة وصاحبها، فيغدو كتمان هذا المؤمن الحكيم رفقاً بقومه[٥٤٧]في استدراجهم للنور، وكشف ظلمة الطغيان وغشاواتها عن قلوبهم وعقولهم.

---

[٥٤٤]-ينظر:الشعراوي،ص٥٣٨٢.

[٥٤٥]-قيل أنه كان وليّ عهد فرعون، و صاحب الشرطة،ذكره:أبو حيان،ج٥،ص٢٥١،الألوسي،ج١٢،ص٣١٧.

[٥٤٦]-ينظر:الطبري،ج٢١،ص٣٧٥،وينظر:الخطيب،عبد الكريم،**التفسير القرآني للقرآن**،ج١٢،ص٢٢٦،القاهرة:دار الفكر وينظر:الزحيلي،**التفسير المنير**،ج٣،ص٨٣.

[٥٤٧]-ينظر:الماوردي،ج٥،ص١٥٢.

لقد بالغ المؤمن –بحكمته المثالية-في كتمان فكره وانتمائه، حتى وصفه القرآن بأنه من آل فرعون، على الرغم من الخلاف القائم حول هويته، أمصريٌّ هو أم إسرئيليّ؟!!ولكنها إشارةٌ تدلنا على قدرته الفائقة في إقناع من حوله من المجرمين أنه على دينهم وملتهم[٥٤٨] حتى يتحقق المراد وتُنشد الغاية.

إن الواقع لا يمكن أن يقابل بنظريات مجردة، ولا وسائل متجمدة، على أن تلك الحركة الدائبة والتجديد الدائم لن تخرج عن القواعد المحدودة والأهداف المرسومة[٥٤٩].

فما إن حانت اللحظة التي يجب أن تظهر فيها الحقيقة وينجلي بريق الفكرة، حتى برز المؤمن بقوة معتقده، وكياسة تفكيره، وحكمة تصرفه، طارحاً ما لديه ليثبت لنا الله سبحانه-على لسان هذا المؤمن-أن الدعوة إلى الحق لا تذهب سدى، وأنه لا بد من وجود من يدافع عنها، ويرد كيد الكائدين لها[٥٥٠]، وليس على الأجيال إلا أن تمضي قوية واثقة مؤمنة أن مدار الإيمان على القلب لا يُشترط سماع الآخرين له إن منعه مانع التقية[٥٥١]، دون أن يحول ذلك بينه وبين حسن المسلك، فهاهو المؤمن يذبُّ عن موسى بأحسن الوجوه، محاولاً تسكين الفتنة، مجتهداً في إزالة الشر[٥٥٢]" **وَإِنْ يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ (٢٨)**" مقدّماً ذكر احتمالية كذبه على صدقه تلطُّفاً في الاستكفاف عن استنزال الأذى[٥٥٣].

إن واقع الحياة الإنسانية بتجاربها الماضية، وملابساتها وأحوالها الجارية، هي المادة التي تُتخذ منطلقاً في تقدير الوجوه التطبيقية للمبادئ والأحكام والأفكار[٥٥٤]، لأجل وضع اللّبنة المناسبة في المكان والزمان المناسبين.

هذا الفهم لقاعدة"الضرورات تقدر بقدرها"وكون "المشقة تجلب التيسير[٥٥٥]" يقودنا إلى إدراك المرحلية والتدريج التي قامت عليها أصول هذا الدين العظيم، والتي

---

[٥٤٨]-ينظر:الألوسي،ج١٢،ص٣١٧

[٥٤٩]-ينظر:قطب:**المعالم**،ص٧٨-٧٩

[٥٥٠]-ينظر:حجازي،محمد محمود،**التفسير الواضح**،ج٣،ص٣٠١

[٥٥١]-ينظر:ابن العربي،محمد بن عبد الله:**أحكام القرآن**،ج٤،ص١٦٥٩،(ت:علي محمد البجاوي)،بيروت:دار المعرفة

[٥٥٢]-ينظر:الرازي،ج٢٧،ص٥٠٨

[٥٥٣]-ينظر:القرطبي،ج١٥،ص٣٠٧.

[٥٥٤]-ينظر:النجار،**عوامل التحضر**،ص٧٣.

يمكننا أن نستقي منها التدرج الكمي الذي يقتضينا تطبيق حكم قبل آخر، لا التدرج الكيفي الذي كان له زمانه وانتهى فيه*، فالمعتبر إنما هو مآلات الأحكام وما ترمي إليه من تحقيق المصلحة المرجوة وإن كان ذلك بصور متعددة[٥٥٦]، لينفسح بهذا الفهم المرن الممتد أمام الأجيال القدرة على الانطلاق من بؤرة معتقداتهم، ومرتكز يقينياتهم، نحو الكون والحياة والأحياء، مشيّدين نماذج حضارة إيمانية، دون أن يعيقهم عائق أو يحول دونهم حائل.

المشهد الثالث: هارون عليه السلام

"دفع المضار مقدم على جلب المنافع"

قَالَ يَـٰهَـٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓا۟ ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِ ۖ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِى ﴿٩٣﴾ قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِى وَلَا بِرَأْسِىٓ ۖ إِنِّى خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِى ﴿٩٤﴾" {طه}

وفي الإطار ذاته الذي يحتاجه الجندي في ميدان البناء والتعمير، إطار المرونة الذي يتيح له حرية الحركة وتنوّع التفكير وسهولة اتخاذ القرار الذي لا يخرج به عن المحور العام، ويمكنه في نفس الوقت من الإقدام على الفعل الذي يتناسب مع خصوصية الحالة التي يعايشها، يتجلى لنا موقف هارون عليه السلام مع عبدة العجل من قومه، وقد استأمنه موسى عليه السلام عليهم قبل خروجه إلى جبل الطور، وكان من أبرز السمات التي يتصف بها هارون اللين، والتي حدت به إلى الاحتياط في تعامله مع شذوذ الفطرة التي سيطرت على قومه بعد غياب نبيهم عنهم خوفاً من حدوث العصيان[٥٥٧].

---

٥٥٥ -**ينظر: خلاّف، عبد الوهاب**، علم أصول الفقه، ط٧، ص٢٤٧-٢٤٨، استانبول، تركيا: المكتبة الإسلامية.

* -التدرج الكيفي الذي يستوجب الوجوب والمنع، بالانتقال من الأخف إلى الأشد.

٥٥٦ -ينظر: النجار، **فقه التدين**، ج٢، ص١٣٠، ٩٢.

٥٥٧ -ينظر: ابن عاشور، ج٨، ص٢٧٢.

لقد كان هارون أهدأ أعصاباً وأمْلك لانفعاله من موسى[٥٥٨]، فقدَّر-بناءً على مؤهلاته الشخصية ونظرته الخاصة-أن الإنكار عليهم باتخاذ موقف عمليّ، والخروج بمن بقي على إيمانه منهم، سبيلٌ إلى انقسامهم وتفرقهم واقتتالهم[٥٥٩]، والذي قد ينتهي بالقضاء على خلية الإيمان بينهم، ليكون في فعله ذاك صدىً تتردد أمواجه في الدنيا كلها عبر التاريخ بمختلف أزمانه[٥٦٠]، مثبتاً أن الفرقة سبيل الفناء، ففيها تكون المجادلة والمحادّة والمنازعة والمهاترة[٥٦١]، والتي تستحق لأجل تجنبها انتظار موسى عليه السلام ليرجع محافظاً بذلك على وحدة الأمة، مؤكداً أن فكرة الحق هي فكرة أمة لا فكرة تشعبات وتبعثرات[٥٦٢]، وإن كان ذلك على حساب تجاوز بعض الأمر، والذي يستجرّ غضب الآمر البعيد عن الميدان.

إن التغيُّرات في حياتنا الفردية والاجتماعية كثيرة، وضبطها ضمن إطار الدين يحتاج إلى عمل اجتهادي مستمر[٥٦٣]، فهارون قدّر أن إقامته في قومه-رغم منكرهم-خيرٌ للأمة في مجموع مستقبلها وحاضرها، في الوقت ذاته الذي اختلف رأي موسى عن رأي أخيه عندما أقبل عليه يجرّه من رأسه ولحيته ناسباً إليه العصيان[٥٦٤]، مندفعاً بغضبه لله ودينه، دفعته إلى اتخاذ موقف إجرائي يختلف تماماً-تبعاً لمزاياه الشخصية-عن موقف أخيه، إلا أن هذين الفهمين كلاهما تحتاج إليه الأمة، ويحتاجه أبناؤها، في مراحل سيرهم الطويل نحو النهوض والارتقاء.

على أننا نلمح أُطُر هذا التشعب أيضاً في فهم المتأملين لهذا المشهد القصصي، والذي حدا بالمفسر الكبير(ابن عاشور)إلى تأطير هارون عليه السلام في دائرة التقصير، وعدم إعذاره في اجتهاده، والذي يجعله-من وجهة نظر المفسر-مستحقاً للتأديب من قبل

---

[٥٥٨] -ينظر :قطب:**الظلال**،ج٤،ص٢٣٤٨.

[٥٥٩] ينظر :الأزدي،مقاتل بن سليمان،**يفسير مقاتل(ت ١٥٠)**،ط١،ج١٢،ص٣٣٩،(ت:أحمد فريد)،بيروت:درا الكتب العلمية وينظر :البغوي،ج٥،ص٢٩١،وينظر :الزمخشري،ج٣،ص٨٤

وينظر :القرطبي،ج١١،ص٢٣٩،وينظر : الخطيب،**تفسير القرآني للقرآن**،ج٨،ص٨٢١،وينظر :الزحيلي،**التفسير الوسيط**،ج٢،ص١٥٤٥.

[٥٦٠] -وينظر :الشعراوي،ص٥٧٤٦.

[٥٦١] -ينظر :أبو زهرة،محمد،**زهرة التفاسير**،ص٤٧٧٧.

[٥٦٢] -ينظر :السامرائي،فاضل،**لمسات بيانية**،ص٩٧.

[٥٦٣] -ينظر :النجار،**فقه التدين**،ج٢،ص٦١.

[٥٦٤] -ينظر :السمعاني،**تفسير القرآن**،ج٣،ص٣٥١،وينظر :القرطبي،ج١١،ص٢٣٧.

موسى عليه السلام، وذلك لوضوح الأدلة التي تحول دون قبول عذره في اجتهاده، وأن حفظ الأصل الأصيل للشريعة-وهي صلاح الاعتقاد-أهم من حفظ الأصول المتفرعة عنها من فرقة واختلاف ونزاع[٥٦٥]*.

هذا الاختلاف في الفهم هو مظهر جليّ من مظاهر المرونة التي تبرهن أن مرونة اللفظ تتيح مرونة الفهم، ومن ثمّ مرونة التطبيق، هذا من ناحية ومن ناحية أخرى مرونة هذا الدين متمثلا في دستوره العظيم، وضمن إطار خصوصية هذه الجزئية التي ندرسها من ميدان القصص الفسيح، فعلى الرغم من أنه فَهْمٌ لا يمكن إنكاره أو اتهامه-في إطاره العام بعيدا عن مسألة العصمة والخلاف الدائر حولها-إلا أنه في الوقت ذاته ليس الفهم الأوحد الذي يعقد عليه الأمر، وإنما هناك ثمة نظرات أخرى ووجهات تفكير لها وزنها وثقلها في ميادين الطرح، وهذه المعاني كلها مزايا وخصائص لا يمكن لبناء أمة أن يعلو بغض الطرف عنها.

المبحث الرابع: تأصيلية الفكرة:

تكمن أصالة القصة القرآنية في أصالة طرحها التي تمنحها الخلود الأبدي، مخترقة جُدُر الزمان وأسوار المكان،ممتدة بآفاق ما يكتنفها من نفع عظيم،وتأصيل وثيق، لتتمكن من إحداث الأثر البالغ في بوتقة من الحقيقة الخالصة، التي تكتسبها من التزامها الحق المطلق في كل لمحة من لمحاتها، وكل إشارة من إشاراتها بَعُدت أو قربت[٥٦٦]**"لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد"{فصلت٤٢}**

وتأتي هذه الأصالة امتداداً لأصالة منبعها الرباني الذي رفدت منه، لتعبر من خلاله الأزمان اللاحقة تاركة لأجيالها استخلاص العبر والمعاني متجددة دفاقة بما يعيد لكل أمة شبابها، ويبعث في كل روح حيويتها، حتى تستطيع أن ترقى في ظلال هذه المعاني الأصيلة نحو مرتبة الشهود التي لا يُقبل لها أقلّ منها أبداً**"لتكونوا شهداء على الناس"**

---

[٥٦٥]-ينظر:ابن عاشور،ج٨،ص١٧٢-٢٩٨.

*لم يعتمد المفسرون هذا المنطق،وإنما هو رأي تفرّد به ابن عاشور،ينظر مثلاً: عطية،ج٤،ص٤٢٢،والرازي،ج٢٢،ص٩٢، وأبو حيان،ج٧،ص٧،وص٣٧٣-٣٧٥،وقد أوردته هنا من باب إبراز مبدأ المرونة حتى على مستوى فهم النصوص.

[٥٦٦]- ينظر:قطب،**التصوير الفني**،ص١٠-١١

المشهد الأول:المرحلة التأهيلية للخلافة:

لا بد لكل صاحب مهمة من مرحلة تدريب يمرُّ بها قبل أن يشرع في أداء مهمته التي أنيط بها، وحينما تكون المهمة المُتَحدَّث عنها تعبيد الأرض لخالقها سبحانه فإن القائمين عليها لا بد لهم من مرحلة تأهيل عظيمة يدركون من خلالها الخطوات والملامح الرئيسة التي يتحركون وفقها، حتى لا تحيد بهم السبل مع طول المسير، فيجدون أنفسهم خارج الأطر التي رسمت لهم.

هذه المعاني تتجلى ساطعة في تجربة آدم-عليه السلام-في الجنة،التي أرادها الله-سبحانه لتكون له المحضن التأهيلي لبدء إعمار البسيطة.

يقول تعالى:" **وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ (٣٥)"{البقرة}**

وقد هيأ الله سبحانه لآدم في هذه الجنة كل المقومات التي تعينه على أهنأ عيش وأكرم حال دونما حاجة منه إلى سعي وبذل، تاركاً بين يديه رموزاً سيتعامل معها في رحلته الطويلة والتي يُعَدُّ لاستقبالها.

إنها الأوامر والنواهي، الأطر العامة التي تنضبط بها أحوال المجتمعات، والعوامل الخفيّة المانعة التي تحرص على الدفع باتجاه إفساد المسير، فأما الأوامر فمُثّل لها ب**"وكلا منها حيث شئتما"**وأما النواهي فمثل لهاب**"ولا تقربا هذه الشجرة"**لتأتي المنغصات في هيئة**"فوسوس لهما الشيطان".**

لقد خلق الله آدم ليكون خليفة في الأرض ومن ثمّ فعليه أن يتلقى من الله التكاليف المحصورة في(افعل)و(لا تفعل)ليدرك حقيقة مراد الله في تحقيق منهج يحكم حركة الحياة، ويضمن للخلافة في الأرض أن تؤدي مهمتها أداءً يُسعد الإنسان بها في الدنيا، ويَنْعُم بثوابها في الآخرة.

كان لابد لهذا الخليفة أن يُدَرَّب تدريباً عملياً على المنهج لا أن يتلقاه نظرياً[٥٦٧]،ليكون في ذلك توجيهاً لكل جيل على حقيقة نقطة البدء،وبؤرة الانطلاق،فلا بد من فئة تُعدُّ إعداداً خاصاً،وتتشرب الفكرة حتى تمشي في عروقها،فلا تنفك عنها إلا

[٥٦٧]-ينظر:الشعراوي،ص٢٨٣٦،وص٢٣٨٧،وص ٧٢٥٩.

بزهق روحها،على أن تتعرض لخبرات عملية في ميادين واقعية كي تعايش من خلال خبراتها مراحل الطريق،مدركة محلَّ العثرة كي تتجنبها،ومتعرفة إلى مواطن العبرة كي تستفيد منها،ومتجاوزة ما يعترضها مرتقية به،غير سامحة له بزلزلتها أوعرقلة سيرها.

المشهد الثاني:وضوح الهدف:

يقول تعالى مخاطباً موسى وهارون عليهما السلام:" **اذْهَبْ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي (٤٢) اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى (٤٣) فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى (٤٤)"{طه}**

إن الدقة والوضوح في تحديد الهدف العام البعيد لهو من أبرز الخطوات التي تستوقف السائرين في طريقهم، هذه الدقة التي تمكنهم من وضع الخطوات المرحلية لتجاوزها الواحدة تلو الأخرى من أجل بلوغ غايتهم ، وتحقيق مرادهم.

هنا في هذا المشهد القرآني يوجه الله سبحانه أنظار الأمة-من خلال نبيه موسى عليه السلام-إلى ضرورة معرفة المراد، معرفة أكيدة لا لبس فيه، فالهدف الرئيس هنا هو المواجهة بين الحق والباطل، الحق ممثلاً في موسى عليه السلام بالرسالة الربانية التي يحملها،والباطل ممثلاً في فرعون بالطغيان البشري الذي يمارسه.

وتأتي الآيات لتعطينا بصياغتها اللفظية مؤشرات عميقة على ضرورة بذل الجهد المكافئ للغاية بعد تحديدها مهما بلغت درجة صعوبتها، حتى لو وصلت حدَّ المستحيل، فلا بد من التجربة والمضيّ، ورفض العراقيل أيّاً كان حجمها.

إن كلمة(لعل)بما تحمله من معنى الترجي والطمع إنما هي خطاب من الله سبحانه لما تعقله عقول المخاطبين، وتفهمه نفوسهم، فالله سبحانه يعلم أنه لن يتذكر ولن يخشى[٥٦٨]، ولكنها الإشارة الربانية، فعلى الرغم من أن فرعون أعجوبة زمانه بالتسلط والاستبداد، إلا أن ذلك لم يدخله دائرة الاستثناء، فهو وأمثاله على مرّ التاريخ صخور عثرة عاتية تحول دون أي تقدم للأمة أو نهوض بها،ومن ثمّ فلا بد من العمل على إزالتها للتمكن من رأب الصدع الذي تخلفه،ومنه إلى الانطلاق للبناء والتعمير.

---

[٥٦٨]-ينظر:ابن أبي زمنين،ص٣١٤.

على أن الخطوة الأولى بعد المواجهة قد حددها المولى سبحانه ولن يقبل عنها بديلاً، إنها مرحلة القول اللين والكلمة الطيبة، والتي لن تجد سبيلها إلى القلوب إلا إذا غذيت بمشاعر الحب، والرغبة الصادقة في الإصلاح، دون أن يخالطها خداعٌ أو مداهنة أو نفاق[٥٦٩].

لقد أمر موسى بهذا ليكون مَن دونَه أحرى في الاقتداء به[٥٧٠]، وتأتي الخطوة المصاحبة**"ولا تنيا في ذكري"** والتي لن يتسنى للسائر متابعة طريقه بدونها، فهي وحدها التي تمده بالعون والقوة[٥٧١]أمام من طغى أيّاً كان لون طغيانه، سواءً في فكره، أم في سلوكه، أم في سياسته، فإن تجاوزه قدره وتمرده، وتجبره على العباد، وخروجه من دائرة العبودية مدَّعياً-بما يشرّع وينفّذ-الألوهية[٥٧٢]، كل ذلك كفيل بأن يجعل منه الهدف الأول الذي يُرام تعديله أو إزالته،أما قوله تعالى: **"لعله يتذكر أو يخشى"** فلإلزامه وأمثاله الحجة وإقامتها عليهم، وقطع المعذرة لهم، وجعلهم عبرة لمن يأتي بعدهم[٥٧٣].

إن هذا التوجيه الرباني يحمل بين طياته عبرة عظيمة بضرورة تحديد المراد وسلوك المسلك القويم لإنجازه، وعدم استعجال النتائج، فإن طريق البناء طويل يحتاج مع حنكته وحسن التخطيط له إلى صبر عظيم تتوارثه الأجيال، جيلاً يتلوه جيل.

المشهد الثالث: سنن إلهية:

القانون الإلهي هو الذي يحكم التاريخ، ويسيّر حركته، وليس إلى الخروج عليه من سبيل، لأنه منبثق من صميم التركيب البشري[٥٧٤]، وسنن الله في المجتمع جانب من جوانب الفكرة القرآنية التي يرفع العلم بها وإدراكها المجتمع المسلم إلى مكان الصدارة من الحياة[٥٧٥].

---

[٥٦٩] -ينظر:الشحود،**الإعجاز اللغوي**،ص١٣٦-١٣٧.

[٥٧٠] -ينظر:البغوي،ج٥،ص٢٧٥.

[٥٧١] -ينظر:القرطبي،ج١١،ص٢٠٠،وينظر:البقاعي،إبراهيم بن عمر(١٩٩٥)،**نظم الدرر في تناسب الآيات والسور**،ج٥،ص١٧(ت:عبد الرزاق غالب المهدي)،بيروت:دار الكتب العلمية.

[٥٧٢] -ينظر:القرطبي،ج١١ص١٩٩.

[٥٧٣] -ينظر:ابن كثير،ج٥،ص٢٩٤،البقاعي،ج٥،ص١٧.

[٥٧٤] -ينظر:خليل،**إعادة تشكيل العقل المسلم**،ص٥١

[٥٧٥] -ينظر:عرجون،محمد الصادق(١٩٧١):**سنن الله في المجتمع من خلال القرآن**،ط١،ص١٦،٢٧،جدة:الدار السعودية

وقد بُيّنت هذه الحقيقة بأشكال مختلفة، وأساليب متعددة، سواءً بالطريقة التنظيرية لتقريرها، أو من خلال نماذج وأمثلة تبرز مصداقيتها، لتتعانق النصوص جميعها على تأكيد ربانية هذه السنن التاريخية، بوصفها قراراً من الله سبحانه، وما على السائرين إلا التفكر فيها، واستنباط العبر التي تصوّب مسيرهم من خلالها[٥٧٦]، وهذا ما سأعمل على التجوال في رحابه من خلال المشاهد المطروحة.

أ-سنة التغيير:

فرعون:

يقول تعالى:" كَدَأۡبِ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيّٞ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴿٥٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمۡ يَكُ مُغَيِّرٗا نِّعۡمَةً أَنۡعَمَهَا عَلَىٰ قَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ﴿٥٣﴾"{الأنفال}

في هذه الآية بيان لسنة عظيمة من سنن الله في نظام الاجتماع البشري تبطل معها دعوات البشر ومعتقدات الجماهير الغافلة التي تظن أن مناط سعادة الأمم وقوتها وغلبة سلطانها بسعة ثروتها[٥٧٧]، فإن أحداً لم يبلغ ما بلغه فرعون من سطوة وقوة ومال، حتى تطاولت نفسه مدعية الألوهية، مستندة في ذلك إلى مظاهر الدنيا التي تملكها، لدرجة أنه أجرى الأنهار تحت قصوره، على أن هذه القوة المبهرجة على عظمتها لم تقف حائلاً دون جريان السنة الإلهية، لتفتك به وبأمثاله ممن يتطاولون على حساب المبادئ والقيم التي تربطهم بقواعدهم من الشعوب.

---

[٥٧٦] -ينظر:الصدر،محمد باقر(١٩٨١):**المدرسة القرآنية**،ط٢،ص٧٧،٥٣، بيروت:دار التعارف

[٥٧٧] -ينظر:رضا،محمد رشيد،**المنار**،ج١٠،ص٣٢.

هذا التغيير قد يجري على الأفراد كما أنه قد يجري على المجتمعات، وقد يطبق على الأنظمة الحاكمة، تماماً كما قد يجرف الشعوب الغافلة، على أنه قد يكون بإزالة الذات، وقد يكون بإزالة الصفات، فإما أن تذهب النعمة رأساً وإما أن تقل وتضعف[٥٧٨]، ومن ثمّ فإن مجرياته إما أن تكون من خلال قوى طبيعية منظورة-من سيول أو رياح أو صواعق وغيرها-أو قوى غير منظورة[٥٧٩]، بجنود لا نعلم عنها إلا اليسير كمثل أصول الأوبئة والأمراض التي تفتك بالأفراد والجماعات.

والقرآن الكريم يؤكد هذه الحقيقة من خلال آياته، يقول تعالى:"**ولكل أمة أجل فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون"{الأعراف٣٤}**فإن للأمم آجالاً تنتهي عندها وليس ذلك للأفراد فحسب، ذاك هو ميقات الوجود الاجتماعي لهؤلاء الأفراد[٥٨٠]بوصفهم أمة ذات كيان يجري عليها قدرٌ واحد وقانونٌ واحد.

وقد نلمح لهذا القانون أوجهاً ومجريات شتى، فقد يأتي على شكل هزائم ونكبات تحلُّ بهم لتصاغر الثقة والتوكل في أعماقهم، ومن ثمّ تحكُّم أعدائهم بهم واستخذاءهم واستذلالهم بعد العزّ والسلطان، وقد تكون فقراً وبواراً بعد السعة والغنى لجريهم وراء المتاع الزائل ولهاثهم خلف المعاني البائدة، ليفقدوا بحالهم ذاك المرشد الناصح ، والموجّه الأمين، وما ذاك إلا لتخليهم عن الانقياد الحق للحق[٥٨١].

إن المحتوى الداخلي للإنسان لهو القاعدة الأصل التي يرتفع على أساسها بنيان الوضع الاجتماعي، فخارج الإنسان يصنعه ما بداخله[٥٨٢]"ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمۡ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعۡمَةً أَنۡعَمَهَا عَلَىٰ قَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٣﴾

---

[٥٧٨] -ينظر:أبو حيان،ج٥،ص٣٣٧.
[٥٧٩] -ينظر:خليل،**التفسير الإسلامي**،ص١٢٧، ١٣١.
[٥٨٠] -ينظر:الصدر،**المدرسة القرآنية**،ص٥٦،٥٧.
[٥٨١] -ينظر:الماوردي،ج٢،ص٣٢٧.
[٥٨٢] -ينظر:الصدر،**المدرسة القرآنية**،ص٦٤،٦٥.

سبأ:

لَقَدۡ كَانَ لِسَبَإٖ فِي مَسۡكَنِهِمۡ ءَايَةٞۖ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٖ وَشِمَالٖۖ كُلُواْ مِن رِّزۡقِ رَبِّكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لَهُۥۚ بَلۡدَةٞ طَيِّبَةٞ وَرَبّٞ غَفُورٞ ١٥ فَأَعۡرَضُواْ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ سَيۡلَ ٱلۡعَرِمِ وَبَدَّلۡنَٰهُم بِجَنَّتَيۡهِمۡ جَنَّتَيۡنِ ذَوَاتَيۡ أُكُلٍ خَمۡطٖ وَأَثۡلٖ وَشَيۡءٖ مِّن سِدۡرٖ قَلِيلٖ ١٦ ذَٰلِكَ جَزَيۡنَٰهُم بِمَا كَفَرُواْۖ وَهَلۡ نُجَٰزِيٓ إِلَّا ٱلۡكَفُورَ ١٧"{سبأ}

كما أن فرعون ذُكّرَ من قِبَل موسى فكفر فأُخذ بذنبه، كذا سبأ، حيث بُسطت لهم نعم الأرض وخيراتها فأعرضوا، فأُرسل عليهم سيل العرم ليكونوا مثلاً لسلب النعمة عن المعرضين[٥٨٣].

لقد كان حالهم في مساكنهم ونظام بلدهم والحضارة العظيمة التي استطاعوا تشييد بنيانها بما حباهم الله به من نعمة الماء التي أحسنوا استغلالها، وبنوا لها السد العظيم الذي غدا مصدر فخر واغترار بالنسبة لهم، ناهيك عما أثمر ذلك من بساتين عامرة بثمارها اليانعة، حتى أصبحت الخضرة بجمالها الريان رمزاً لهذه الحضارة المزدهرة[٥٨٤] التي شاع صيتها وخبرها في آذان الدنيا، كمثل حضارة الفراعنة، أقول:لقد غدا ذلك كله آية، آية بتبدل الأحوال وتقلُّب الزمان، وآية على تصرُّف الله فيما يعطي ويمنع[٥٨٥].

---

[٥٨٣]-ينظر:ابن عاشور،ج٢٢،ص٣٣.

[٥٨٤]-ينظر: الزمخشري،ج٣،ص٥٧٥،وينظر:ابن عاشور،ج٢٢،ص٣٤،وينظر:الشعراوي،ص٢٤٣٤.

[٥٨٥]-ينظر:ابن عاشور،ج٢٢،ص٣٤.

إنها إشارات ضوء أحمر تنبه السائرين في اندفاعهم نحو العلوّ، أن ثمة معانيَ لا بد أن تبقى وضيئةً مشرقة، فلا تغرَّنكم استجابة أسباب الحياة وسننها الكونية فتنسون في زحمة المسير حقيقة المسبب[٥٨٦]، وتنظرون إلى ما يمسّكم من يسر بعين الاستحقاق[٥٨٧]، فإن ذلك نذير شؤم بالزوال والفناء، أو على الأقل بالنكوص والانهزام، والذي شدّ ما يصعب النهوض منه ونفض تبعاته.

يقول سائح مسلم في ديار الأندلس:"لقد قامت لهم دولة هنا عندما كانوا لله خلائف،ثمّ طردوا منها لما أصبحوا على ثراها طوائف[٥٨٨]".

ب- سنة التدرج والإمهال:

يقول تعالى:**"**لَقَدۡ أَخَذۡنَآ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقۡصٖ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ ١٣٠ فَإِذَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡحَسَنَةُ قَالُواْ لَنَا هَٰذِهِۦۖ وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةٞ يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓۗ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمۡ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ١٣١**"{**الأعراف**}**

هذه السنة سيتم عرضها في خطين متوازيين، أولهما إمهال الله سبحانه للبشر في تحرُّفهم قبل أخذهم، وثانيهما في مرحلية السير التي يجب على البناة انتهاجها للوصول إلى هدفهم.

---

[٥٨٦]-ينظر:الشعراوي،ص٣٠١٩.

[٥٨٧]-ينظر:القشيري،ج١،ص٥٥٩.

[٥٨٨]-ينظر:الغزالي،محمد(١٩٨٤):**علل وأدوية**،ط١،ص٣٧،قطر: دار إحياء التراث الإسلامي.

في هاتين الآيتين تتجلى سنة من سنن الله في خلقه فلا يأخذ قبل أن يُحذّر، ويمهل، ويطول أمد الحلم، حتى إذا أخذ قهر وغلب سبحانه، لتكون من بعد مصاعب شداد، وابتلاءات جسام، وإهلاك يعمُّ ولا يستثني، وتكمن هذه المعاني كلها في"**ولقد أخذنا**[٥٨٩]".

على أن رحمة المولى بعباده تتجلى بعدم إهلاكهم دفعة واحدة، وإنما على مراحل، لعلهم يرشدون فيعودون ويضرعون[٥٩٠]، ولكن حقيقة التاريخ تثبت أن الأمم لم ترعو عن غيّها-إلا ما ندر-ولم تعقل رسالة ربها فتصوّب مسيرها من خلال هذه الطرقات الموجعات بين الفينة والأخرى، بما يحلُّ عليهم من مصائب ونكبات، تماماً كحال المجتمعات اليوم التي تبتلى بالأوبئة والموبقات، بأشكالها المتعددات، فمن كساد اقتصاديّ، إلى تمزق اجتماعيّ، فتفكك أسريّ، وذلّ سياسي، وهوان إنساني، وفقر روحيّ وماديّ، ومقابلة ذالك كله بالغرور، غير متذكرين أنهم خلفاءُ على الأرض، رغم"أن الناس في حال الشدة أضرع خدوداً وألين عطافاً،وأرقّ أفئدة[٥٩١]"، إلا أنهم يمضون مغترين معتقدين أنهم بقوتهم قادرين على تحويل مجرى التاريخ، وخرق سننه الماضية، ليحق عليهم المحق، سنة الله، ولن تجد لسنة الله تحويلا، ولن تجد لسنة الله تبديلا.

---

[٥٨٩]-ينظر:أبو حيان،ج٥،ص١٤٦،ابن عاشور،ج٨،ص٢٤٨

[٥٩٠]-ينظر:الألوسي،ج٥،ص٣١،الشعراوي،ص٣٠١٨

[٥٩١]-الزمخشري،ج٢،ص١٤٤

لقد جعل الله سنة التدرج حاكمة في كل ميادين التغيير، سواءً تقدماً وإصلاحاً، أم تخلُّفاً وتراجعا وانحدارا، فالتغيير الذي يصيب الاجتماع الإنساني إنما هو دورات متتاليات، صعوداً نحو الإصلاح، أو هبوطاً باتجاه الفساد، يتعاقب فيها العدل والجور[٥٩٢].

هذا التدرج في التغيير فقهٌ أدركه عمر بن عبد العزيز تمام الإدراك، وهو يسعى جاهداً لرفع أمته كي تبلغ المكانة التي تليق بها على جميع الأصعدة، فكرياً ومادياً وعسكرياً، حيث أثر عنه قوله:"لو كان كل بدعة يميتها الله على يديّ،وكل سنة ينعشها الله على يديّ ببضعة من لحمي،حتى يأتي آخر ذلك على نفسي كان في الله يسيراً[٥٩٣]"،بل إنه حرص على غرس هذه المعاني العميقة القادرة على إخراج خير أمة في ولده عبد الملك، الذي يتعجل-بروح الشباب الثائرة في أعماقه-دوران عجلة التغيير والإصلاح، حتى خاطب أباه يوماً قائلاً: "ياأبت مالك لا تنفذ في الأمور، فوالله لا أبالي في الحق لو غلت بي وبك القدور "ليأتيه صوت الحكمة من أبيه تقرع آذان الأجيال اللاحقة "لا تعجل يا بني، فإن الله تعالى ذم الخمر في القرآن مرتين وحرّمها الثالثة، وأنا أخاف أن أحمل الناس على الحق جملة فيدعوه، وتكون فتنة"[٥٩٤]

هذا الوعي بسنة الله في التدرج في مجال الإصلاح والتغيير يُلزم السائرين بضرورات التعايش-مؤقتاً-مع الظلم والجور والفساد، حتى يحين الحين فيَحل التغيير التدريجي محلها بدائل العدل والإصلاح.

---

[٥٩٢] -ينظر:عمارة،محمد(٢٠٠٣):**في فقه الحضارة الإسلامية**،ط١،ص٧٨،مكتبة **الشروق الدولية**.

[٥٩٣] -**عمارة،محمد(١٩٨٥):عمر** بن عبد العزيز(ضمير الأمة وخامس الراشدين)،ص٢٢٦،بيروت:دار الوحدة.

[٥٩٤] -ابن عبد ربه،أحمد بن محمد(١٩٨٢):**العقد الفريد**،ج٤،ص٤٠،القاهرة.

يقول عمر بن عبد العزيز في معرض هذا الأمر: "إني لأجمع أن أخرج للمسلمين أمراً من العدل فأخاف ألا تحتمله قلوبهم، فأُخرج معه طمعاً من الدنيا، فإن نفرت القلوب من هذا سكنت إلى هذا[٥٩٥]".

هذا الفقه تحتاجه الشعوب الثائرة بقياداتها وهي تشقُّ طريقها وسط عباب الفساد، تحطم عنفوانه، كي يتحرك أفرادها واثقي الخطو، مطمئني المصير، دون أن يفجأهم في الطريق طلقات الظلم تعيدهم إلى جحور الذل، وغيران الخوف، يبحثون عن فتات يقيمون به أودهم، غير عابئين بالانشغال بأهم بناء يُخَلَّف من بعدهم ميراثا، بناء الأمة بسمتها الحضاري المميّز لها بين الأمم.

المبحث الخامس:حقيقية المضمون

إن ثمرة نفع القصص القرآني تكمن في مجيئها وفق الحياة التي يحياها الناس دون أن تخرج على مألوفها، إنها ليست خيالية من عالم الوهم، لأجل ذلك ترقى إلى رتبة السنة الكونية في رسمها المعالم وطرحها الوسائل.

وسنلقي الضوء تحت هذا العنوان على مشهد من مشاهد التخاذل والانهزام الذي اتسمت به أمة بني إسرائيل، والتي شاء الله لها أن تكون عظيمة قوية، وأبت على نفسها إلا الانتكاس والارتكاس، مُخَلّفة وراء ظهرها كلّ ما حباها الله به من مزايا، وألقى بين يديها من قدرات تؤهلها أن ترقى مرتبة السيادة والقيادة، لتغدو منبعاً لكل معنى من معاني السوء على مستوى الفعل، أو رتبة الخلق، أو في عوالم الشعور.

---

[٥٩٥]-ابن عبد ربه،**العقد الفريد**،ج٢،ص٢٣٢

يقول تعالى:"وَإِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِۦ يَٰقَوۡمِ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ جَعَلَ فِيكُمۡ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكٗا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمۡ يُؤۡتِ أَحَدٗا مِّنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٢٠ يَٰقَوۡمِ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡأَرۡضَ ٱلۡمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِي كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمۡ وَلَا تَرۡتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدۡبَارِكُمۡ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ ٢١ قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوۡمٗا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدۡخُلَهَا حَتَّىٰ يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا فَإِن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ ٢٢ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمَا ٱدۡخُلُواْ عَلَيۡهِمُ ٱلۡبَابَ فَإِذَا دَخَلۡتُمُوهُ فَإِنَّكُمۡ غَٰلِبُونَۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ٢٣ قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدۡخُلَهَآ أَبَدٗا مَّا دَامُواْ فِيهَاۖ فَٱذۡهَبۡ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ٢٤ قَالَ رَبِّ إِنِّي لَآ أَمۡلِكُ إِلَّا نَفۡسِي وَأَخِيۖ فَٱفۡرُقۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ ٢٥ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيۡهِمۡۛ أَرۡبَعِينَ سَنَةٗۛ يَتِيهُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِۗ فَلَا تَأۡسَ عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ ٢٦ {المائدة}

إن قيمة المرء الحقيقية وقوته الفذة تكمن في ذاته وثقته بنفسه، فإذا ما تعرضت هذه الثقة للاهتزاز، وشابها الخور، عندها يمكننا أن نحكم على هذا الفرد-وكل من كان على شاكلته-بالفناء، إلا أن يتغمد نفسه- بمعية من ربه-برحمة يربأ فيها بذاته عن قاع

الانهزام النفسي الذي أحاطه، وإذا كانت هذه المشاعر السلبية هي سَمْت أمة، عندها يمكننا القول إنها أمة ميتة، وإن كانت تحيا بمظهر الأحياء وتعيش معهم.

لقد تلبّست هذه المشاعر الواهية قلوب قوم موسى وهو يسير بهم نحو أرض العزة، ليخطّ معهم وبهم معالم أمة الحضارة وفق المبادئ العليّة، كان يتلمَّس في أعماقهم مواطن الأمل فيطرقها**"يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ (٢٠)"**لعل بإحيائها يستنقذ فيهم مارداً يقدر على تحقيق المراد، ليلقي الأمر**"ادخلوا الأرض المقدسة"**محذراً من مغبة الانحراف والعصيان **"ولا ترتدوا على أدباركم فتنقلبوا خاسرين"** ولكنها الهزيمة النفسية التي ضربت أركانها في أعماقهم باستعظامهم قوة عدوهم، وخوفهم منه، حتى خرج وصفه على ألسنتهم بالجبار الذي يجبر الناس على ما يريد وفق ما يشاء **"إن فيها قوماً جبارين وإنا لن ندخلها حتى يخرجوا منها فإن يخرجوا منها فإنا داخلون"** إنها نقيصةٌ يسجلها القرآن عليهم محذراً منها كلّ من يسمعها، إنهم يطلبون المكاسب وإحراز النجاحات دونما ثمن أو عطاءات[٥٩٦]، بل يشككون في وعد الله لهم **"فإن يخرجوا منها"** بجلافة وعراقة طبع في التكذيب[٥٩٧]، ليتوالد من هذا الفهم أمة الكسل التي تأخذ دون أن تعطي، وتطلب دون أن تسعى، ثم تجلس مجالس النائحات تندب حظها على ما فات.

ووسط هذا الزّحام المميت من وهدة العزائم، وخور الطاقات، ينبعث صوت الخير الذي كتب الله له البقاء أبدا **"قال رجلان من الذين يخافون أنعم الله عليهما"** فالأمم التي تمارس الشر وتحيا به، وتسعى لأجله، لا يمتنع وجود عناصر الخير فيها أبداً، لقد أنعم الله على هذين الرجلين بحسن الفهم[٥٩٨]لمهمتهم ونقاء الإدراك لسر وجودهم، وصحة المسلك لتحقيق خلافتهم على أرض الله، هذا الفهم الذي حُرمته أمتهم، فقاموا بإخلاصهم بين يدي قائدهم، وشهود نبيهم، يدعون ويبشرون وينذرون، يبثون الأمل، وينفثون في الجسد الميت روح الهمة، يجلّون الحقيقة أمام أبصار من عميت عليهم رؤيتها، هذا الفهم هو الذي دفع المقداد يوم بدر إلى أن يقول: **"يا رسول الله إنا لا نقول لك كما قالت بنو**

---

[٥٩٦]-الكيلاني، **خصائص الحضارة الإسلامية**، ص١٠٨.

[٥٩٧]-البقاعي،ج٢، ص٤٢٦.

١-ينظر:الشعراوي،٢١١٥-٢١١٦.

إسرائيل لموسى"فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون"ولكن امض ونحن معك"[٥٩٩]

لقد تابع الرجلان حثهما لقومهما**"ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (٢٣)"** فلابد للمرء من مساعدته لنفسه إن أراد لها البقاء، ولا بد للأمة بمجموعها من مساعدة ذاتها إن شاءت لنفسها الارتقاء، وإلا فإن المجد لن يقدَّم لها وهي ملقاة على فراش الوهن،لقد جوبه هؤلاء القوم بالنداء "ساعدوا أنفسكم بدخول هذه الأرض ينصركم ربكم[٦٠٠]"، هي الوسيلة الوحيدة إذن لمن أراد التقدم، ولا ثاني لها ، ولا معوّل على غيرها.

إنه اختراق الباب، واختراق باب المجهول هو الخطوة الأصعب عند كل مسير، وفي أمة شبّ بنوها على الذل والهوان تغدو تلكم هي أصعب الخطوات، حتى لو لم يتجاوز الأمر سوى هيئته دخول الباب، والتي قد تبدو للمتأمل عن بعد هيّنة سهلة لدرجة قد تصل إلى الاستخفاف، إلا أنها في الوقت نفسه عند أصحابها عسيرة شاقة حتى لكأنها زحزحة جبال، ولكنه وعد الله للأجيال، أقدموا دونما خوف أو تردد فلن يعدو الأمر كونه دخول باب، برفع صوت الحق، وسبابة التوحيد، وقدم الثبات، وإن تعثر بالسائر الطريق، فما هو إلا عبور باب، وستنكسر بعبوره أسوار الخوف، وتتمزق أردية الهوان، لتبدو الحياة فيما وراء هذا الباب ممتدة رحيبة ملؤها العزة والقوة، لأجل هذه المعاني جميعها قُدّم الجار والمجرور(عليهم)اهتماماً به[٦٠١] لبيان أن المقصود إنما هو دخول الباب، لا سيما وأعداؤهم في دعة وأمان، مباغتة لهم، وضغطاً عليهم، ومنعاً من بروزهم، فلا يجدوا مجالاً لحرب، أو ميداناً لقتال.

إنه تصوير دقيق لحال ما يحصل اليوم في ميادين الواقع، فقيادات الوهن وإن بدت مسيطرة باغية إلا أنها تحمل بين جنبيها قلوباً ضعيفة واهية، وبعضٌ من شعوبها- ممثلة في هذين الرجلين-والتي أريد لها أن تحذو حذو النعاج كشفت عن حقيقة وجهها

---

[٥٩٩]-أخرجه البخاري،ج٤،ص١٦٨٤،كتاب التفسير،باب١١١،ح٤٣٣.

[٦٠٠]-الشعراوي،ص٢١١٧.

[٦٠١]- -ينظر:أبو السعود،ج٢،ص٢٢٢.

الأغرّ الأشمّ، فسارت على أرضها المسوّرة بأسوار الظلم، سلاحها لسانها، ترسها أجسادها العارية، لا يملكون إلا ثقتهم بمولاهم **"فإذا دخلتموه فإنكم غالبون"**

لقد أعطيت لبني إسرائيل كل المقومات، ولم يبق لهم إلا أن يتحركوا بها ليحققوا من خلالها ما أنيط بهم، وعقد عليهم، ولكنهم خذلوا الله فخذلهم، وكتب عليهم التيه.

وكذا مسلمو اليوم، وقد حباهم الله نعماً مادية، واصطفاهم على الخلق برسالة عدل سماوية، ولم يكن لهم إلا أن يسيروا فيتحركوا كما تحرّك أسلافهم ليبارك الله مسعاهم، ويحفظ عليهم شهودهم، ولكنهم تنكبوا-كما فعل بنو إسرائيل من قبل-فكُتب عليهم التيه، ضياعٌ في الفكر والروح، والثروة والسيادة، والكرامة والوجود، حتى غدوا مثالاً للعالم الثالث المشهود له بالتخلف والرجعية، ناهيك عن الذل والهوان والدونية، وغدت صورتهم أمام العالمين صورة المنفر بدل أن تكون البؤرة الجاذبة المغيّرة، حتى خرج أحفاد الرجلين (الذين يخافون أنعم الله عليهما)من وسط التيه يرشدون ويوجهون، وعاد صوت موسى عليه السلام**"ربّ إني لا أملك إلا نفسي وأخي"**ممثّلاً في كل من يؤاخي في الدين[٦٠٢]، لأنها العلامة الوحيدة للمواطنة الحقة التي تستطيع أن تشدّ كفها مع أمثالها لتبني أمة الشهود، وتقيم حضارة الإيمان.

المبحث السادس::امتداد النفع

خلود الفكرة إنما يعني في بعده الغائي تجرُّدَها عن كل حدّ دنيوي، مع قدرة فائقة على الإنتاج والتوالد، تتوقف على آلية التعامل معها حال تجريدها من قيود كل زمان وكل مكان[٦٠٣]، حيث تتحرك المؤثرات الأسلوبية ليعمل بعضها في حقب تاريخية معينة، ويظل بعضها الآخر مختزناً طاقته للحظات مؤجلة[٦٠٤]، دون أن يخرج بها عن إطارها المصوغة به ضمن حدوده،بوصفها-أي المؤثرات الأسلوبية- كلام الله، وكل ما تحويه من معان وأحداث إنما هي صادرة عنه سبحانه[٦٠٥].

المشهد الأول:لا يأس

---

[٦٠٢]-ينظر:الزحيلي،**التفسير المنير**،ج١،ص٤٢٢.

[٦٠٣]-ينظر:حسنة،**الوراثة الحضارية**،ص٩٣.

[٦٠٤]-ينظر:خضري،جمال(٢٠١٠):**المقاييس الأسلوبية في الدراسات القرآنية**،ط١،ص٢١٠، بيروت:المؤسسة الجامعية،بيروت،ط١ .

[٦٠٥]-ينظر:ابن عاشور،محمد الفاضل(١٩٨٢):**ومضات فكر**،ص١٥، تونس:الدار العربية للكتاب التونسي، تونس.

يقول تعالى:" يَـٰبَنِيَّ ٱذۡهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيۡـَٔسُواْ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ لَا يَاْيۡـَٔسُ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡكَـٰفِرُونَ ﴿٨٧﴾{يوسف}

طريق البناء-النافذة التي ننظر من خلالها إلى الآيات-طويلٌ طويل، يبعث امتداده اللامحدود على استنبات مشاعر اليأس وعلائم الخور في النفوس، لتسلك هذه المشاعر بأصحابها منعطفاً خطيراً قد يهوي بهم في حضيض الانتكاس، فلا يقدرون قياماً، ولا يستطيعون بناءً، هذه المرحلة الحساسة هي التي سعت الآيات جاهدة في توجيه أنظار الأجيال إلى طبيعة وعورتها، وسبل علاجها، وآلية الخروج منها.

إنها دعوة من يعقوب-عليه السلام-الذي بلغ به الألم مداه، وغُلّقَت منافذ الأمل كلها أو كادت في وجهه دون أن تلامس ثقته بمولاه سبحانه، تلك التي لا تخور ولا تتزعزع، إنه يدعو بنيه إلى تطلب الإحساس الموصل إلى الأمل، بِتَفَحُّص سبله للتعرف عليه[٦٠٦]، موقناً أن الحياة لا تسير على نمط واحد مهما تعددت ضروب البلاء[٦٠٧]، والمتحسس يصل إلى مطلوبه بجميع الطرق، فالتحسس يكون في الخير **كما في الشر**[٦٠٨]، **ليقف المرء بين يدي ذاته لحظات، يدرس فيها مدارج خطوه، فيقف على الصحيح منها** ثابتاً عليه، ويُقوّم المعوّج منحرفاً عنه، شاقاً لنفسه طريقاً يتنفس فيه من رحمة خالقه، وسط تعاريج اليأس وتلافيفه، إنه يحمل بين جنبيه الثقة بروح الله، النسيم الذي يؤوب إليه، ويرجع إلى وارف ظلاله عندما تشتد حوله الإحن**"ولا تيأسوا من روح الله"** "فالراء والواو والحاء ذات تركيب يوحي بالحركة والاهتزاز،فكل ما يهتز له الإنسان ويلتذ بوجوده هو روح[٦٠٩]" وليس أعظم من النجاح في تحصيل صعب، وارتقاء شاق، وبلوغ مستحيل، أمراً تهتز له أرجاء الروح، وتطرب لوجوده الأعماق، والتحسس-ذلكم الطلب الذي طرحه يعقوب بين يدي أبنائه وهو الكفيف العاجز عن الرؤية-ليوحي لنا إلى أيّ درجة يمكن أن تصلها حالة المرء من سوء الواقع، حالة تعمى

---

[٦٠٦]-ينظر:المظهري،ثناء الله(٢٠٠٤)،**التفسير المظهري**،ص١٩١٨،بيروت:دار إحياء التراث العربي.

[٦٠٧]-ينظر:البيومي،**من** القيم **الإنسانية**،ج٢،ص١١٧.

[٦٠٨]-ينظر:ابن عادل،عمر بن علي(ت٨٨٠)،**تفسير اللباب**،ج١١،ص١٩٤-١٩٧،بيروت:دار الكتب العلمية.

[٦٠٩]-المصدر السابق نفسه:ج١١،ص١٩٤.

بها الأبصار عن المشاهد المنظور-لتشابك خيوطه، وتعقيد أمره-وتعمى بها البصائر عن الإدراك الذي يقود إلى الفهم المنجي، وبالرغم من كل ذلك لا يأس، إذ أنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون، الذين أخطأوا الظن بمولاهم سبحانه فما أنزلوه في أنفسهم حقّ قدره[٦١٠]، فخارت قواهم، وتهاوت بضعفهم أمتهم، إنها معالم على الطريق، شدَّما يحتاجها البناة في سيرهم وهم يجابهون في كل خطوة وعند كل منعطف ما يكاد ينعطف بهمتهم، ويودي بعزمهم إلى هاوية الفناء، لما يرون من صعاب تبعث اليأس المميت والخور القاتل، ولكنه الأمل يتردد عبر أصداء الزمن على لسان نبيّ الله يعقوب:**"لا تيأسوا من روح الله إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون"**

المشهد الثاني:المعيّة الربانية:

يقول تعالى:" **فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ (٦١) قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ (٦٢)"{الشعراء}**

حين تترقب النفوس المؤمنة بوارق الأمل، تهنأ وترتاح، وتحاول جاهدة طرد هاجس اليأس، فرغم اقتراب المشهد من نهايته، وبلوغ المعركة ذروتها، والكرب مداه، دونما ناصر أرضيّ، أو معين ماديّ، إلا أن موسى عليه السلام لم يشك لحظة، فملء قلبه ثقة بربه، ويقينٌ بعونه، إنه متأكد من النجاة دون أن يدري كيف يكون، ولكنه لا شكّ كائن، فمولاه يوجهه ويرعاه[٦١١]، إنها سيرة المؤمن التي لا يتوقف عنها ولا يتحرَّف، ذلك أنه شديد الثقة بحق دينه ونهجه في الحياة[٦١٢]، تلكم الثقة التي جعلته يهتف من أعماقه **"كلا إن معي ربي سيهدين"** كلا لن نكون مُدرَكين، ولن نكون هالكين، ولن نكون مفتونين، ولن نكون ضائعين، لينبثق الشعاع المنير في ليل اليأس والكرب، وينفتح طريق النجاة **"فأوحينا إلى موسى أن اضرب بعصاك البحر"**[٦١٣].

إن نهضات الأمم جميعها إنما بدأت على حال من الضعف يُخيَّل للناظر إليها أن وصولها إلى ما تبغي ضربٌ من المُحال، ليحدثنا التاريخ أن الصبر والثبات والأناة

---

[٦١٠]-ينظر:ابن عادل،تفسير اللباب،ص١٩٥.

[٦١١]-ينظر:قطب،**الظلال**،ج٥،ص٢٥٩٨-٢٥٩٩.

[٦١٢]-ينظر:الترابي،**الإيمان بالله**،ص٣١٣.

[٦١٣]-ينظر:قطب،**الظلال**،ج٥،ص٢٥٩٩

وصلت بهذه النهضات إلى ذروة ما ترجوه[٦١٤]، باعثة بذلك الأمل أمام كل جيل وبين يَديْ كل أمة،أن تبذل وتجد وتجتهد، واثقة مطمئنة إلى وعد الله لها **"ولينصرن الله من ينصره"{الحج٤٠}"والعاقبة للمتقين{الأعراف١٢٨}**وإن أفلست الوسائل وجفت المصادر، وتخلّى الأقربون، وتمرّد الأبعدون، وضاقت السبل، وأمسكت السماء، وعاث الوهن وساد البغاة، فإن ذلكم كله لن يزيد عن حال هؤلاء المبعدين الفارين، وهم ينظرون إلى الموت يوشك أن يطبق عليهم، فتتردد أنفاسهم الخائفة الوجلة **"إنا لمدركون"** لينبعث صوت الأمل قويّاً مدويّا **"كلا إن معي ربي سيهدين"** فما يلبث الصبح أن ينجلي **"اضرب بعصاك البحر"** ليشرق فجرالأمة ويعلو صوتها.

هي المشاهد ذاتها وإن اختلفت أحوالها باختلاف أزمنتها وأمكنتها، واختلاف أثوابها وهيئاتها، ولكنها تحمل في طياتها معنى أصيلاً يمتد نفعه بامتداد بقائه وصدق منبعه، ثباتٌ بلا يأس ولا تردد حتى بلوغ المنشود.

المشهد الثالث:أعلام الظلم

يقول تعالى:"وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَهَٰمَٰنَ وَقَٰرُونَ فَقَالُواْ سَٰحِرٞ كَذَّابٞ ﴿٢٤﴾"**{غافر}**

إنّ تعيين القرآن لأسماء هؤلاء الأشخاص رغم سلبية دورهم المتمثل في التعثر بالأمة والحيلولة دون نهوضها، هو الوقوف على حقيقتهم وما ينطوي عليه من نفع كبير، لتعيين بؤرة الهدف والانطلاق من ثم لتحقيقه.

إنها إشارةٌ إلى حقيقة مركزيتهم في إثارة الفتنة وممارسة الطغيان والتجبر، ودلالة على تكرار نماذج صناديد الكفر على مرّ التاريخ، حيث كانوا مدار تدبير العداوات التي تحاك ضد موسى ومن معه كانت عليهم[٦١٥]، ليبرز فرعون الملك ممسكاً بزمام السياسة، وهامان الوزير قائداً للإعلام وبوقاً للظلم، وقارون صاحب الأموال

---

[٦١٤] -ينظر:البنا،حسن،**مجموعة رسائل الإمام الشهيد**،ص٥٨،القاهرة:المكتبة التوفيقية.

[٦١٥] -ينظر:القرطبي،ج١٥،ص٣٠٤.

والكنوز على رأس الاقتصاد، رافد الطغيان وسرّ قوته، إنها الثلاثية التي ما يفتأ يمرُّ بأمة ساعات وهن وأزمنة نكوص إلا ويكونوا هم أعمدته وموجهيه.

لقد أجمع هؤلاء الجبابرة بكل ما أوتوا من قوة ومنعة على التخطيط لتقتيل موسى ومن معه، مستحيين بذلك نساءهم، مدمرين لكل صاحب عزم وقوة فيهم عزمته، ولكن الله سبحانه كان لهم بالمرصاد وحال دون ما يشتهون، لأن الأمة تحركت، وأرادت فسعت وأقدمت، وعندما تتحرك الأمة تنفض عن كاهلها رداء الوهن، مستعليةً لترتقي مكانها الذي أراده الله لها وعندها لن يتمكن غاصب من التصدي لها وهتك إرادتها، إنها سنة الله لتكون المرشد والدليل في بعث معنى الإرادة، لتحقق من بعدها الريادة.

المبحث السابع:القدرة على التأثير:

يهدف القرآن إلى إنشاء أمة ذات قيم ومبادئ منبثقة من مناهج ونُظُم قادرة على بناء الشخصية المؤثرة الجذابة، لذا نجده يحرص أشد الحرص على عرض هذه القيم والمناهج والتوجيهات والأسس عرضاً مؤثراً بليغاً ساحراً، يهيىء النفس لتلقي ما فيه والتعامل معه.

على الرغم من أن هذا النهج هو السَمْت العام الذي تنصبغ به آيات القرآن، إلا أننا سنقتصر على مشهدين من حياة إبراهيم-عليه الصلاة والسلام-نتلمَّس من خلالهما هذه الطريقة التي تخاطب الحس والوجدان، ويصل الهدف من خلالها إلى النفس من منافذ شتى، سواء من الحواس بالتخييل، أو من الوجدان المنفعل بالأصداء والأضواء، ليكون الذهن واحداً من منافذها الكثيرة لا منفذها الوحيد[٦١٦].

[٦١٦] -ينظر:قطب،**التصوير الفني**،ص١٩٤

المشهد الأول:

إبراهيم والأصنام

يقول تعالى:"فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمۡ فَقَالَ أَلَا تَأۡكُلُونَ ﴿٩١﴾ مَا لَكُمۡ لَا تَنطِقُونَ ﴿٩٢﴾ فَرَاغَ عَلَيۡهِمۡ ضَرۡبَۢا بِٱلۡيَمِينِ ﴿٩٣﴾ فَأَقۡبَلُوٓاْ إِلَيۡهِ يَزِفُّونَ ﴿٩٤﴾ قَالَ أَتَعۡبُدُونَ مَا تَنۡحِتُونَ ﴿٩٥﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمۡ وَمَا تَعۡمَلُونَ ﴿٩٦﴾ "{الصافات}

"تنطوي النفس الإنسانية على قوتين، قوة تفكير وقوة وجدان، وكلٌّ منهما تحتاج إلى ما لا تحتاجه الأخرى[٦١٧]"، وإبراهيم عليه السلام أراد أن يطرق بفعله ذاك أحاسيس قومه ووجدانهم ليحرّك فيهم ساكناً، فيجعل منهم قوة دافعة مثمرة، مرشداً الأجيال من بعده إلى حقيقة نَهْج السير الذي عليهم أن يسلكوه.

إن عملية الإلقاء التجريدية الخالية من المؤثرات الوجدانية، عملية بائدة عاجزة عن ترك الأثر الذي يدل على المسير، والقرآن الكريم بعرضه هذه المشاهد وأمثالها بتفصيلاتها الجزئية المؤثرة الموحية، إنما يهدف إلى بيان حقيقة كامنة فيه، وهي أنه ما جاء إلا "لتربية النوع البشري عامة تربية كاملة شاملة[٦١٨]" تصنع منهم طاقة هائلة قادرة على العطاء والبذل والإنتاج، كلٌّ وفق قدراته وإمكاناته، وقد حرص على إبراز هذه الحقيقة وإيصالها من خلال تأثيره العجيب وسلطانه الفريد الذي يتركه على القلوب سواءً من قِبَل الذين يدركون لغته ويفهمونها، أو الجاهلين بها تأثراً بنتاج رَوْحه التي هي من أمر الله[٦١٩].

مضى إبراهيم الخليل يطرق قلوب قومه وأسماعهم، لينصتوا إلى عِظَم الفكرة التي يسعى لتشييدها على أرضه، محاولاً أن يجعل منهم أياديَ بانية، وقلوباً واعية،

---

[٦١٧] -عباس،فضل حسن(٢٠٠٤):**إعجاز القرآن الكريم**،ط٥،ص١٠٢،عمان:دار الفرقان.

[٦١٨] -عباس،**إعجاز القرآن**،ص٣٣٠.

[٦١٩] -ينظر:وجدي،محمد فريد(١٩٧١):**دائرة معارف القرن العشرين**،ط٣،ج٧،ص٦٧٥،بيروت:دار المعرفة.

ولكنهم أبوا إلا الإعراض، فما مسَّ اليأس فؤاده، بل زاد ذلك من لهيبه وعنفوان غضبه، فمضى معبراً "بحركته لا بقوله(**فراغ عليهم ضرباً باليمين)**مفرغاً بذلك شحنة الغيظ المكتوم[٦٢٠]" بكل ما آتاه الله وملّكه من شدة وقوة وبطش تعبر عنها دلالة اليمين[٦٢١].

إن اللجوء إلى القوة المدروسة أمرٌ لا فكاك عنه للسائرين، ولكن لا بد أن تكون على بصيرة، وأن يكون القائمون بها مدركين لعواقبها، فلن تنفع حجة اللسان وحدها لتغيير المضمون الآسن، بل لا بد من مرافقة السنان للسان، وإن تعددت أشكال ذاك السنان، فقد تكون هذه القوة على هيئة صرخات عاليات تصدح في سماء الموبقات تُعلن رفضها وتُثبت حقها وتُقرُّ مبدأها، وقد تكون كفعل الخليل عليه الصلاة والسلام بصورة تحمل بين طواياها معاني الإهانة والازدراء لكل صور وأشكال الاستعباد، إنها وسائل وإشارات تعطي للبناة معايير الحراك، فلا بد من القوة والشدة التي تتلاءم مع طبيعة الزمان والمكان حتى يحقق الفعل هدفه، ويصل الساعي لمطلبه، إنها القيم العظيمة التي تعطيها الكلمة القرآنية، تلك القيم الكامنة تحت رداء "القيمة البيانية للّفظة القرآنية[٦٢٢]".

المشهد الثاني:

إبراهيم وإسماعيل

يقول تعالى:"فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعۡىَ قَالَ يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلۡمَنَامِ أَنِّيٓ أَذۡبَحُكَ فَٱنظُرۡ مَاذَا تَرَىٰۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّآ أَسۡلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلۡجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَٰدَيۡنَٰهُ أَن يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾

---

[٦٢٠] -قطب:**الظلال**،ج٥،ص٢٩٩٢

[٦٢١] -ينظر:مكي بن أبي طالب،**تفسير مكي**،ص٤٢١،معاني الفراء،ج٢،ص٣٨٤،وأورد قول الشاعر:

رأيت عرابة الأوسي يسمو إلى الخيرات منقطع القرين

إذا ما غاية رفعت لمجد تلقاها عرابة باليمين

للدلالة على معنى القوة والشدة في كلمة اليمين،وينظر:الزحيلي:**التفسير المنير**،ج١٧،ص٧٦

[٦٢٢] -عباس،فضل:**إعجاز القرآن**،ص١٦٠-١٦١

قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾ "{الصافات}

الحراك القويّ القائم على عزم متين وإصرار مكين، لا بد له من ثمن، لذا كان هذا المؤشر الرباني في سياق قصة إبراهيم الخليل عليه السلام مع ولده إسماعيل-جدُّ رسول أمة الإسلام صلى الله عليه وسلم-بذرة بناء هذا الكيان الضخم الممتد عبر الزمان شامخاً لا تضعضعه المحن.

لقد كانت أولى لبنات هذا البناء تثبيت مفهوم التضحية بأغلى ما يمس الفؤاد ويخالجه،تضحية الأم والأب تلبية لنداء الله عز وجل في عليائه بفلذة الكبد، إنها الاستجابة والطاعة وإن غلا الثمن إلى هذا الحد، وإنها لحقاً معالم الطريق وملامح المسار، فلا بد من البذل وصدق العطاء دونما هوادة أو تشكك، حتى لو كان "مجرد إشارة لتأتي التلبية باستسلام دونما جزع وطاعة دونما اضطراب، ولكنه الرضى والهدوء[٦٢٣]".

لقد مضى إبراهيم إلى إسماعيل مخاطباً **"يا بني إني أرى في المنام أني أذبحك فانظر ماذا ترى"** لم يأته مشاوراً ليرجع إلى رأيه ومشورته، فإن أمر الله نافذ لا محالة، بل ليثبّت قدمه فيما نزل عليه من بلاء، ويُصبّر فؤاده إن جزع كي يلقى البلاء مستأنساً به[٦٢٤]، وليكون المعلّم للمربين-وهو أبو الأنبياء عليه الصلاة والسلام-في كيفية استقطاب القلوب، وغرس المعاني، واستثمار المحن.

إن بناء الأمم لمن أصعب المهام التي عرفتها البشرية على مرّ تاريخها، وهي المهمة التي ناءت بحملها السماوات والأرض والجبال لثقلها وصعوبتها، لأنها تبدأ من أعماق الفرد، لتنتهي بفضاءات هذا الكون الرحيب، وحمل الإنسان لها بما أعدّه الله فيه وملكه إياه من خصائص وسمات لا تكفيه وحدها، بل لا بد له من دوافع مذكّرة، ومعان مؤثّرة، تعيده إلى الجادة كلما حاد عنها.

---

[٦٢٣] -ينظر:قطب،**الظلال**،ج٥،ص٢٩٩٤

[٦٢٤] -ينظر:الزمخشري،ج٤،ص٥٤،وينظر:الشعراوي،ص٢٦٠٨

هذا المشهد العظيم بجرس عباراته، وما يحمله من قِيَم شعورية تسبق قيمه التعبيرية وصوره وظلاله التي تشع في سياقه، وإيقاعه الناشيء من تتابع أحداثه، ليترك أثراً كبيراً في دلالاته وإيماءاته[٦٢٥] التي تُعدُّ مرجعاً أصيلاً للناهضين على مرّ السنين.

لقد بلغ إسماعيل عليه السلام مبلغ السعي، ليمضي مع أبيه يضرب في شعاب الأرض، حتى إذا ما قرّت عين إبراهيم بولده وامتلأ قلبه حباً له، جاء الأمر بالبذل، وأيّ بذل؟!!إنه ذبح قطعة من الروح بقطعة من الجسد، إنه لأمرٌ عظيم، فإذا ما كان هذا العظيم للعظيم، تضاءلت عظمته، ليغدو في حقّ العظيم سقيماً، تُقدّمه النفس على استحياء ترجو من العظيم قبوله.

التضحية كلمة قد تبدو هينة على اللسان، ولكنها ثقيلة في الميزان، وثقيلة في تطبيقها على الأبدان، إلا النفوس التي ارتقت لتعانق فؤاد خليل الرحمن، وتخضع وتستقر فيها حقيقة معنى الاستسلام(**فلما أسلما**)ليأتيها البشير بالقبول(**وناديناه أن يا إبراهيم**)إنها سر(الواو)في (**وتلّه للجبين**)"التي تدل على وقوع الجواب مع الشرط في وقت واحد[٦٢٦]".

إنه وعد الله للأمة إن استسلمت لأمر خالقها بتحقيق خلافتها، مقدِّمة في سبيل ذلك كل ما يطلب منها ، فإنه لن يبقى بينها وبين قطف الثمار إلا هذه(الواو).

إن المساحة الكامنة في أعماق الإنسان شاسعة، لا نهائية، فهو قادر على أبشع أنواع الجرائم وعلى أنبل التضحيات، وعظمة الإنسان الحقيقية تَكْمن في قدرته على الاختيار، فالروح في قيدها الأرضي لن تصل إلى غايتها ولن يحررها من إسارها إلا سموّ اتصالها بخالقها الذي يصنع منها نفساً لا تهاب الموت[٦٢٧].

---

[٦٢٥] -ينظر:الخالدي،صلاح عبد الفتاح:**نظرية التصوير الفني**،ص١١١

[٦٢٦] -الشحود:**الإعجاز اللغوي**،ص١٥٢

[٦٢٧] -ينظر:علي عزت،**الإسلام بين الشرق والغرب**،ص١٨٥، ١٩٦

الفصل الرابع

معوّقات البناء الحضاري وآليات الخروج منها من خلال القصص القرآني

المبحث الأول: الطغيان السياسي وآلية الخروج منه

المبحث الثاني: الطغيان الاقتصادي وآلية الخروج منه

المبحث الثالث: الطغيان الفكري وآلية الخروج منه

معوّقات البناء الحضاري:

لابد لكل مركب من عوائق وعثرات تقف في طريقه حجاراً تحول دونه ودون الوصول إلى هدفه، تلكم سنة من سنن الله في خلقه"**ولن تجد لسنة الله تبديلا ولن تجد لسنة الله تحويلا**"{فاطر٤٣}حيث إن هذه العقبات تمحّص الفكرة الماضية من خلال أبنائها الحاملين لها، والساعين لتثبيتها، كي تنجلي حقيقة مضمونها الكامنة في أعماقها، فإما بريقٌ ألق يستحق أن يكون منارة الأمم وضيائها، وإما وَهْمٌ لا يعدو ومضة وتمضي، وعندها فلن يبقى لها بعدَ أول تمحيص من أثر أو وجود.

والقرآن الكريم يعرض لهذه الحقيقة،منظّراً لمحاورها في العديد من آياته، ومبرهناً على صدقها من خلال وقائع قصصه.

ولعلّ أبرز هذه المعوّقات على الإطلاق الطغيان بمفهومه الواسع-والذي سيكون محور حديثي في هذا الفصل-طغيان السياسة، وطغيان الفكر، وطغيان المال، والذين تُشَلُّ بهم جوانب الحياة ويضيق خِناقها، لتقودها الطغمة الفاسدة، والتي لا يقتلها شيءٌ في الدنيا قَدْرَ إشراق الفكرة، وتوقد العزمة، وانطلاق الهمة التي تبدد ظلام وجودهم، وتفسح أمام الحياة مجالات النهوض وسُبل الارتقاء من جديد.

على أن منهجية الطرح ستأخذ شكل المقارنة بين مثال السلب-والذي يعدُّ العائق دون التحضر والبناء-ومثال الإيجاب الذي بخلوّ ساحاته من حجار العثرة يبلغ المراد.

المبحث الأول: الطغيان السياسي

يعدُّ هذا اللون من الطغيان من أفتك الأدواء التي تأتي على بذرة الأمم فتبيد حيويتها، وتخمد جذوة العطاء فيها، حتى تبدو كالميتة التي لا يرجى منها حياة.

هذا الجانب من الطغيان عُرف باسم الاستبداد الذي لو أردنا تعريفه لقلنا بأنه "اقتصار المرء على رأي نفسه فيما تنبغي الاستشارة فيه، فإن كان عِلم السياسة قائماً على إدارة الشؤون المشتركة بمقتضى الحكمة، فإن الاستبداد يعني التصرف في هذه الشؤون بمقتضى الهوى"[٦٢٨] بحيث يتسلط الفرد أو الفئة على مجموع الأمة في تدبير

[٦٢٨] -الكواكبي،عبد الرحمن(١٩٩٣):**طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد**،ط٣،ص٢٩-٣٠بتصرف،بيروت:دار النفائس

شؤونها لتغدو مسلوبة الإرادة[٦٢٩]، عاجزة عن تسيير أمورها أو تحصيل منافعها على الوجه الأمثل، إنه اختزالٌ للأمة في فرد.

على أنه لا بد من تقرير حقيقة تكمن بين طياتها سنة من سنن الله الكونية، فالحكومة أيّاً كان مشربها أو توجهها إنما ينبثق فعلها من خلال الوسط الذي تنشأ منه، فإن كان نظيفاً حرّاً لا يمكنها أن تواجهه أو تمشي عكس تياره، ومن ثمّ فلن تكون إلا مثله حكومة أمانة وإخلاص، وإن كان ذاك الوسط متسماً بالقابلية للاستعمار بما يسري فيه من معاني الخور والخنوع، فلا بد أن تكون حكومته استعمارية[٦٣٠].

المثال السلبي(عائق البناء):

يتجلى أنموذج فرعون موسى ليغدو العنوان الأكبر والرمز الأبرز للطغيان على مرّ التاريخ البشري، الذي جعل من قصته بمختلف جوانبها تشكل المساحة الأوسع في الميدان القصصي القرآني.

هذا الطغيان الذي ينضوي في ظله-لشدة بطشه وجبروته-كل ألوان الطغيان الأخرى، قمعاً جسدياً، وإرهاباً فكرياً، واستبداداً اقتصادياً، وتفاوتاً طبقياً، لتغدو هذه الصورة-بدقة التصوير القرآني لها-مرآة الحال التي تنقل لنا-رغم اختلاف الأزمان وتباعدها-حال الطغاة اليوم-وكل الطغاة على مرّ التاريخ-وهم ينهجون ذات النهج، ويسيرون على ذات الدرب، فبحكم الفرد تُغتال السياسة وتصبح رهينة الحاكم فقط.

وعلى خلاف النهج القرآني في العرض القصصي نجد الآيات تصرّح بأسماء هؤلاء الأعلام الذين هم روّاد الطغيان ورموزه، ليكون الحديث عنهم بمثابة المرجع التاريخي للأمم والشعوب كي تتجنب بسيرها السماح لمثلهم بالتوالد فيما بينها، لخطورة أثرهم الذي يمتد بشره ليأكل أخضر الوجود ويابسه، وتغدو الحياة في ظلهم سواداً قاتماً لا أمل يشرق بين طياته.

---

[٦٢٩] -ينظر:النجار،**الإيمان بالله**،ص٢٠٤

[٦٣٠] -ينظر:بن نبي،مالك،**شروط النهضة**،ص٤٠

يقول تعالى:" وَقَٰرُونَ وَفِرۡعَوۡنَ وَهَٰمَٰنَۖ وَلَقَدۡ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَٱسۡتَكۡبَرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا كَانُواْ سَٰبِقِينَ ﴿٣٩﴾**"{العنكبوت}ويأتي**

التعريف في (الأرض) للعهد ليكون المعهود هو الكرة الأرضية كلها، إشارة إلى عموم فسادهم[٦٣١]، وانتشار سوئهم، الذي تجاوز حدود البلاد القائمين على أمرها فعمّ المعمورة بأكملها.

ويبدأ نهج الفساد ببروز الفرد الذي لا يرى إلا ذاته، ولا يسمع سوى صوت نفسه، ليتضخم الكِبر حتى يتحول إلى جبروت، مُتخذاً ضرباً من ضروب الوثنية التي تتلقفها الرعاع على أنها بعضٌ من نظام الحياة، لتُنتَقص معها الإنسانية[٦٣٢]، ويتعالى على أنقاضها مدّعي الألوهية **"أنا ربكم الأعلى"{النازعات٢٤} "ما علمت لكم من إله غيري"**{القصص٣٨}

هو ذات النهج الذي يسلكه الطغاة، فمتى ظهرت الحجة عليهم دفعوها بشبهة يروجونها فيغرقون بها أقوامهم[٦٣٣]، فلا رب للأمة المهزومة سوى أمثال هؤلاء[٦٣٤]، الذين يبلغ الكِبر في أعماقهم درجة تجعلهم كالمعتوهين لا يدرون ما يقولون[٦٣٥]، ولو لم يكن لهم من قصد إلا إرهاب أقوامهم وتفضيل أنفسهم على كل من يلي أمورهم[٦٣٦]، لكفى بها مخرقة، إنه التعبيد الذي استهجنه موسى على الطاغية **"وتلك نعمة تمنها عليّ أن عبّدت بني إسرائيل"**{الشعراء٢٢}ذلكم التذليل الذي به يجعل من أفراد شعبه عبيداً[٦٣٧] يتحكم في شؤونهم، ويحاكمهم بهواه، ويكتم على أنفاسهم، ليحول دونهم ودون النطق بالحق أو المطالبة فيه[٦٣٨]، بل إنه ليتطاول حتى يسمح لنفسه بأن يفكر عن قومه فيتخير

---

[٦٣١] -ينظر:ابن عاشور،**التحرير والتنوير**،ج٢٠،ص١٧٠.

[٦٣٢] -ينظر:الغزالي،محمد(١٩٩٧):**الإسلام والاستبداد السياسي**،ط١،ص٣٥-٣٦،دار نهضة نصر للطباعة والنشر.

[٦٣٣] -ينظر:الرازي،ج٢٤،ص٥٩٩.

[٦٣٤] -ينظر:القرطبي،ج١٩،ص٢٠٢.

[٦٣٥] -ينظر:الرازي،ج٣١،ص٤١.

[٦٣٦] -ينظر:الألوسي،ج١٠،ص٧٣.

[٦٣٧] -ينظر:الرازي،ج٢٤،ص/٤٩٧،وينظر:أبو حيان،ج٨،ص١٤٨.

[٦٣٨] -ينظر:الكواكبي،**طبائع الاستبداد**،ص٣٣.

لهم الإله الذي يعبدونه وله يخضعون، وبعد التأمل والنظر لن يجد لهم من إله غيره"**ما علمت لكم من إله غيري**"وحينما يصبح الفساد مشروعاً ذا فكر ومنطق عندها يكون المرض قد استفحل.

وتتنامى أشواك السوء في منابت الطغيان، فلا يدع قاعاً من قيعان التخلف إلا يحاول قذف أمته فيه، خشية أن تنهض فتبصر وتفكر" إِنَّ فِرۡعَوۡنَ عَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَجَعَلَ أَهۡلَهَا شِيَعٗا يَسۡتَضۡعِفُ طَآئِفَةٗ مِّنۡهُمۡ يُذَبِّحُ أَبۡنَآءَهُمۡ وَيَسۡتَحۡيِۦ نِسَآءَهُمۡ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ۝٤ "**{القصص}** هذه الطائفية هي البوق الذي ينفخ فيه الساسة المتحكمون كي يحافظوا على عروشهم قائمة على شراذم أمتهم لينعزلوا في أبراج خاصة يرتبون الناس من خلفها طبقات، كي تتسلط كلُّ طبقة على من تحتها، فيغرون الناس بعضهم ببعض كيلا تتفق كلمتهم[٦٣٩].

ويستكمل الحَجْر الفرعوني حلقاته على عقول قومه وقلوبهم، محققاً بذلك سياسة المصلحة التي لا ترعوي أن تفتك بعشرات الألوف من أبناء قومها لأجل تثبيت حكم الطاغية وجلب منافع له ولحزبه أو طائفته[٦٤٠]، فالمستبد يؤمن بنفسه قبل أن يؤمن بالله، ويؤمن بمجده الخاص قبل أن يؤمن بمصلحة الأمة، لذا فهو يعوّل على الأتباع المحيطين به، يحشدهم حوله، ويرفض الاستعانة بالكفايات التي لا تدين له بالولاء ولا يبالي من حرمان الوطن من مهاراتهم[٦٤١].

إلا أن ذلك ما كان ليكون لولا أن هذا الحاكم الفرد التقط إشارة الإذن الصامتة من قومه، فهم"قُوته وقوّته، بهم وحدهم يصول عليهم، وبهم يطول على غيرهم، فحينما

---

[٦٣٩] -ينظر:الرازي،ج٢٤،ص٥٧٨،وينظر:أبو السعود،ج٥،ص٢١٨،وينظر:الخطيب،التفسير القرآني،ج١٠،ص٣٠٨-٣٠٩

[٦٤٠] -ينظر:الشنتوت،خالد أحمد(٢٠٠٠):**التربية السياسية في المجتمع المسلم**،ط١،ص٣١،عمان:دار البيارق

[٦٤١] -ينظر:الغزالي،محمد(١٩٩٨):**الطاقات المعطلة**،ص٤٣،دار نهضة مصر للطباعة

يتهللون لأسره لهم بشوكته، ويحمدونه على إبقاء حياتهم حين يغصب أموالهم[٦٤٢]" حينها يعطونه مفاتيح الاستبداد"**فاستخفّ قومه فأطاعوه**"{الزخرف٥٤}.

لقد استصغر عقولهم، واستحقر أحلامهم، وخاطبهم خطاب الجهلاء، ولكنهم أطاعوه وخفوا وراء باطله بجهلهم، مسرعين في إجابته، دون أن يقوم من بينهم من ينكر عليه هذا القول، أو يسفّه هذا المنطق[٦٤٣]، ففي ظلال غياب الحرية لا بروز إلا لأصنام الوثنية كي تمتد القداسة والحصانة"**لسادتنا وكبرائنا**"[٦٤٤] فلا نرى إلا ما يرون، ولا نسمع إلا ما يريدون، ونصفق لكل ما به يتفوهون، عندها تضيع البلاد، ويُهزأ بالعباد، وتستأثر الطبقة الحاكمة بالخيرات والثروات، معادن الأرض وكنوزها، إلى برِّ البلاد وبحرها، لتُقدَّم لقمةً سائغةً لأعداء الأمة، كي تكتنز الجيوب النهمة من سرقة مقومات الحضارة من بين يديْ شعوبها، كي يعلن بَدْء مؤشر الانحطاط على كافة مستوياته، ظلمٌ وترف، فإذا ما تسللت جرثومة الظلم إلى السلطة، وجرثومة الترف إلى الثروة، فذلك إيذان بانهيار المجتمع وسقوطه[٦٤٥]، "والله تعالى يقيم الدولة العادلة وإن كانت كافرة، ولا يقيم الدولة الظالمة وإن كانت مسلمة، والدنيا تدوم مع العدل والكفر، ولا تدوم مع الظلم والإسلام[٦٤٦]" فكيف إذا اجتمع ظلم وتنكب عن طريق الحق!!!

عندما اعتلى أبو بكر الصديق منبر الحكم كانت أولى كلماته: إني وليت عليكم ولست بخيركم ولما تبعه الفاروق عمر حرص على بث ثقافة الاستعلاء الإيماني في نفوس رعيته حتى هشّ باسماً للواقف له أمام الجمع قائلاً بحزم الواثق: لو علمنا فيك اعوجاجاً لقوّمناه بسيوفنا..فنهضت الأمة على يديْ أمثال هؤلاء الساسة حتى بلغت حضارتها الآفاق، وغطّت معالم إنسانيتها الوجود.

ولكنّ دثار الطغيان لا يترك لوميض الحرية مكاناً، فنعيقهم يملأ الأركان:

"وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِۦ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ

---

[٦٤٢]-الكواكبي،**طبائع الاستبداد**،ص٥٢

[٦٤٣]-ينظر:الماوردي،ج٥،ص٢٣١،الألوسي،ج١٣،ص٩٠،الخطيب،التفسير القرآني،ج١٣،ص١٤٦

[٦٤٤]-ينظر:هويدي،فهمي(١٩٩٩):**القرآن والسلطان**،ط٢،ص٢٦،القاهرة:دار الشروق

[٦٤٥]-ينظر:المصدر السابق،ص٢٤

[٦٤٦]-ابن تيمية،**الفتاوى**،**الحسبة**،**من** المصدر السابق،ص١٦٠

تَجۡرِی مِن تَحۡتِیٓۖ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ﴿٥١﴾ أَمۡ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡ هَٰذَا ٱلَّذِی هُوَ مَهِينٞ وَلَا

يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ **"{الزخرف}"** إنه شأن المستبدين في كل زمان، كلما زاد ظلمهم زاد

خوفهم من رعيتهم، وبدل أن يغيّروا مسلكهم، ويقوّموا اعوجاجهم يزدادون تعسفاً وإجحافا، تارةً بقمع الأفكار من خلال ترسيخ مبدأ تفردهم بالملكية، فلا منازع لهم ولا شريك معهم، وكلُّ من سواهم من أصوات وإن بدت خافتة ضئيلة وحيدة هي في نظرهم حقيرة ذليلة مبتذلة لا قيمة لها في معاييرهم[٦٤٧]، وتارة بقمع الأجساد وإرهاب الأرواح بقتل وتذبيح وتشريد وتعذيب **"**وَقَالَ ٱلۡمَلَأُ مِن قَوۡمِ فِرۡعَوۡنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوۡمَهُۥ

لِيُفۡسِدُواْ فِی ٱلۡأَرۡضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبۡنَآءَهُمۡ وَنَسۡتَحۡیِۦ

نِسَآءَهُمۡ وَإِنَّا فَوۡقَهُمۡ قَٰهِرُونَ ﴿١٢٧﴾**"{الأعراف}** فالطاغية في كل زمان حريصٌ

على أن يفرغ روح المواطنة من شعبه حتى لا يغدو لهم ارتباط بالحياة والأحياء، فيستذلهم ويستعبدهم ويستبيح أعراضهم، ويضع يده على ممتلكاتهم، ليباعد بينهم وبين انتمائهم الوطني وشعورهم الفطري، فتخلو له الساحة كي يمارس عبثه متى شاء وكيفما شاء.

لقد ولغ فرعون في الدماء-كما يصوّر التعبير القرآني بدقة لفظه المشدّد، الذي لم يرد بهذه الصيغة إلا في هذا الموضع-حتى"غدا القتل عنده كشرب الخمر لا تكفيه الكمية الأولى التي يتعاطاها،فصار يزيد ويبالغ(سنقتّل)(ويذبّح)[٦٤٨]" ومع تدفق أنهار الدم المهان يتعالى صوت الطغيان**"أتذر موسى وقومه ليفسدوا في الأرض"** فهؤلاء الجماعات الإرهابية المسلحة التي تريد أن تفتك بالأمة وتودي بحضارتها، هؤلاء هم المفسدون المندسون الذين يجب أن تتكاتف كل القوى عليهم لتخلص الحياة من شرورهم، لأنهم

---

[٦٤٧] -ينظر:الألوسي،ج١٣،ص٨٩،الخطيب،**التفسير القرآني**،ج١٣،ص١٤٣،الزحيلي،**الوسيط**،ج٣،ص٢٣٦٨

[٦٤٨] -نوفل،أحمد(٢٠٠٥):**تفسير سورة القصص**،ط٢،ص١٨٩،مركز حراء، جمعية المحافظة على القرآن الكريم،الأردن.

القيد الذي يكبّل طاقات الشعوب ويحول دونها ودون الارتقاء، إنه التاريخ يعيد نفسه...قَلْبٌ للحقائق، ومقابلة الطرف الموادع المسالم بمنطق المستكبر الفاجر، فإيقاف بغي فرعون من تقتيل وتذبيح وانتهاك للأعراض هو الفساد الذي يُخشى منه على العباد.

لقد حرصت الآيات على تصوير الاستكبار الفرعوني بدقة وإظهار لتفاصيل تفوق مخارج اللفظ وحروفه، لأنها في حقيقتها تُشكّل مِحورَ فِعال الطغاة أبد الدهر لا تتجاوزها.

إنه التقتيل، بما يحمله تشديد التاء من المبالغة، مبالغة كثرة واستيعاب من ناحية، وتدرُّج من ناحية أخرى[٦٤٩]، إنها النية في إفناء القوم الذين ظهرت عليهم علامات النبوغ، وبرزت على ملامحهم سمات العزة، وذلك من خلال المبالغة في تقتيل ذكورهم واستحياء إناثهم ليتحقق لهم الهدفان معاً: الإفناء والإذلال[٦٥٠]، ويثبتون بذلك دعواهم **"وإنا فوقهم قاهرون"** فإن كانت الفوقية بالتمكن في الدنيا فإن الاعتلاء على الشيء أقوى أحوال التمكن من قهره[٦٥١]، وإن عبد موسى وقومه رب العالمين فإن ذلك يعني تحطيم الأساس الذي يستمد منه الفرعون سلطانه الروحي لأن المؤمن بالله لن يستخفه طاغوت[٦٥٢]، أو يرهبه بشر، والطغاة لعلمهم التام بذلك يحرصون دوماً على تغيير مسار الصدام، والانحراف بالمواجهة عن أصلها القويم، والإسباغ عليها بأثواب ذات ألوان قد تبهر بعض العيون العمياء، وتأخذ بما بقي فيها من وميض لتبقى الشعوب أسرى الاستبداد، ليس لها من غاية تسعى لتحقيقها أو قصد ترومه، فتمضي قافلتها خاملة خامدة، يائسة، لا تملك ما تحرص عليه، فكل مالديها معرّض للسلب والإهانة، ليتحوّل ميلها الطبيعي من طلب الترقي إلى طلب التسفل[٦٥٣]، وأنّى لأمة هذا حالها أن يكون لها أثر أو يبقى لها وجود، ولن تُرفع قبضة الذل عن أمة كي تتنفس نسائم الحرية إلا على يدي ثورة عقائدية، تعيد تقييم المفاهيم، وترتيب الأولويات، واستقامة الموازين، ليُعلم أنْ

---

[٦٤٩] -ينظر: النيسابوري، **الكشف والبيان**، ج٤، ص٢٧٢، وينظر: رضا، **المنار**، ج٩، ص٧٠، وينظر: ابن عاشور، ج٨، ص٢٤٤.

[٦٥٠] -ينظر: الخطيب، **التفسير القرآني للقرآن**، ج٥، ص٤٦١

[٦٥١] -ينظر: أبو حيان، ج٥، ص١٤٤، وينظر: الألوسي، ج٥، ص٢٣، وينظر: ابن عاشور، ج٨، ص٢٤٤،

[٦٥٢] -ينظر: قطب، **الظلال**، ج٣، ص١٣٥٤

[٦٥٣] -ينظر: الكواكبي، **طبائع الاستبداد**، ص٨٦-١٤٠

ليس ثمّة أغلى ولا أعلى من قيمة تحفظ للإنسان إنسانيته، ليكون العنصر المؤهل للخلافة وبناء الحضارة.

وقد شاء الله أن يكون وجهٌ من وجوه هذه الثورة على يد امرأة الطاغية فرعون والتي تمكنت بقوة إيمانها بفكرتها من تخطي العوائق رغم ضعفها، وسطوة جلادها،وكان ذلك إيذاناً بتضعضع عرش فرعون وزواله، حتى جعلها الله مثلاً لمتانة إيمان المؤمنين وثقتهم بالعاقبة التي وعدهم بها مولاهم سبحانه، علوّاً في الأرض وانتصاراً، وخلوداً في الجنة وارتقاءا[٦٥٤].

المثال الإيجابي(آلية الخروج):

مشروع الحكم والدولة ضرورة اجتماعية لا يمكن الاستغناء عنها، لضرورة وجود من ينظم العلاقات في أرجاء هذا المجتمع ويمسك بأطرافه جميعها على وجه يحول دون الصدام الذي قد ينشأ من تضارب مصالح الأفراد والجماعات[٦٥٥].

على أنه ليس هناك صورة محددة واحدة تقف البشرية عندها لتنظيم شؤون العامة والخاصة دون أن تتخطاها، وإنما هي وجوه مختلفة تتفاوت فئات البشر في اختيار إحداها وتفضيلها على الأخرى.

ويعد حسن اختيار المجتمع لأنموذج حكمه، ومنهجية سير حاكميه معه، هي الخطوة الأولى التي يبدأ معها مؤشر هذا المجتمع في الصعود قُدُماً حتى يتربع على عرش الحضارة على البشرية، فالسياسة في حقيقتها إنما هي سلوك لا تنظير.

وقد بلغت حضارة الإسلام شأواً في بسط نفوذ سلطانها على الأرض ما لم تبلغه حضارة قبلها ولا بعدها، على الرغم من أن منهجية القرآن لم تفرض شكلاً تنظيمياً محدداً توجب على المسلمين ضرورة الأخذ به، وإنما اكتفت ببيان الأطر والمحاور

---

[٦٥٤]-ينظر:أبو السعود،ج٥،ص٧٤١،وينظر:ابن عاشور،ج٢٨،ص٣٣٧

[٦٥٥]- ينظر:بحر العلوم،السيد محمد(٢٠٠٠):**آفاق حضارية للنظرة السياسية في الإسلام**،ص٧٣،معهد الدراسات العربية،لندن

العامة، واضعة بذلك الأساس الذي يجب أن تنطلق منه، سواءً للشعوب أو الحكام[٦٥٦]، باسطة بين يدي الناس نماذج حية يمكن أن يُحذى حذوها، ويُقتدى بالسير وفق نهجها.

وسأحاول أن أبسط حديثي في هذا الجانب المشرق في محاور ثلاثة، نقتبس معانيها من خلال نماذج أصحابها التي عرضها القرآن الكريم للعظة والاعتبار.

المحور الأول:سياسة الحاكم في التعامل مع الرعية:

يقول تعالى عن ذي القرنين:"حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغۡرِبَ ٱلشَّمۡسِ وَجَدَهَا تَغۡرُبُ فِي عَيۡنٍ حَمِئَةٖ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوۡمٗاۗ قُلۡنَا يَٰذَا ٱلۡقَرۡنَيۡنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمۡ حُسۡنٗا ٨٦ قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوۡفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابٗا نُّكۡرٗا ٨٧ وَأَمَّا مَنۡ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلۡحُسۡنَىٰۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنۡ أَمۡرِنَا يُسۡرٗا ٨٨{الكهف}

السياسة في مضمونها الجوهري إنما هي فعل شيء من الحاكم لمصلحة يراها يستصلح بها شؤون أفراد أمته، بإرشادهم إلى ما ينجيهم في دنياهم وآخرتهم[٦٥٧]، هذا المعنى الذي يحمل صاحبه حين يتحقق فيه واقعاً مشهوداً أن ينقل أمته إلى أفضل حال يمكن أن يرفعها إليه، لأنه يؤمن أن الدنيا هي عنوان الآخرة، وكلما كملت الحياة في عهده، كان ذلك إيذاناً بكمال آخرته، طالما أن أصل حركته وانطلاقته إذعانه لخالقه.

لقد أدرك ذو القرنين هذه الحقيقة، فلم تُغْره السلطة المطلقة والملك الواسع بالتمرد على المبدأ الذي أشرقت أنواره بين جوانبه، بل قام يشكر مولاه على نعمة التمكين بإقامة ميزان العدالة في الكون، وترسيخ أسس الحق والعدل والإحسان، ولم

---

[٦٥٦] -ينظر: :سلطح،فضل الله محمد(٢٠٠٧):**سياسة الإسلام بين الأنا والآخر**،ط١،ص٩-١٠،الإسكندرية:دار الوفاء

[٦٥٧] -ينظر:القرضاوي،يوسف،**شريعة الإسلام صالحة للتطبيق في كل زمان** ومكان،ص٢٧-٣١،القاهرة:دار الصحوة

تستول عليه شهوة السطوة وحب التملك ليُعمل سيفه في رعيته تذبيحاً وتقتيلاً، بل تلقى أمر مولاه له وتفويضه إليه بالتصرف في حياة من ولي عليهم تلقي الحكيم العادل الرشيد.

إنه صاحب هدف يسعى له، وغاية ينشدها، إنها تعبيد الناس لخالق الناس، هذا التعبيد الذي ينقلهم لمصافّ يسمو فوق مقام الملائكة، وينقل حياتهم معهم وبهم لتغدو أعظم شاهد وجوديّ على ارتقاء الجباه كلما ذلت لخالقها.

ولكن حكمة الملك العادل تأبى عليه أن يحمل الناس قسراً على ما يريد، لقد خيّره ربه بين تعذيبهم ودعوتهم، فاختار الثانية بلا تردد، والصبر عليها باستمالتهم ومراودتهم، والاجتهاد بتزيين الحق لهم، وعدم أخذهم بالشدة إلا بعد أن يعلنوا التمرد الذي به تشقى البلاد ويهلك العباد، عندها يلجأ مضطراً إلى العقاب منعاً لاستشراء الفساد، كلّ ذلك يحمله حرف التنفيس (فسوف).

إنه الدستور العادل الذي به تصلح حركة الحياة، وتستقيم أمور الكون، وهذه هي معاييره، فيُجازي الخيّر عن إحسانه خيراً ليزداد إقداماً، ويُعاقب الظالم عن إفساده ليرتدع به غيره، فتندفع الطاقات، وتتوقد الهمم، وتتكاتف العزائم، لِـتَعْمُر الأرض بأصحابها البررة[٦٥٨].

فالملك ما هو إلا ولاية على المجتمع لحفظ نظامه بما يقتضيه من كل وجوه التصرف والتسيير على الوجه العادل، الذي يحفظ للناس حقوقهم ومعاملاتهم ليعيشوا في رخاء وسلام، ويبلغوا غاية ما يستطيعون من متع الحياة[٦٥٩].

فإن كانت السياسة هي قيادة الجماهير، فإن هؤلاء الجماهير في معظمهم من عامة الناس الذين تأخذهم الملاطفة والملاينة والتودد إليهم بتأمين مصالح دينهم ودنياهم، ليكون هذا كافياً كي يثقوا بحاكمهم ويحبوه، ويسمعوا منه، فيسهل عليه بمثل هذه المعاملة قيادهم[٦٦٠].

---

[٦٥٨] -ينظر:أبو حيان،ج٧،ص٢٢٢،وينظر:ابن عاشور،ج١٥،ص١٢٨،وينظر:الخطيب،ج٨،ص٧٠٢
وينظر:الشعراوي،ص١٣٢٤،وص٢١٢٨

[٦٥٩] -ينظر:ابن باديس،**مجالس التذكير**،ص٣٢٨.

[٦٦٠] -ينظر:الشنتوت،خالد أحمد،**التربية السياسية في المجتمع المسلم**،ص/١٣.

فالسياسة في الإسلام هي سياسة مبادئ، إنها سلوك إنساني لا ينفصل عن الدين والأخلاق، ومن أهم أسسها أن الغاية لا تبرر الوسيلة[٦٦١].

المحور الثاني:العلاقة بين الحاكم والمحكوم:

١-سليمان والهدهد:

تتجلى هذه العلاقة بأسمى معانيها في الموقف المهيب بين سليمان الملك الحازم القويّ الصارم وبين الهدهد المخلوق الضعيف الأعزل، في حوار يصوّره لنا المولى عز وجل، ليرسم لنا من خلاله معالم الشخصية التي يريدها في كل فرد من أفراد الأمة التي تودُّ بلوغ ما بلغ ملك سليمان.

يقول تعالى:"وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيۡرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَآ أَرَى ٱلۡهُدۡهُدَ أَمۡ كَانَ مِنَ ٱلۡغَآئِبِينَ ﴿٢٠﴾ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابٗا شَدِيدًا أَوۡ لَأَاْذۡبَحَنَّهُۥٓ أَوۡ لَيَأۡتِيَنِّي بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٖ ﴿٢١﴾ فَمَكَثَ غَيۡرَ بَعِيدٖ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمۡ تُحِطۡ بِهِۦ وَجِئۡتُكَ مِن سَبَإِۭ بِنَبَإٖ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾ **"{النمل}**

لقد دعا سليمان عليه السلام مولاه فقال:"**رب هب لي ملكاً لا ينبغي لأحد من بعدي**"{ص٣٥} وقد استجاب الله دعوة نبيه، فتلقفها العبد الصالح تلقف الشاكر المبدع، وأتقن العناية بما ملّكه الله وحُسْن متابعته، ليتبدى لنا من خلال الآيات مُلكٌ آخر عظيمٌ وهبه الله لنبيه الملك عليه السلام يمتد سلطانه في أعماقه، بما ميّزه به من يقظة ودقة وحزم وحكمة وقوة إدراك[٦٦٢]مكنته من افتقاد أحد رعاياه أثناء جولته رغم تزاحم الجند وتنوّع الأتباع.

---

[٦٦١] -ينظر:الشنتوت،التربية السياسية في المجتمع المسلم،ص٣٢.

[٦٦٢] -ينظر:الشنتوت،**التربية الإسلامية**،ص١٤،وينظر:قطب،**الظلال**،ج٥،ص٢٦٣٨.

إن من حق الرعية على راعيها أن يتفقدها، ويتعرّف أحوالها، فتلكم ليست منّةً منه وإنما هي مسؤوليته ليطّلع على الجليل والدقيق من أمورها، مباشراً بنفسه ما استطاع مباشرته، محاولاً وضع الوسائل التي تطلعه على ما غاب منها[٦٦٣]، لا ليكتم أنفاسها ويخنق إبداعها، بل ليصلح شأنها ويرقى بأمرها.

وافتقد الهدهد-الجنديّ الصغير في الجيش العظيم-افتقد وجوده، ولكنه بخُلُق العالم الرباني اتهم نظره، وتشكك في قدرته أن تكون حواسه قد خدعته، فذكر حال نفسه قبل أن ينكر حال غيره قائلاً:"**(مالي لا أرى)** دون أن يقول:ما للهدهد لا أراه[٦٦٤]".

لقد ملّك الله نبيه سليمان عليه السلام هذا الملك العظيم، وأدرك المَلك ضخامة المسؤولية، فقام يؤديها على أحسن وجه يستطيعه، وعلم أن من أولى مسؤولياته توزيع المهام على أفراد رعيته، ليشكّل في قلب كلّ منهم حاكماً مسؤولاً عن أمته، ينطلق في ميادين الحياة مدركاً أن كل ما يراه أو يسمعه، مما يسيء أو يؤذي، إنما هو شأنه الخاص الذي عليه السعي لتقويمه والحرص على تصويبه.

هذه التربية السياسية بكل ما تحمله من معاني الوعي والمشاركة وتحمل المسؤولية هي وحدها القادرة على بناء المجتمع المتماسك المتراص، الذي يحول دون الأحزاب الدنيوية، والعصابات التسلطية من امتصاص خيراته واستعباد أبنائه وإذلالهم[٦٦٥].

هذه المعاني لن تجد لها إلا قلباً تحرّر من كل عبودية إلا عبوديته لله، فلم تعد سطوة الزعيم أو الحزب الطليعي الأوحد تطغى عليه، لتتلاشى أصداء الوهن القادم من(سادتنا وكبرائنا)حيث يستوي بين يدي القلب الموحد كل العباد ولا يسيّره إلا رب العباد، فتذوب تلك الفئة التي تقف عند آراء كبرائها، تبدّد طاقتها في خدمتهم، أو تجمّدها استغناء بقدرات رؤسائهم التي يرون أنها تكفي وتفيض[٦٦٦].

---

[٦٦٣]-ينظر:ابن باديس،**مجالس التذكير**،ص٣٤٥.

[٦٦٤]-المصدر السابق،ص٣٤٦،الخطيب،ج١٠،ص٢٣٣.

[٦٦٥]-ينظر:الشنتوت،**التربية السياسية**،ص١-٢.

[٦٦٦]-ينظر:الترابي،**الإيمان وأثره في الحياة**،ص٦٠،وينظر:حسنة،**نحن والحضارة والشهود**،ج١،ص١٠٦.

لقد غاب الهدهد المسؤول عن مجلس مليكه مما أوقد عليه نار الغضب، ومعاقبة المخالف أمر ضروري، لأن أية مخالفة لا تقابل بالجزاء المناسب لا بد أنها ستثمر مخالفات أخرى متعددة أعظم منها[٦٦٧]، ورأس السياسة إنجاز الوعد والوعيد، ومكافأة المحسن، ومعاقبة المسيء، والتيقظ للأخبار في القرب والبعد[٦٦٨]، ولكن سليمان ليس بالملك الجبار، فبالرغم من إطلاقه وعيده وتهديده، إلا أنه لن يقضي في شأنه قضاءً نهائياً قبل أن يسمع منه ويتبين عذره[٦٦٩].

ويأتي الهدهد، الجنديّ المستعلي بفكرة الحق في مملكة الملك العادل الموصول بالله، ليلقي بين يدي مليكه حال هذه الإنسانية الضالّة التي استوقفته أثناء مسيره.

إنها صورة لفدائية الإرادة الإنسانية، وإيجابية الفرد البنّاءة، التي تربط وجوده بمجتمعه، إنه الأنموذج الذي يود القرآن أن يرى عليه أفراد أمته بما يمثله من دلالات أكيدة على خطوات الحبو الأولى نحو المجد المأمول والمطمح المنشود، لا سيّما حين يؤمن هذا الباني أن مجابهته للواقع هي ثمرة ما يمكن أن يكون مناط سؤاله وثوابه وعقابه[٦٧٠]، فالشعور بالقدرة على تغيير معالم الأشياء ومعالجتها لهو شعور بالفضل والكرامة الذي فضّل الله به الإنسان على كثير من خلقه[٦٧١].

٢-ملكة سبأ:

إن صياغة قيادات تنطلق من الإيمان بالفكرة بعد أن كان منطلقها الهوى وتأليه الذات[٦٧٢]، هي البذرة الأولى لبناء مجتمع تسوده مثل هذه العلاقة المثالية بين الحاكم والمحكومين.

هذه الحقيقة تسطرها الآيات القرآنية وهي تقدّم لنا أنموذجا خارج أمة الإيمان، إلا أن إيمانها بفكرتها وصدق تعاملها مع رعيتها وإخلاصها في إدارة مملكتها، هيأ لها

---

[٦٦٧] -ينظر:الشعراوي،ص٦٧٢٧.

[٦٦٨] -ينظر:المغربي،الحسين بن علي،**من رسالة السياسة-ضمن كتاب(من تراث الفقه السياسي في الإسلام)**ص٤٦،(ت:فؤاد عبد المنعم أحمد)،مؤسسة شباب الجامعة،الإسكندرية.

[٦٦٩] -ينظر:قطب،**الظلال**،ج٥،ص٢٦٣٨.

[٦٧٠] -ينظر:طعيمة،صابر(١٩٧٤):**الإسلام ومشكلات السياسة**،ص١٢٨-١٣٠،بيروت:دار الجيل.

[٦٧١] -ينظر:دراز،محمد عبد الله(١٩٨٩):**دراسات إسلامية في العلاقات الاجتماعية والدولية**،ص٥٤،الإسكندرية:دار المعرفة الجامعية.

[٦٧٢] - انظر:الغضبان،منير(٢٠٠٣)،**التربية السياسية**،ط١،دار الوفاء،ج٢،ص٤٦٨.

طريق التبصر بالحقيقة لتقود أمتها من خير إلى خير، ومن نجاح إلى نجاح، ليُكتب لها الخلود بانضمامها إلى قافلة الإيمان.

إنها الملكة التي لا ترد لها كلمة، تجتمع بقومها وأهل مشورتها لتلقي على مسامع التاريخ أسرار الخلود والبقاء**"ما كنت قاطعة أمراً حتى تشهدون"{النمل}**.

لقد أخذت بحسن الأدب مع قومها، ومشاورتهم في أمرها، مُعْلِمَةً إيّاهم أن هذا دأبها، وتلكم عادتها، فهي تعلم يقيناً أن في استبدادها برأيها وهَناً في طاعتها، وفي أخذ رأيهم عوناً لها على ما تريده بقوة شوكتهم وشدة مدافعتهم، إنه اختبار منها لعزمهم وحزمهم وطاعتهم، فراجعوها بما يقرُّ عينها ليُسلموا من بعد الأمر إلى نظرها.

صورة كريمة للحاكم والمحكوم، الحاكم الذي يتوخى الأصلح لرعيته فلا يبرم أمراً إلا عن مشورة، والمحكومين الذين يبادلون حاكمهم إخلاصاً بإخلاص، وحباً بطاعة وحب معاً[٦٧٣]" **قَالُوا نَحْنُ أُولُو قُوَّةٍ وَأُولُو بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانْظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ (٣٣)**"**{النمل}** إنها الاستشارة التي تُخلّص من الأنانية وحب الذات لتقود إلى الحاكم المَثَل-كما ترسم الآيات ملامحه-المؤهل لقيادة الأمة كي تصنع شهودها المأمول، الحاكم الذي لا يحتجب عن شعبه، ولا يظلمه ولا يستعلي عليه[٦٧٤]، الحاكم الذي لا يحيا في أبراج خيالية دون أن يدري عن الحقيقة من خلفها شيء، ماضياً في سَرَفه وترفه ولهوه وعبثه ظانّاً أنه يقود شعبا محبّاً، وقد صنع في حقيقة الأمر قطيع غنم يتبعه لا أكثر.

لقد مضت الآيات تصوّر لنا موقف الملكة بعد أن حزمت أمرها، فهي حريصة في كل خطواتها حتى الأخيرة منها على تكريس مشاركة أمتها في سياستها[٦٧٥]-وذلكم هو بحق محور السياسة الإسلامي الأساسي-إنها تطرح بين يديهم ببصيرة العالِم، وحنكة السياسي كل الاحتمالات[٦٧٦]، لِتَخلُص منهم إلى استلال قناعتهم-التي مكّنوها منها بداية-والتي تعمل جاهدة على الارتفاع بقيمتهم المعنوية عندها، "فالثقة بالمعدن البشري النفيس

---

[٦٧٣] -ينظر:القرطبي،ج١٣،ص١٩٤،وينظر:أبو حيان،ج٨،ص٢٣٦، ١٩،وينظر:ابن عاشور،ج١٩،ص٢٥٨،وينظر:الخطيب،ج١٠،ص٢٤١.

[٦٧٤] -ينظر:القرضاوي،**شريعة الإسلام**،ص٦٢.

[٦٧٥] -ينظر:الشناوي،فهمي،**الفقه السياسي**،ص٩،القاهرة:المختار الإسلامي للنشر والتوزيع.

[٦٧٦] -بسطت التفاسير القول فيما مضت ملكة سبأ تفصّل القول فيه عن دخول الملوك إلى القرى وإفسادهم فيها،ينظر مثلاً:الكشاف،ج٣،ص٣٦٥ القرطبي،ج١٣،ص١٩٥،ابن عاشور،ج١٩،ص٢٦٠

هو أساس التعامل[٦٧٧]" الحق والذي يمكن أن تُبنى على أساسه دولة الحضارة وأمة الشهود.

المحور الثالث: التأني والرويّة قبل اتخاذ القرارات:

يميّز الماوردي بين أدب شريعة وأدب سياسة، ليَعني بالأول كل ما أدى إلى قضاء الفرض، والثاني كل ما عَمّر الأرض[٦٧٨]، ويتبعه الطرطوسي ليقسّمها إلى أحكام وسياسات، ويُفصّل في الأولى كل ما تعلّق بالحلال والحرام، وفي الثانية كل ما عُني بالتزام الأحكام[٦٧٩].

والحاكم له شخصيتان، الأولى بوصفه مبلّغاً عن الله فهو مُتخلّق بأدب الشريعة، والثانية بوصفه حاكماً وقائداً للمجتمع وهو بهذا ملتزمٌ بأدب السياسة، لتجتمع هذه المعاني كلها في وصف الله لنبيه الملك داوود عليه السلام**"وشددنا ملكه وآتيناه الحكمة وفصل الخطاب"**{ص٢٠}

فالمُلك القويّ العزيز المحاط بالحرس والجنود لن يَبقى ما لم تكن ثمة أمور أخرى أهم وآكد من مظاهر القوة الجوفاء.

لقد مكّن الله لداود ملكه، فكان يسوسه بالحكمة والحزم، التي بها تكشَّفت له بها موارد الأمور ومصادرها، فأقامها على ميزان العدل والإحسان بصفته مُبلّغاً عن الله وحاكماً لقومه، بما صاحب ذلك من حسن سيرته بين رعيته، هذه الحكمة بما سبغته من تأنّ في قراراته كانت الدافع له لإصابة الصواب بإحقاق الحق وإبطال الباطل دون تردد، أواختلاط لشيء بشيء، فاصلاً كل مقام عن الآخر.

إنه فصلٌ للخطاب بقطعه والجزم فيه دون تردد، مع الحكمة والقوة، إنها غاية الكمال في الحكم والسلطان في عالم الإنسان[٦٨٠].

---

[٦٧٧] -الغضبان،**التربية السياسية**،ص٤٣٣

[٦٧٨] -ينظر:الماوردي،أبو الحسن(١٩٧٩):**أدب الدنيا والدين**،ص١١٤،دار إحياء التراث العربي

[٦٧٩] -ينظر:الطرطوسي،أبو بكر(١٩٩٠):**سراج الملوك**،ص(٥٠-٥١)،(ت:جعفر البياتي)،لندن:رياض الرايس

[٦٨٠] -ينظر:القشيري،**لطائف الإشارات**،ج٣،ص٢٤٩،وينظر:الرازي،ج٢٦،ص١٦٤،وينظر:الزحيلي،**التفسير المنير**،ج٢٣،ص،١٨٠-١٨٥.

أما طواغيت الأرض فإنهم يسعون في تثبيت قوتهم على استنفاد طاقات الأمة في تجييش بعضهم على بعض حتى لا يأمن المرء في ظلهم على نفسه من نفسه، لِتَصْدر الاتهامات في ظل حكمهم جزافا، الاتهامات النابعة من قرارات لا ترضي إلا الحاكم المتأله، والملك الصنم، القرارات التي لا تنتفع بها الأمة، بل تردى من ورائها دركات سفلية، تمحو بوجودها كل مَعْلم من معالم الرقيّ، لأنها تفقد أول ما تفقد الإنسان الذي يشعر في أعماقه بالرقيّ، وأنّى لأمة أن ترقى وأفرادها لا يفهمون لهذه الكلمة أبعد من المعنى الماديّ المحسوس الضيق النتن منها..!!

لا بد للمجتمع حتى ينهض من وهدته، وينفض عنه غبار ذِلّته، من تجاوز عثرة القيادة الوثنية، والانطلاق في فضاء تسليم الحاكمية لله، هذه القيادة وحدها هي التي تحوّل الكلمات الشمعية إلى نماذج عملية تشرق في سماء الأكوان لتعطي بفِعلها لا بقولها أنموذجاً فذّاً لأروع بناء حضاري تتوق الحياة للعيش في ظله.

هذه البداية ستنطلق من قلوب تجذّرت فيها حقيقة المعاني، فانتفضت مسقطة عن كاهليها عباءة الوهن والخوف والجزع، متمردة على كل تعبيد لها لغير مولاها، لتحقق أعاجيب ما كان يُحْلم بمثلها زمن الخضوع والخور.

المبحث الثاني: الطغيان الاقتصادي

يُعَد المال سلاحاً ذا حدين، فهو عصب الحياة، وقوتها الدافعة وبدونه لا تستقيم فكرة، ولا تبرز أمة، كما أنه في الوقت نفسه بما يَمْلكه من سحر يبهر الأبصار ويستولي على البصائر فيأسرها ببريقه الآخذ ويغدو أكبر منزلق للأمم ومبيد للحضارات، وذلك من خلال الدور الذي يقوم به أصحابه ومالكوه من استبداد لا يقلُّ خطراً عن المنحى السياسي، ناهيك عن كون الاستبدادين-السياسي والاقتصادي-يسيران معا في خطين متوازيين، ليتكاتفا في استعباد الشعوب وسلب إنسانيتها لغاية الحفاظ على سطوتهما ووجودهما، فهما معاً أعداء للمعاني الإنسانية، وللكرامة الفطرية التي أودعها الله في قلوب البرية.

المثال السلبي(عائق البناء):

نماذج العتوّ الماديّ تتوالى في القرآن بجوانب مختلفة تتوافق تماماً مع تلوّن هذا اللون من الاستعباد في محاولة بسط نفوذه وهيمنته على مجتمعه، فبينما نراها أبهة ملكية ونزعة استعلائية في نفس قارون بما جمع وكنز، نجدها وقد تحولت إلى قرصنة واستيلاء من كل سبيل-إلا سبيل الحق-من خلال أهل مدين لتظهر لنا في ثوب المسلم الجاحد الذي اختلطت المعايير والقيم في أعماقه، فحدا به سوء الفهم إلى حافة الإشراك رغم إيمانه في قلب صاحب الجنتين، ولا يقلُّ حاله عن حال أصحاب الجنة وهم يسعون إلى الاحتكار طمعاً في الاستكثار.

١-أهل مدين:

عندما تتمثل صورة الطغيان المادي في أمة من الأمم، ليغدو سمتها ونهجها البارز الدالَّ عليها دون أن يقتصر ذلك على بعض أفرادها، عندها تكون قد رسمت عوامل اندثارها بيديها، ولن يحول دون فنائها إلا تمخُّض أصحاب الحق الخالص والفكر الحر لعوامل الهدم، متصدين بثبات يمكّنهم من الوصول بالبقية الباقية من أمتهم إلى شاطئ السلام.

وحال أهل مدين-كما تصورها الآيات القرآنية-في مواضعها المختلفة-لا سيما في أبرز سور عرضت لها(الأعراف-هود-الشعراء)-تمثل حال الأمة اليوم وقد غشيتها ثقافة

الخيانة وضياع الأمانة، حتى غدا هذا المفهوم هو السائد والمثل الشائع، وكل من يتصدى له أو يقف دونه يُسفّه ويُقَزّم ويُنظر إليه بعين الاستهزاء والسخرية، التي ما فتيء هؤلاء القوم في مدين ينظرون من خلالها إلى نبي الله شعيب، وهو يُحذّر ويُنذر محاولاً أن يُقوّم ويُبصّر.

وعندما يغدو الفساد بأشكاله المختلفة فكراً متداولاً في الأمة، عندها ينبغي على دعاة الإصلاح أن يعملوا في سبيل صدّه على محورين أصيلين: أولهما الرجوع بالأفراد إلى منطلقاتهم الثابتة محاولين إحياء جذوتها في نفوسهم، وثانيهما تفصيل الحديث عن هذا الوافد الغريب من الفكر المدمر الرهيب محاولين تفتيت أجزائه، لتنكشف عورته، وتعزف النفوس عنه.

وهذا ما حدا بشعيب عليه السلام أن يشرع في دعوته قومه إلى تحديد الحديث في بؤرة السوء التي شاعت بينهم، نقصٌ في المكيال والميزان من جهة، وبُخْسٌ للناس في شتّى أشيائهم من جهة ثانية، ليَتْبعها إرهابٌ فكريّ وحظرٌ شعوريّ على النفوس من جهة ثالثة، فيُعبّدون الناس لأهوائهم، ويسيّرونها وفق إرادتهم، باستخذاء مذل، واستعباد مهين، تُفقد الإنسانية إحساسها بحقها، لتغدو رعاعاً تُساق كما يُراد لها، دون أن تدرك عظمة ما يجب أن تكون عليه مما أراده الله لها.

لقد تركزت دعوة شعيب عليه السلام على حفظ حقوق الأمة، سواءً المالية منها بتنظيمها ورعاية مصالحها، أو الفكرية بمنح حرية الاستهداء والتفكير، وذلك ضمن إطار إصلاح الاعتقاد، والذي به تَصْلُح العقول والأفكار وما يتبعها من أعمال وتصرفات[٦٨١]، ذلكم لأن أصل إنقاذ الأمم والشعوب لن يقوم إلا على أساس منهج يضمن لها حقها الأصيل في حياة تتحقق فيها كرامتها وحريتها، دون أن يستذلَّ أحدٌ أحدا أو أن يستغله، مع حرصها ألا تنحدر إلى عبودية لغير الله،فقد تعس عبد الدرهم، وعبد المادة، وعبد الشهوة والهوى، وعبد الحزب والشعار والطبقة والزعيم، تعس وانتكس كما تنتكس البشرية الشقية حين تسيطر عليها المادية المزيفة[٦٨٢].

---

[٦٨١] -ينظر:ابن عاشور،ج٨،ص١٨٨،وينظر:من المصدر نفسه،ج١١،ص٣٠٩.

[٦٨٢] -ينظر:الأميري،**الإسلام وأزمة الحضارة**،ص٢٧.

لقد فشا سعار المادة في قوم شعيب حتى داسوا تحت أرجلهم كل قيمة، فلم يبق عندهم من أمور الدين إلا ما يعجبهم، ولا من الأخلاق إلا ما يقدّس أشخاصهم ويحمي نفوذهم، وأهدرت على أيديهم قيم الأشياء كلها، فأما الحسيّ منها فراحوا يطففون الكيل والميزان بالقدر الذي يضمن لهم مزيد الربح والكنز، وأما المعنويّ فقد بلغ استذلالهم لأفراد أمتهم واستعبادهم لهم أن حرموهم من حرية الرأي وانطلاق الفكر والعقل من أسر المهانة والاحتقار، وقامت هذه الفئة الضالة لتتتبع أصوات الحق بالإرهاب والقوة تارة، وبالإشاعات الباطلة والأراجيف تارة أخرى، حتى خَلُص لها وجه النفوذ في البلاد، تفعل ما تشاء، تمنح وتمنع، تأخذ وتعطي، تُكرم وتُذل، تؤوي من تشاء وتنفي من تشاء[٦٨٣].

"وَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٩٠﴾"{الأعراف}

قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٥٣﴾" {الشعراء}

" وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿١٨٦﴾ " {الشعراء}

" مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا "{هود٩١}

وأخيراً:" لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ "{الأعراف٨٨}

ولكن شعيباً عليه السلام-الأنموذج والمَثَل الذي شاءه الله للمتصدرين لمهمة الإصلاح من عباده-يمضي ليَخُطَّ المعالم بتؤدة وصبر، وأول ما يبدأ به تذكيرٌ بالحقيقة،

---

[٦٨٣] -ينظر:أبو المكارم،زيدان،**بناء الاقتصاد في الإسلام**،ص٣٦-٤٤.

فإذا ما انتفض الإيمان حيّاً صَلُحَت الحياة فكريَّها واقتصاديَّها، ومن ثَمّ يأتي الطَرْق على مواطن الفساد.

وكان أول الأمر نهيٌ عن الاستغلال في كل صوره وأشكاله، فإن جاء الأمر بعدم الإنقاص في الكيل، فقد تبعه أمرٌ بضرورة الإيفاء، والذي لن يتأتى إلا بإعطاء قدْر زائد على الحق[٦٨٤]، لينتشر العدل السلوكي بين الناس[٦٨٥]، ويغدو الفرد بالتكاليف الربانية وقد أمّن على حياته تأميناً شاملاً، لينطلق في شعاب الحياة مشترياً أو بائعاً غير وجل من حيلة أو خديعة يُغبن فيها حقه، فيزداد الإنتاج، وتزدهر البضائع، وتتزين الحياة بالثوب الذي يؤهلها فيه لترتقي منزلة الشهود[٦٨٦].

على أن الأمر لن يقتصر على جانب محدد ضيق منحصر في معاملة بيع أو شراء بل جاء أوسع من ذلك وأرحب**"ولا تبخسوا الناس أشياءهم"** ليمتد معنى البَخْس فيطوي الحياة بدقائقها، ومكامن الإنسان الجشع بتفاصيلها، فكما يكون البخس في المساومة والغش والحيل التي تُنتقص بها الحقوق من غصب وسرقة وأخذ رشوة وقطع طريق وانتزاع أموال ونقص بالتعييب والتزهيد أو مخادعة في قِيَمة، فإنه كذلك يكون بَخْساً للحقوق المعنوية[٦٨٧]، إنه نقصٌ للشيء على سبيل الظلم، وعدم أدائه على وجهه كاملاً، واغتيالٌ للحقوق[٦٨٨]، وهو عبارة عن الخيانة بالشيء القليل لبيان مدى استقباحه في العقول[٦٨٩]، حتى عدّه ابن سيّده في المخصَّص في باب الذهاب بحق الإنسان[٦٩٠]، لما يحمله من معنى الظلم بإنقاص شيء من صفة أو مقدار هو حقيقٌ بكمال في نوعه[٦٩١].

هذه المعاني حين تنتشر في أمة ويستمرؤها أفرادها، عندها يغدو الإصلاح من العسر بمكان يستوجب معه دعوة شعيب **"إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ**

---

[٦٨٤] -ينظر:الرازي،ج١٨،ص٣٨٥،وينظر:**المنار**،ج١٢،ص١١٧.

[٦٨٥] -ينظر:الشعراوي،ص٢٩٥٣.

[٦٨٦] -ينظر:ابن عاشور،ج٨،ص١٨٩.

[٦٨٧] -ينظر:الرازي،ج١٤،ص٣١٤،وينظر:المنار،ج٨،ص٤٦٩، وينظر من المصدر نفسه:ج١٢،ص١١٧.

[٦٨٨] -ينظر:الخطيب،**التفسير القرآني**،ج٦،ص١١٨٦،وينظر:الراغب،**المفردات**،ص٤٨.

[٦٨٩] -ينظر:الرازي،ج١٤،ص٣١٣.

[٦٩٠] -ينظر:ابن سيده،علي بن إسماعيل النحوي(١٩٩٦):**المخصص**،ط١،ج٣،ص٤٠٦،(ت:خليل إبراهيم جفال)،بيروت:دار إحياء التراث العربي .

[٦٩١] -ينظر:ابن عاشور،ج٨،ص١٨٧.

"هود٨٨ حيث تنقلب الموازين، فبدلاً من أن يستهلك الإنسان الأشياء تصبح هي التي تستهلكه، ويغدو بذلك عبداً لعمله فتنحدر قيمته الإنسانية ويتمرد على كل قيد محاولاً التملك من أيّ طريق، دون أن يبالي بضرر قد يقع من جرّاء فعله على فرد أو جماعة، متناسياً الأصل الذي أباح الملكية للفرد جرّاء جهد بذله أو عمل أدّاه[٦٩٢].

ويرد شعيب أفهام قومه إلى الحقيقة المطلقة التي من خلالها تتحرر الأمم من إسار كل استبداد اقتصاديّ، تحظى فيه فئة قليلة من الناس بالثمرة الاقتصادية التي يشترك في إنتاجها المجموع العام[٦٩٣] **"ما لكم من إله غيره"** وعندما يُنزل الله حكماً تكليفياً عندها ليس لبشر أن يأخذ من غيره سبحانه، أو أن يستدرك عليه –عز وجل- حكماً من البشر[٦٩٤].

إنه الإطار العقدي الذي تحتاجه كلُّ أمة، فلا بد لكل نظام من عقيدة تسبقه، كما أنه يحتاج لسلطان دولة كي يقوم من خلاله، هذا الإطار المفاهيمي النابع من يقينيات المعتقد والتي تجزم أن المال هو مال الله، وأن المالك الحقيقي لهذا الكون وما فيه إنما هو سبحانه، تجعل في نفس المؤمن به حدّاً يقف عنده، ليقوم كل فرد بوظيفته دون أن يَعزل المال الخاص به عن الوظيفة الاجتماعية العامة للأمة[٦٩٥]، فإنه ما انحصر تداول المال بين فئة حتى ظهر الطغيان الذي عبّر عنه شعيب بقوله: **"ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها"** هذا الإفساد الذي يمتد ليأكل بناره كل خير، فيفسد نظام الاجتماع البشري بالظلم يستشري بينهم ويأكل أموال الناس بالباطل، ويعتدي على الأنفس والأعراض لا يبالي، ويعمل جاهداً على إفساد الأخلاق والآداب بالإثم والفواحش الظاهرة والباطنة، فهي مطيّته دوماً لتحقيق مراده، ويمتد إفساده بعد ذلك ليطال العمران بما يشيعه من جهل وانعدام نظام[٦٩٦]، حتى يغدو الفساد هو المظهر العام، كلٌّ يحرص على إيصال الضرر لغيره، بمزاولته الفساد بنفسه، ليعود الضرر عليه كما هو واقع على من حوله[٦٩٧].

---

[٦٩٢] -ينظر: المبارك، محمد، **نظام الإسلام**، ص٧٧.

[٦٩٣] -ينظر: النجار، **الإيمان بالله**، ص٢٠٥.

[٦٩٤] -ينظر: الشعراوي، ص٤٢٦٢.

[٦٩٥] -ينظر: الغويل، إبراهيم بشير (١٩٧٦): **معالجة الإسلام لمشكلات الاقتصاد**، ط١، ص٩٥، بيروت: مؤسسة الرسالة.

[٦٩٦] -ينظر: رضا، **المنار**، ج٨، ص٤٦٩.

[٦٩٧] -ينظر: الرازي، ج١٨، ص٣٨٥، وينظر: الشعراوي، ص٤٢٦٦.

إن رسالة نبيّ الله شعيب ما هي إلا دعوة للطواغيت الذين ينادون بالسلطان المطلق، الذي يخوّلهم أن يبخلوا ويكتنزوا ويحتكروا بلا معقّب، وليس أحطَّ من وضع يكون فيه الإنسان خاضعاً لشريعة هي مجرد إرادة بشر مثله[٦٩٨]، إنها دعوة لاستئصال كل دعوات الاستغلال التي تسود المجتمعات فتعيقها عن كل تقدم أو بناء، فبتحرر الإنسان من استغلال أخيه تندفع طاقتان للبناء، طاقة المستَغَلّ الذي كان محكوماً بتنفيذ مآرب الآخرين ومصالحهم، وطاقة المُستَغِل التي كانت تتبدد في تشديد قبضته وفرض هيمنته[٦٩٩]، ليُنال الخير الذي بَشّر به شعيب **"ذلكم خير لكم"** هذا الخير الذي تمتد آفاقه كي تصل إلى كل معنى جميل، من غنىً ورخص أسعار، ورغد عيش، وزينة دنيا، وخصب وسعة، وكأن لسان حاله يقول: إذا أوفيتم جَمُلت سيرتكم، وحَسُنَت الأُحدوثة عنكم، وقصدكم الناس من كل مكان ونالكم هذا الخير كله، ناهيك عن خير الآخرة وما فيها، إنه لفظٌ جاء تنكيره لمزيد من تعظيم المعنى وكماله[٧٠٠] .

إن التربية الربانية التي تعمل الآيات على تثبيتها من خلال عرض هذه الواقعة، تُنزل قيمة المال من مكانة التسلط والسيطرة إلى مقام الوسيلة التي تُتَخذ، لبلوغ المقصد الأسمى من إعزاز الحق وتقوية المجتمع، فالمال قوام الحياة، وحرمان الناس منه مجلبة إلى انهيار أخلاقهم ودينهم وكرامتهم، والعقيدة تُصان بالمال ،وهي قادرة على تعويض أضعافه، أما المال إذا استبد فإنه يفسد كل عقيدة، ويخرب كل فضيلة[٧٠١] **"وما أنا عليكم بحفيظ" "بقية الله خير لكم"** فلن يقف شعيب-ولا أيّ مصلح عبر الزمان-على رأس كل مفسد ليمنعه من الفساد، وإنما هو القانون الإلهي الذي يحيط بكل سر وعلانية،إنها قوانين الصيانة للحركة في المجتمع، والمجتمع كله إن لم تصن حركته يفسد،[٧٠٢] وإذا فسد فلا مفر من أمر الله..فأخذتهم الصيحة..وأخذتهم الرجفة...

ولئن كانت عقوبة الاستئصال الجماعي قد زالت منذ عهد بعيد، فإن زلازل الفتك بالمجتمعات لا زالت تتراوح هنا وهناك، وما ثورات الشعوب على أنظمتها، وتمردها على طول زمان امتهانها، إلا وجهٌ من وجوه الاستئصال لمثل هذا الاستبداد.

---

[٦٩٨] -ينظر:قطب،سيد،**الإسلام ومشكلات الحضارة**،ص٩٥.

[٦٩٩] -ينظر:الصدر،محمد باقر(١٩٩٠):**الإسلام يقود الحياة**،ص١٦٧،بيروت:دار التعارف للمطبوعات.

[٧٠٠] -ينظر:النيسابوري،**الكشف والبيان**،ج٥،ص١٨٦،وينظر:أبو حيان،ج٥،ص١٠٥،ابن عاشور،ج٨،ص١٩٠.

[٧٠١] -ينظر:أبو المكارم،زيدان،**بناء الاقتصاد في الإسلام**،ص٩٦

[٧٠٢] -ينظر:الشعراوي،ص٤٢٦٧

١-قارون:

قال تعالى:"۞ إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوۡمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيۡهِمۡۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلۡعُصۡبَةِ أُوْلِي ٱلۡقُوَّةِ إِذۡ قَالَ لَهُۥ قَوۡمُهُۥ لَا تَفۡرَحۡۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَرِحِينَ ٧٦ وَٱبۡتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنۡيَاۖ وَأَحۡسِن كَمَآ أَحۡسَنَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَۖ وَلَا تَبۡغِ ٱلۡفَسَادَ فِي ٱلۡأَرۡضِۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ٧٧ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓۚ أَوَلَمۡ يَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ قَدۡ أَهۡلَكَ مِن قَبۡلِهِۦ مِنَ ٱلۡقُرُونِ مَنۡ هُوَ أَشَدُّ مِنۡهُ قُوَّةٗ وَأَكۡثَرُ جَمۡعٗاۚ وَلَا يُسۡـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ٧٨"{القصص} يبدأ السياق القرآني بعرض هذا الحدث-الذي تفرّد بذكره في هذا الموضع-مفصحاً مفصّلاً عن كل ما يدور حول محوره، ليُصرّح باسم المحور الذي تدور حوله القصة،محدداً هويته، مبيناً مسلكه[٧٠٣]، كاشفاً النقاب عن أسرار ومكامن الخطر المستكن للتمكن من تجنبه خشية الوقوع في حبائله التي يَصْعب الخلاص منها قبل الكثير من الخسائر دونها.

إنه قارون،الذي عرّفه القرآن بأنه من قوم موسى-المؤمنين العابدين-الذين أدرك-معظمهم-حقّ الله عليه فالتزمه، وأمر الله فيه فوقف نفسه على تطبيقه، وكان قارون-كما

---

[٧٠٣]-ينظر :قطب،**الظلال**،ج٥،ص٢٧١٠.

يقول البعض-من عُبّادهم[٧٠٤]، ولكنه المال الذي يقلب الموازين في قلب صاحبه، فيزهو ويتكبر، وتتزلزل في نظره قيم الأشياء، فلا يعلو عنده عظيم[٧٠٥].

لقد خرج على قومه مستكبراً عليهم، محقّراً لهم، مستصغراً لشأنهم، بغى عليهم فغصبهم أرضهم وأشياءهم، وحرمهم حقهم[٧٠٦]، والبغي هو تجاوز الحد في الظلم-بل عُدّ من أعلى مراتبه على الإطلاق[٧٠٧]-وعندما يبغي الفرد على أمته يعني أنه يستخف بها وبحقوقها وأول ذلك يكون بخرق شريعتها[٧٠٨]، لأن صاحب المال والثراء حين يطالب بأداء حق الله في ماله يستعدي ويعتقد أن ذلك اعتداءً موجهاً إلى شخصه مباشرة يستلزم منه مقاومته والتصدي له بكل سلاح أنّى كان، قوةً أو بطشاً أو دسّاً أو فكراً أو كذباً أو بهتاناً[٧٠٩].

لم يتوان قارون عندها من كشف الستار، وإظهار العداء الماجن بالانضمام إلى معسكر الأعداء، الذي تتيح له الصولة والجولة فيه إشباع نهمه، وإرواء عطشه، بتكديس الثروات، وانهيار المليارات، التي ما كانت لتأتيه لولا ولاءه السافر لأعداء أمته **"فبغى عليهم وآتيناه"**[٧١٠].

إنها الصورة ذاتها المكرورة عبر أزمان الحياة ومحطاتها، صورٌ تتراءى للشعوب أنها الأقوى والأظهر بما تمتلك من مال وسطوة، وما هي في حقيقتها إلا ألعاب كرتونية تحركها يد العدو لتعبث بأمن أمتها وتمتص دماء شعوبها، حتى تسلبهم كل معنى كريم يمكن أن يتشكل في أعماقهم.

---

[٧٠٤]-ينظر:ابن عطية،ج٥،ص٢٠٧،وينظر:أبو حيان،ج٨،ص٣٢٣،وينظر:الزحيلي،**الوسيط**،ج٣،ص١٩٣٧.

[٧٠٥]-ينظر:أبو المكارم،زيدان(١٩٥٩):**بناء الاقتصاد في الإسلام**،ص١٣،دار الجهاد،مصر.

[٧٠٦]-ينظر:ابن عطية،ج٥٠،ص٢٠٧،وينظر:الرازي،ج٢٥،ص١٤٠،وينظر:أبو حيان،ج٨،ص٣٢٣
وينظر:قطب،**الظلال**،ج٥،ص٢٧١١، وينظر:نوفل،**تفسير القصص**،ص١٢٨-١٢٩

[٧٠٧]-ينظر:الشعراوي،ص٣٩٠٥.

[٧٠٨]-ينظر:ابن عاشور،ج٢٠،ص١٠٥.

[٧٠٩]-ينظر:أبو المكارم،زيدان،**بناء الاقتصاد في الإسلام**،ص١٥.

[٧١٠]-ينظر:نوفل،**تفسير القصص**،ص١٣٠.

إن غريزة التملك من أقوى الغرائز الإنسانية، ولا تكاد تدانيها غريزة أخرى سوى غريزة حب البقاء، على أن هذه الغريزة وراء كل بغي وعدوان، وذلك لرغبة كل نفس بالاستئثار دون الناس في كل ما تقع عليه يدها[٧١١].

لقد بالغ قارون في تحصيل المال عن كل طريق،ومن كل وجه،وقد عمدت الآيات على بيان حجم هذه الثروة من خلال ما ذكرته من أوصاف، فالكنوز والمفاتح وتنوء العصبة أولوا القوة[٧١٢]، كلها محاور محدِّدة لضخامة الخزائن وما تحويه، مما لأجله باع قارون-وأمثاله على مرّ الزمان-كل قيمة ومبدأ ومعنى جميل.

إنها العقيدة المحنطة في قلب هذا لطاغية، هذه العقيدة التي لم تتحول في قلب صاحبها إلى ما يجب أن تكون عليه، فجَمُدت على تمتمات ميتة، أدت به إلى دركات الخيانة لنفسه وربه وأمته، ليكون مثلاً للخائنين من المحنطين المتربعين على عروش السيادة في مجتمعاتنا.

لقد جاءت الآيات لتصف ثروته بأنها كنوز، وما سميت كذلك إلا لأنه امتنع عن أداء الزكاة فيها، فالكنوز مكتنز المال، وهي الأموال المدّخرة، وقيل المدفونة[٧١٣]، هذا اللون من الاكتناز يَعدّه الاقتصاديون تعويقاً للحركة الاقتصادية ودوران المال، ويرونه ظاهرة من ظواهر المجتمعات المتخلفة اقتصادياً، بما يحمله في طياته من معنى التقتير والذي به تتوقف حركة الاستهلاك، وتتعطل وظيفة المال، وينحرف وضع الإنتاج والثروة عن موضعه، فالجماعة البشرية في حاجة إلى تداول هذا المال لتنمو الحياة في شتى مظاهرها، وينطلق الإنتاج في أوسع ميادينه، مهيئة للعاملين وسائل العمل، وللإنسانية طريق النشاط[٧١٤]، عندها ستتجلى المبادئ الربانية في حقيقة تَساوي طرفيْ المعادلة، بين وفرة الخيرات ووفرة الإنتاج، يقول تعالى:"أَلَّوِ ٱسْتَقَـمُواْ عَلَى

---

[٧١١]-ينظر:الخطيب،عبد الكريم(١٩٦١):**السياسة المالية في الإسلام وصلتها بالمعاملات المعاصرة**،ص٢٤-١٢٥،لقاهرة .

[٧١٢]-ينظر:الزمخشري،ج٣،ص٤٣٠،وينظر:دروزة،محمد عزت(١٣٨٣)،**التفسير الحديث**،ج٣،ص٣٤٢،القاهرة:دار إحياء الكتب العربية.

[٧١٣]-ينظر:ابن عطية،ج٥،ص٢٠٧،وينظر:أبو حيان،ج٨،ص٣٢٣،وينظر:الألوسي،ج١٠،ص٣١٦ ،وينظر:ابن عاشور،ج٢٠،ص١٠٦.

[٧١٤]-ينظر:قطب،سيد(١٩٧٨):**العدالة الاجتماعية في الإسلام**،ط٥،ص١٤٤،القاهرة:دار الشروق ،وينظر:المبارك،محمد(١٩٧٨):**نظام الإسلام** ط٢،ص٨٦،بيروت دار الفكر .

ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسۡقَيۡنَٰهُم مَّآءً غَدَقٗا ﴿١٦﴾ "{الجن}إنها العلاقة بين عدالة التوزيع وازدياد الثراء والخير وفتح البركات على الناس

من الأرض والسماء[٧١٥]، هذه الحقيقة التي تؤكدها السنة التاريخية، بالإضافة إلى المبادئ الربانية من خلال الحقائق الواقعية، والتي تظهر لنا مشاهد قارون كدليل إثبات عملي عليها.

عندما تغدو المعاني المادية هي القانون الذي يسيّر المجتمع، عندها نجد أن نفوس الأفراد فيه قد انقسمت إلى فريقين، فبينما يتألق أحدهما بحريته الكاملة التامة من كل عبودية إلا لله، نلمح الأخرى وقد خضعت في قرارتها لعبودية القيم الاجتماعية، قيم المال والجاه والنسب[٧١٦]، عندها ستتولد بذرة الفساد، بوجود الأمة التي تحس بالصغر أمام الأغنياء فتسلم لهم حقوقها بعدم مطالبتها بها، وتستسلم أمام عنفوان نزواتهم وسعار شهواتهم والذي لا يطفئه إلا الموت، لتغدو هذه العصبة الطاغية منبع كل شر، وأساس كل عثرة تحول دون تقدم هذا المجتمع ورقيه.

وقد برزت في قصة قارون الفئة الحرة التي تخلّصت من شوائب كل عبودية إلا لله، وانفلتت من ضغط القيم الاجتماعية والمالية، فقامت تدافع عن حقها، وتثبت صدق مبادئها بمنطق قوي قويم يربط الحقائق بمصادرها دونما خشية من عاقبة، أو خوف على مصلحة، ولم يمنع هذا من ظهور الفتات المنخدع المذل نفسه لمعاني الأرض وقيمها الفانية،**"لا تفرح إن الله لا يحب الفرحين...وابتغ فيما آتاك الله...ولا تنس...وأحسن..ولا تبغ الفساد في الأرض"** إنها نصائح خمس نطقت بها أفواه هذه الفئة الواعية، الناصحة، التي تمثل مركز الثقل في كل مجتمع، لأنها البوصلة التي تَرْقب بحكمتها وحرصها وإخلاصها وعمقها حركات المحاور والأطراف جميعها في مجتمعها، فتتصدى للحاكم حين يشذ فيطغى، وتقف أمام صاحب الثراء حين يستكبر ويستعلي، وتعمل على رد الموازين إلى نصابها، كي تحافظ على مجتمعاتها من انحراف يودي بها إلى قيعان التخلف ومستنقعات الوجود، ليرمي بها بعد ذلك خارج دائرة التاريخ.

---

[٧١٥]-ينظر:الصدر محمد باقر،**المدرسة القرآنية**،ص٦٩.

[٧١٦]-ينظر:قطب،سيد،**العدالة الاجتماعية**،**ص**٤٧-٥٥.

لقد فصّل السياق القرآني موعظة هذه الفئة تفصيلاً يقف بنا على حقيقة المنطلق الذي تنطلق منه مفاهيمها، والغاية التي ترومها مؤطرة بذلك طبيعة الاعتدال في المنهج الإلهي والذي تتهاوى دونه المناهج الأخرى كلها سواء.

فبينما نجد بعضها وقد أطلق للفرد حريته المطلقة، يجمع وينهب وينمي ثروته كيفما شاء، نجد الأخرى وقد حدّت ومنعت واعتبرت أن الجماعة هي الأصل مهدرة كل قيمة للفرد.

ليأتي المنهج الرباني موازناً بين الأطراف كلها جميعاً، فللفرد الحرية أن ينطلق عاملاً مستثمراً مبدعاً، لكنها الحرية التي هذّبها الشعور بالتبعة الفردية وما يتولد عنها من تبعة جماعية، الحرية التي لا تستعديه على القيم والمعاني، فلا يبالي إلا بمصلحته، ولا يسعى إلا لإرضاء ذاته، هذه الحرية التي لا بد لها من ضابط ومراقب، إن لم يكن السلطان-والذي غالباً ما يكون متواطئاً مع أمثال هؤلاء-فلتكن الشعوب بما تمثله هذه الفئة بحديثها الناصح الأمين

لقد حملت النصائح بين طياتها معاني تحتاجها قلوب الأثرياء من ناحية، والشعوب المستضعفة لتدرك حقها وواجبها من ناحية أخرى، حقها في المساواة والحياة الحرة الكريمة، وواجبها في المطالبة بحقها، والحفاظ عليه ولو حدا بها ذلك إلى دفع أغلى الأثمان[٧١٧].

إن أول مبدأ تقرره الآيات ضرورة تقويم هذا البطر الأشِر، الذي ما وُجد أدق من وصفه بالفَرح، مبالغة في بيان درجة تعلقه بمتاع وملذات النفس التي أماتت عنده كلّ معنى قيّم، وإذا أُطلق الفرح دون أن يتعلق به شيء دلّ على أنه صار سجية الموصوف ليكون مراداً به العُجْبَ والبَطَر[٧١٨].

هذه الحقيقة التي نجد براهينها ووقائعها شاهداً منظوراً في حياتنا، فانحباس الثروة يودي بالضرورة إلى الترف المطغي، والإسراف المخزي الذي لا يجد له إلا

---

[٧١٧]-ينظر:ابن كثير،ج٦،ص٢٥٣،وينظر:قطب،**الظلال**،ج٥،ص٢٧١٢،وينظر:المودودي،أبو الأعلى(١٩٦٧):**أسس الاقتصاد بين الإسلام** والنظم المعاصرة،ط٢،ص١١-١٩،(ت:محمد عاصم الحداد) ،وينظر:قطب،**العدالة الاجتماعية**،ص٦٦-٦٧.

[٧١٨]-ينظر:ابن عطية،ج٥،ص٢٠٨،وينظر:ابن كثير،ج٦،ص٢٥٣،وينظر:أبو حيان،ج٨،ص٣٢٤،وينظر:ابن عاشور،ج٢٠،ص١٠٧.

مصارف السوء يلقيها بها، إنها حين ذاك تغدو كالفائض من الطاقة الحيوية في الجسد تحتاج إلى تصريف، ولا يشترط أن يكون تصريفها مأموناً نظيفاً بل قد تأخذ أحياناً صورة ترف مفسد مهلك للجسد...وكذا هذا الفَرح بماله المتضخم، لا يعنيه إلا أن يجد متصرفاً للفائض من حيويته والفائض من ثروته، وليست الدعارة وما يتصل بها من خمر وميسر وسقوط مروءة وضياع شرف سوى أعراض لتضخم الثروة في جانب وانحسارها في جانب آخر، هذا عدا عن أحقاد النفوس وتغيُّر القلوب على ذوي الثراء الفاحش من المحرومين الذين لا يجدون ما ينفقون[٧١٩].

وتُتابع الفئة الواعية خطّها للمنهج القويم ببيان أن المعيار العادل لتقدير قيمة الإنسان وإعطائه حقه من الاحترام والتوقير أن يُنظر إلى خُلقه وعمله اللذين ضُبطا بالمعيار العقدي الصحيح والذي بهما تتقوّم الأفهام، وتنعدل المسالك.

فالملكية الحقيقية لكل شيء هي ملكية الله تعالى، والإنسان مُستخْلف على كل ما بين يديه من مقدرات[٧٢٠]،هذه التربية التي تقيم في النفس وازع الضمير فتخفف من غُلواء الطمع ومن سعار المنافسة ومن داء التكالب والتزاحم على المادة وتشدّه إلى أصول ثابتة من القيم الرفيعة والمثل العليا.

فصاحب المنهج الأصيل يملك المال ولكن المال لا يملكه، لأنه يؤمن يقيناً أن الله هو الذي أنشأ مادته وسخره لمنافعه، وهو الذي وهبه المقدرة على اكتسابه وأهلية الانتفاع به، ليغدو بذلك أميناً على هذا المال مستخلفاً فيه[٧٢١]، فينطلق ليُعمّر الحياة ويبني الأمة، مُعلياً شأنها، مثبتاً أركانها**"وابتغ فيما آتاك الله..ولاتنس..وأحسن"**

على أن تسليم القياد للإنسان وتمليكه هذه الحرية التي لا تضبطها إلا قوة المبدأ والفكرة في أعماقه، أثارت تساؤل الملائكة عند بدء الخليقة، وكانت سبباً للتحذير الذي أطلقته هذه الفئة في ختام نصيحتها **"ولا تبغ الفساد في الأرض"** فالمال حين يسري بريقه بين يديْ صاحبه يأسر بلمعانه كل إيمان، ويستولي على جذر كل فكرة، ويغدو بما

---

[٧١٩] -ينظر :قطب،**العدالة الاجتماعية**،ص١٢١-١٢٢).

[٧٢٠] -ينظر :النجار،**فقه التدين**،ج٢،ص٨٨،وينظر :أبو المكارم،**بناء الاقتصاد في الإسلام**،ص٢٨.

[٧٢١] -ينظر :الخطيب،عبد الكريم،**السياسة المالية**،ص١١٢،وينظر :القرضاوي،يوسف(١٩٩٥):**دور القيم والأخلاق في الاقتصاد الإسلامي**،**ط١**،ص٣٩،القاهرة:مكتبة وهبة.

يتيحه لصاحبه من حياة مترفة هو الإله الذي له تخضع الرقاب ووراءه تنجر الضمائر، وعلى مذبحه تُقدّم قرابين المبادئ.

"ولا تبغ الفساد في الأرض" والفساد إنما يأتي بالتمتع المطلق المنفلت من كل قيد، بعيداً عن مراقبة الله من جهة، مالئاً صدور الناس بالحرج والحسد والبغضاء حين يُنفق في غير وجهه وحقه[٧٢٢] من جهة أخرى، إنه الترف المفضي إلى الإسراف.

والمترفون حريصون على حياتهم الرخوة الشاذة المريضة، غير مبالين بما يدوسونه في طريق تنعمهم وحصولهم على ملذاتهم من استعباد لمن حولهم، وإخضاعهم لنفوذهم وسلطانهم، لذلك نجدهم أشد الناس عداءً لكل مناد بالحرية أو مذكّر بالمعاني الربانية، لأنهم يدركون حقيقة أن ذاك ما هو إلا نذير أفولهم وزوال استبدادهم، فالترف من أخبث عوامل التفتت الاجتماعي، لأن الانغماس في مراتع الشهوات وإشباع الغرائز المنهومة، يميت الشعور بالنخوة ويقتل الإحساس بالعزة والغيرة.

والترف وإن بدا كجريمة فردية إلا أنه سرعان ما يتحول إلى كارثة جماعية تودي بأمتها موارد التهلكة، لا سيّما إن غدا هؤلاء المترفون هم أصحاب السلطة وأولي الأمر في الأمة، عندها يبدأ الانحدار

إلى هاوية الفساد، لأن فساد القمة نذير صارخ بإفساد المجتمع، وهذا الإفساد إذا وقع ينصبُّ شاملاً مغرقاً[٧٢٣].

وما كان جواب قارون لقومه الناصحين إلا جمعاً لكل هذه المعاني التي تشي بالفساد والإفساد **"إنما أوتيته على علم"** إنه كشفٌ لهذا الجانب المستكن في نفوس هذه الطغمة الفاسدة، والتي وصل بها حد الاستكبار والاستعلاء درجة اليقين في استحقاقها هذا الثراء، سواءً بعلم منها استوجبته، أم بعطاء من الله استحقته[٧٢٤].

وحين يسيطر الترف والبهرج والمظاهر الخادعة فتغدو هي المعاني والمحور الذي تدور حياة المرء حولها، حينها يصبح خارج دائرة البناء الحضاري لأمته، بل

---

[٧٢٢] -ينظر :قطب،**الظلال**،ج٥،ص٢٧١١.

[٧٢٣] -ينظر :القرضاوي،**دور القيم والأخلاق**،ص٢٢٤-٢٢٧،وينظر :عرجون،محمد الصادق،**سنن الله في المجتمع**،ص٣٨،وينظر :قطب،**العدالة الاجتماعية**، ص١٤٦-١٥٠.

[٧٢٤] -ينظر :ابن عطية،ج٥،ص٢٠٩،وينظر :ابن كثير،ج٦،ص٢٥٣.

يتحول إلى عقبة عثرة وصخرة كؤود أمام عجلة التحضر والتقدم، ويغدو بمفاهيمه السطحية الحسية العقيم عامل هدم، فاقداً بذلك أعظم دور أوجده الله لأجله على هذه الأرض، عندها يحق الوعيد **"فخسفنا به وبداره الأرض"**

٣-أصحاب الجنة وصاحب الجنتين:

يقول تعالى في سورة الكهف: **"**دَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾ قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾ لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٣٨﴾ وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾ فَعَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴿٤٠﴾ **ويقول سبحانه في سورة القلم:"**فَٱنطَلَقُوا۟ وَهُمْ يَتَخَٰفَتُونَ ﴿٢٣﴾ أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا ٱلْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ ﴿٢٤﴾ وَغَدَوْا۟ عَلَىٰ حَرْدٍ قَٰدِرِينَ ﴿٢٥﴾

هما صورتان للنعمة عندما تصيب صاحبها بداء البطر فيمضي وقد ملأ قلبه الزهوّ والخيلاء بما استطاع تحصيله، ليستخف بكل نداء فطرة أو دعوة حق تدعوه إلى الجادة، أو تذكره بالهدف والغاية.

إنها النفس الإنسانية عندما تتجرد من حقيقة ما جبلها الله عليه من معان ساميات، وتلهث وراء قيم مزيفة ومُتَع زائلة، معتقدة أن ما استطاعت الوصول إليه إنما هو بمحض جهدها وقدرتها، وأن أحداً ليس له الحق أن يناصحها فيه أو يُقوّم سبيل تفكيرها بشأنه.

هي قِيَم المال والجاه والثراء عندما تستولي على الفكر، ويُبنى على أساسها منهج السلوك، عندها تضج الحياة بأبنائها، وتئنّ المجتمعات من وطأة ساكنيها، وتنتكس الحضارات بأيدي مدّعي بنائها[٧٢٥]، لأن لكل حضارة جسم وروح، فإن كان جسمها في هيكلها الخارجيّ وما يحمله من منشآت ومبان ومظاهر مترفة، فإن روحها تكمن في معتقد أبنائها وسلوكهم، وعظمة القيم التي يرتكزون عليها وينطلقون منها[٧٢٦].

والمشهدان يتكاتفان لتقرير حقيقة القيم الربانية التي لا يَصْلُح غيرها لبناء الأمم وتشييد الحضارات، إنها قيم العقيدة التي لا تَحرم النفس من طيبات ما أوجد الله لها، ولكنها تأبى أن تجعلها غاية للحياة، وهي تدفع أصحاب القدرة والطاقة في الوقت نفسه إلى مزيد من العمل والبذل، مذكرةً إياهم بأن الملكية الفردية وإن كانت حقاً فرديّاً، إلا أنها روعيت فيها المصلحة الجماعية إلزاماً لا تطوعاً بحسن تصرف الفرد فيما استخلفه الله عليه[٧٢٧]، فما جعل الله الأموال في هذا الكون إلا لإقامة حياة الأمم وتمكينها من مواصلة سيرها بكرامة محققة أهدافها الربانية، محمّلة كل إنسان نتيجة عمله ونشاطه، ليغدو هو المسؤول عنه مسؤولية دنيوية وأخروية في آن معاً.

إن الآيات القرآنية تبني في أعماق الأفراد مفهوم ربانية الاقتصاد، وأن ملكية الفرد فيه ليست مطلقة بحيث يفعل ما يشاء ويتصرف كما يشتهي، وأنه ليس هدفاً بذاته ولكنه ضرورة له، ووسيلة لازمة كي يحيا ويعمل من أجل غاياته العليا[٧٢٨]، وأنه مؤطر ضمن طراز فكري ووعي خلقي تسعى الآيات إلى إنشائه في نفس الفرد أساسه التقوى والشعور بالمسؤولية أمام الله يوم القيامة[٧٢٩].

---

[٧٢٥] -ينظر :قطب،**الظلال**،ج٤،ص٢٢٦٧،وينظر :الشعراوي،ص٥٤٠٣

[٧٢٦] -ينظر :القرضاوي،يوسف(١٩٩٨):**الإسلام حضارة الغد**،**ط٣**،ص٩،بيروت:المكتب الإسلامي

[٧٢٧] -ينظر :المبارك،**نظام الإسلام**،ص٤٤

[٧٢٨] -ينظر :القرضاوي،**دور القيم** والأخلاق،ص٣١-٣٢

[٧٢٩] -ينظر :المودودي،**أسس الاقتصاد**،ص١١٧

إن الإنسان بداخله شخصيتان: شخصية فطرية، وأخرى استحوازية شهوانية، فإن مالت النفس الشهوانية أو انحرفت قوّمتها النفس الفطرية وعدّلت من سلوكها[٧٣٠]، وعندما تندثر هذه النفس الفطرية تحت ركام المعاني الأرضية، عندها تتمرد النفس الشهوانية لتغدو طاغية مستبدة، تحول دون أيّ تقدم لمجتمعها أو بناء يرقى من خلاله، عندها يتحول الاقتصاد من عامل إيجاب يدفع الأمم إلى الأمام، ليغدو أكبر عائق أمام كل تحضر بدنوّ أخلاق المتحكمين فيه.

المثال الإيجابي(آلية الخروج):

يوسف عليه السلام:

يتميز المنهج القصصي في القرآن بطرقه أبواب الحياة من شتى جنباتها، صغيرها وكبيرها، إيجابيّها وسلبيّها، ليكون بطرحه الشامل الكامل دستوراً واضحاً، ومَعْلَماً جليّاً يُبَصّر الناظرين فيه حقيقة خطوهم، وطبيعة مسارهم.

وتأتي قصة يوسف-بالمشهد الاقتصادي الذي نجتزئه منها هنا-كمعيار دقيق، ومثال واقعي على قدرة الأمة اجتياز عقبة فقرها، وانهيار اقتصادها، وفساد سادتها، كي تخرج من محنتها قمة ترتجى، وقدوة تحتذى.

فالفساد الذي عمَّ مصر-مما لا مجال لذكره في هذا السياق-قد أسهبت الآيات في عرض أطراف فيه كمؤشرات عليه، فسوء أخلاق امرأة العزيز، وتستر زوجها عليها، وفساد نسوة الطبقة الحاكمة، والترف الذي انغمست فيه هذه الفئة، والظلم الذي تسري قوانينه دون رقيب أو حسيب، والذي تمخضت نتائجه عن سجن يوسف بعدما ظهرت براءته، كل هذه المعالم من الانحدار والانهيار توّجت برؤيا الملك، والتي تنذر بمصائب جمة تسير إليها البلاد والعباد، دون ظهور أدنى بوادر خير من الأمل في تجازوها.

ولكن لله أمرٌ آخر..فإن إقامة المصلحين في مكان كفيلة بأن يعمّ خيرهم على كل من حولهم، وكذا كان شأن يوسف في مصر، فكان بتفسيره لغز الرؤيا أول بوادر الانفراج، ولكنه الأمل الذابل، إذ لا قيادات تصلح لسياسة البلاد في سنيّ البلاء.

---

[٧٣٠]-ينظر:الشعراوي،ص٥٤٠٦

ويضع يوسف بين أيديهم الحل ويبين لهم المسلك من خلال خطة عملية طويلة الأمد، دقيقة الطرح، واضحة المعالم **"تزرعون سبع سنين دأبا"** فهي سنوات رغم خصوبتها إلا أنها تحمل من الجهد والمشقة ما يجعلها بمصاف سنيّ الجدب، إنه العمل الدؤوب والجهد الدائم، بما يوحيه الفعل المضارع من استمرارية، مُخْرجاً الأمر بصورة الخبر للمبالغة في إيجابه كأنه موجود[٧٣١]، مُتْبعاً إياه بلفظة الدأب الموحية بالاستمرار على ذات الحال من الفعل دونما كلل أو ملل[٧٣٢]، ليغدو هذا الحال صفة للسنين نظراً لدوام البقاء عليها[٧٣٣]إنه تجنيدٌ للطاقات وحشدٌ للقوى، وتشغيلٌ كاملٌ للأمة، بل ارتقاءٌ بنسبة تشغيل كل فرد فيها إلى أعلى درجاتها، مع برمجة كاملة للوقت[٧٣٤].

لقد كان تخطيط يوسف قائماً على دعامتين أساسيتين هما استشراف المستقبل ووضع الأهداف من ضرورة مضاعفة الإنتاج مع تقليل الاستهلاك، إضافة إلى تخزين الطعام[٧٣٥]، ناهيك عما يحتاجه المخطط من عناصر أخرى للتنفيذ لا يمكن نجاحه بدونها، من سياسات ووسائل وأدوات وموارد بشرية، وإجراءات وبرامج زمنية، ليَخُطَّ مِنهجاً للأجيال يؤكد فيه على ضرورة التخطيط، بوصفه الوظيفة الأساس لكل إدارة، والذي لن تكون فعالة بدونه، وأول درجات هذا التخطيط رفع إنتاجية العاملين فيها بتنمية قدراتهم ومهاراتهم ودافعيتهم للعمل[٧٣٦].

لقد فصّل يوسف الصديق الرؤيا بما تتضمنه من صعاب وحوالك طريق، ولكنه ترك بين يدي الأمة شعاع أمل تترقبه، وتسعى للوصول إليه **"ثم يأتي من بعد ذلك عامٌ فيه يُغاث الناس وفيه يعصرون"** ليكون الدافع لها لبذل المزيد من الطاقة واستنفاد المدّخر من الجهد[٧٣٧].

---

[٧٣١] -ينظر:الزمخشري،ج٢،ص٤٧٦،وينظر:ابن عاشور،ج١٢،ص٧٣،وينظر:رضا،ج١٢،ص٢٦٣.

[٧٣٢] -ينظر:الرازي،ج١٨،ص٤٦٥.

[٧٣٣] -ينظر: القرطبي،ج٩،ص٢٠٣.

[٧٣٤] -ينظر:نوفل،أحمد(١٩٩٩):**سورة يوسف(دراسة تحليلية)**،ط٢،ص٤٠٩،عمان:دار الفرقان.

[٧٣٥] -ينظر:نوفل،**سورة يوسف**،ص٤١٥،وينظر:النجار عبد الهادي علي(١٩٨٣):**الإسلام والاقتصاد**،ص٢٢٣-٢٢٦،المجلس الوطني للثقافةالكويت.

[٧٣٦] -ينظر:نوفل،**سورة يوسف**،ص٤١٣-٤١٥.

[٧٣٧] -ينظر:المصدر السابق،ص٤٢٨.

إن الإنسان لن يكون فعّالاً إلا إذا كان مصدراً للنفع، أو مكاناً له أو طريقاً إليه، ليُطلق عليه أصحاب الاصطلاح اسم المورد..وقد أدرك يوسف عليه السلام ذلك، وعلم أن هذا الإنسان هو الأصل والمحور الذي عليه وبه ينشأ النهوض ويشيد البناء، فجاءت خطته الإصلاحية شاملة، ابتدأت أول أمرها بإنسانها متمثلة في دعوته إلى التوحيد، وتبصيره بحقيقة الوجود من خلال دعوة يوسف السجينين، لأن الحقيقة بدت جلية في نظر نبيّ الله يوسف، فالعلاقة مطردة بين صلاح كل من النظام والإنسان، فكلٌّ منهما يعين الآخر على صلاحه، ولكن العنصر الأهم والأبرز في أيّ معادلة إنما هو الإنسان، الذي إليه وبه ترجع الأمور، ومن خلاله وحده تتشكل المواقف، هذا الإنسان إن لم يمارس عملية التغيير داخلياً من خلال حرصه على الارتقاء بذاته فلن يؤهل لإحداث أي تغيير خارجي، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فإن أيّ إصلاح يأتي من خلال النظام ممَثلاً بقوانينه المختلفة لأجل تغيير الإنسان لن تجدي نفعاً، ما لم تنقلب المعادلة ليكون هذا الإنسان بإصلاحه نفسه هو مؤشر التغيير لإصلاح النظام المستظل بظله، لأننا حينها نضمن للأمة نجاح عملية التغيير فيها بسبب إنسانها الذي يقف ورائها، والذي استطاع أن يقتل كل معاني الأنانية والجشع وحب الذات في أعماقه لتكون الأمة هي تفكيره وغايته وأمله.

لقد أدرك يوسف أن نجاح أيّ خطة يعتمد على عاملها البشري سواءً على مستوى القيادة، أو على المستوى الشعبي، بعد التأكد من صحة أسسها المادية، فكانت أول انطلاقته إظهار براءته لتنقية ساحته وإغلاق المعابر أمام الحاسدين والمتربصين الحريصين على خرق أطروحته، ومن ثمّ على اختيار المعاونين الأكفاء الذين تبدت كفاءتهم وسماحتهم من خلال تعاملهم مع إخوة يوسف[٧٣٨].

إن اعتناق المبدأ أو الدين لا يكتب معالم النجاح أو الفشل بقدر ما يكتبه التطبيق والحماس مع الإيمان، فكم من أمم ذات عقائد صحيحة خسرت معركتها وهوى جناحها بسبب تواكلها، وكم من أمم ذات عقائد فاسدة علت وارتفعت بسبب حشدها لكل قواها ومثابرتها[٧٣٩].

---

[٧٣٨] -ينظر:نوفل،**تفسير سورة يوسف**،ص٤١٨-٤٢١.

[٧٣٩] -ينظر:أبو المكارم،زيدان،**بناء الاقتصاد في الإسلام**،ص٢٠٤.

ولعلّ في هذا ردّاً على أولئكم المفتونين من المسلمين المتأخرين عن غيرهم، فالمسلم ما تأخر بسبب إسلامه، وغيره ما تقدم بعدم إسلامه، وإنما العلة هو التمسك والترك للأسباب**"كُلًّا نُمِدُّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا "الإسراء٢٠**[٧٤٠]، ولو أن صاحب العقيدة عمل وبذل لكان أكثر إنتاجاً وأعظم ثمرة، لأن سفينته تجري في اتجاه الريح، وما عليه إلا أن يضع كل قواه ومواهبه العملية مع ما آمن به ليصل إلى غايته[٧٤١]، مدركاً أن الحضارة لا تعني تكديس الأشياء بجلبها من هنا وهناك، وإنما بما تحمله من مُثُل وقيم[٧٤٢]،وأن زيادة الاستهلاك والانغماس في الترف وارتفاع ميزان الدخل ليست مؤشرات حضارية[٧٤٣]، حيث يتوقف الإبداع وتنطفئ الفاعلية بسبب بروز العلل والجهل في كيفية التعامل معها.

لقد وضع الله للإنسان المنهج الذي يحكم حياته، وذلك لجهله بنفسه وعجزه عن إدارتها بمفرده، ولكنه أطلق يده في الكون ليتحكم في المادة بما زُوّد به من طاقات تجعله سيداً لها[٧٤٤]، هذه الطاقات التي دفعت يوسف الصديق إزاء عرض الملك عليه استخلاصه لنفسه وتقريبه منه-لما ظهر له من حكمته وعلمه ونزاهته[٧٤٥]-أن يبسط ما عنده مما أعطاه الله إياه ليكون معيناً لمليكه في اختيار الموضع الأمثل له فقال: **"اجعلني على خزائن الأرض"** بكل ما يتفرع عنها من موارد بشرية وحيوانية وزراعية ومتابعة فنية، وذلك لما تملّكه من حفظ وعلم بما يضمانه من معاني القوة والأمانة، وكلها سمات يحتاجها القائد في مواجهة محنة عصيبة كتلك التي تقبل عليها البلاد[٧٤٦].

إنها معالم جديرة بأن تقف الأمة عندها وهي تعاني ما تعانيه اليوم من أزمات فاتكات تطحن تحت عجلتها كل معان للكرامة والإنسانية، تلكم التي ما عادت تجد ما يُقيتها ويقيم أودها، ناهيك عن أن تجعل منها ترسانات بناء لأمة يُرجى إعادة الشهود إليها كما كانت في سالف أيامها..سيدة الأنام..!!

---

[٧٤٠]-ينظر:ابن باديس،**مجالس التذكير**،ص٩١.

[٧٤١]-ينظر:أبو المكارم،زيدان،**بناء الاقتصاد**،ص٢٠٦.

[٧٤٢]-ينظر:بن نبي،مالك،**شروط النهضة**،ص٤٢.

[٧٤٣]-ينظر:حسنة،**الوراثة الحضارية**،ص١١٨.

[٧٤٤]-**ينظر:قطب،سيد،الإسلام** والمشكلات الحضارية،ص٢٤

[٧٤٥]-ينظر:ابن عاشور،ج١٢،ص٨٢

[٧٤٦]-**ينظر:نوفل،تفسيرسورة** يوسف،ص٤٥١

المبحث الثالث:الطغيان الفكري

تعد ميادين الأفكار من أبرز المواقع التي يُعلن فيها دوماً-وعلى مرّ التاريخ-عن بدء انطلاق نحو التغيير أنّى كانت وجهته، سواءٌ كان التغيير إيجابياً نحو النهوض والعلوّ والارتقاء، أو تغييراً سلبياً بما يحمله من معالم النكوص والانحدار، على أن هذه الميادين لها فرسانها حسب طبيعة الأفكار التي تجول في ساحاتها، وعندما يكون محور حديثنا عن تصوّر للفكرة الإسلامية، فإننا بهذا نَمدُّ مساحة المشاركة لتطال كل مسلم طرق أبواب البلوغ متمتعاً بكامل الأهلية، مع اختلاف الدور حسب الموقع والطاقة.

وعلى قدر امتداد هذه المساحة تمتد معها أيضاً المساحة المضادة التي تحاول إصابة العقل المسلم وليّ عزمته، وقَصْر همته كي لا تتجاوز سدَّ جوعته، لتخلو لها الساحات عبثاً وإفساداً، ملوّنةً بذلك حربها ما بين شبهة وشهوة، لتجتمع حِيَلهم-أنّى تعددت-بين جنبي قوله تعالى **"إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس"** وفي سبيل تجلية هذا المعنى وبيان ما له من عظيم الأثرعلى حِراك الأمم وتقدمها أو تأخرها، سيتم طرح هذه القضية من خلال مطالب ثلاث :أولها بيان مفهوم التبعية والتقليد، وثانيها إدراك المفارقة بين العقل الصاعد والعقل الهابط، وثالثها بيان كيفية الخروج من هذا المأزق بتجلية مفهوم التجديد من خلال تلوّن الخطاب القرآني حسب حال المخاطب وأجواء الخطاب، وذلك من خلال مشاهد قصصية عرضت لها الآيات القرآنية، وتعدّد الطرْق على ما ورد فيها من مفاهيم إيذاناً بعظمة أهميتها وقوة فاعليتها.

المطلب الأول:مفهوم التبعية والتقليد

قوم صالح وقوم نوح عليهما السلام:

يقول تعالى:وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ ٱلۡمَلَؤُاْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيۡكُمۡۚ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةٗ مَّا

سَمِعْنَا بِهَـٰذَا فِيٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌۢ بِهِۦ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا۟ بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٢٥﴾ {المؤمنون}

ويقول تعالى:"قَالُوا۟ يَـٰصَـٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَـٰذَآ ۖ أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٦٢﴾ قَالَ يَـٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُۥ ۖ فَمَا تَزِيدُونَنِى غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴿٦٣﴾ وَيَـٰقَوْمِ هَـٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴿٦٤﴾ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا۟ فِى دَارِكُمْ ثَلَـٰثَةَ أَيَّامٍ ۖ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴿٦٥﴾ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَـٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْىِ يَوْمِئِذٍ ۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ﴿٦٦﴾ وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَـٰرِهِمْ جَـٰثِمِينَ ﴿٦٧﴾هود

موكب البشرية المتلاحق عبر الأزمان بما يحمله من تفاوت في العقول والأقدار، نراه مؤطراً ضمن مفاهيم تكاد تكون متساوية ثابتة حتى لتغدو قواعد أزلية لا تبديل لها ولا مفرَّ منها، إنه الصراع القائم أبداً بين فكرتين متناقضتين، ففكرة النزوع

إلى عوالق الأرض وشهوات الطين، وفكرة السموّ في عوالم الروح ومبادئ اليقين، حتى غدا الباطل عَلَماً على الأولى، والحق دليلاً على الثانية، ليستمر قيام هذا الميدان ما قامت الحياة.

وصالح عليه السلام أنموذج لرموز الحق السائرين عبر تاريخ أممهم، الذين يحاولون تبصير القلوب الهائمة والعقول الغائمة سبُل النقاء والصفاء، متجردين بمسعاهم عن كل أجر أو مكسب، لا يرون-رغم وعورة طريقهم-سوى تحقيق مراد الله في وجودهم على أرضه هدفاً لهم، ليكون الصدام الأول الذي يقف حائلاً دون تحقيق مرادهم أو على الأقل، دون بسط المجال أمامهم لطرح ما يحملون هو تلكم العقول المتحجرة والأذهان الصلدة المغلقة، التي خُتم عليها فلا يدخل إليها ولا يخرج منها شيءٌ أبدا، ليأتي الجواب المكرور**"أتنهانا أن نعبد ما يعبد آباؤنا"{هود٦٢}"ما سمعنا بهذا في آبائنا الأولين"{المؤمنون٢٤}**فهم لا يعوّلون في شيء من مذاهبهم إلاّ على التقليد والرجوع إلى قول الآباء[٧٤٧]، دون أن يكون لديهم أدنى تفكير أو استقلال ينظرون من خلاله إلى الأشياء نظرة حق وعدالة.

إنه الواقع المكرور الذي يحدث دوماً عندما يطمس التقليد على حركة الفكر وحرية القلب، فلا يتدبر الناس ما بين أيديهم من القضايا ليهتدوا على ضوء الواقع إلى حكم مباشر عليها، إنما يبحثون في ركام الماضي عن سابقة يستندون إليها، فإن لم يجدوا هذه السابقة رفضوا القضية وطرحوها[٧٤٨]، ليتحول التراث إلى قيد بدل أن يكون مع التحضر جناحان تطير بهما الأمة علوّاً وارتفاعاً.

إن من الوهم بمكان أن تعتقد أمة من الأمم أن تراثها بمفرده-مهما كانت عظمته-يمكن أن يحفظ لها استقلالها وحريتها ونجاعتها التاريخية، وعليها أن تؤمن يقيناً بأن مصيرها مرهونٌ بمقدرتها على أن تجعل من تراثها-ثمرة أجيالها الماضية-رأس مال قابل للتوظيف في عمليات التجديد والتحضر[٧٤٩]، لذا نجد الآيات في عرضها المفصّل لمواقف الأقوام من الأفكار الجديدة المطروحة عليهم تمضي محذّرة الأمة أن تنحو منحاهم، وتفتح لهم آفاقاً تعمل من خلالها على تحريرهم من كل قيد يأسر إرادتهم ويعيق

---

[٧٤٧]-ينظر:الرازي،ج١٨،ص١٥

[٧٤٨]-ينظر:قطب،**الظلال**،ج٤،ص٢٤٦٤.

[٧٤٩]-ينظر:السامرائي،**نحن والحضارة**،ج١،ص٨٨.

حركتهم، سواءٌ كان خضوعاً لموروثات قديمة، أو تأثراً وارتهاناً لأمم أخرى، ليربطهم بالمصدر الأصل موجهاً ولاءهم إليه وحده سبحانه، محققاً لهم بذلك مناخ الحرية الأمثل، الذي يعد هو القوام والأساس لنموّ شجرة الفكر خالية من التشوهات والعاهات والعقد[٧٥٠]، ليتسنى لنا عبر هذا الفهم تأكيد حقيقة براءة القرآن والإسلام من سوء حال المسلمين اليوم، وإعادة الأمر إلى حظيرة الجمود والتقليد والحرفية التي انتهجتها أجيال الأمة منذ زمن برفضها الاجتهاد في ميادين الحياة كلها، حريصة على إعادة نماذج كان لها زمانها الذي تلاءمت معه، ولكنها عاجزة عن مواكبة الحاضر بملابساته الراهنة[٧٥١].

إن من عجائب الجهل بالقرآن أن يعود الخلق الكثير من مدّعي اتّباع القرآن إلى التقليد-لا تقليد أئمة العلم الذين نهوهم عن التقليد-وإنما تقليد شيوخهم المتأخرين بحجة أنهم أعلم منهم وأفقه، وما أضْيَعَ البرهان عند المقلد، ولو كان التقليد حجة مقبولة عند الله لقِبلها من مقلدي جميع الأمم والملل[٧٥٢].

فجمود النظر وفساد الإدراك وتقليد الآباء، هو من أمراض العقول التي حرص القرآن مليّاً على وضع العلاجات لها بما دعا إليه من نظر وتأمل وتفكر وتدبر مع نَعْيه على المقلدين تقليدهم[٧٥٣].

إن من أبرز العوائق التي تقف في طريق المسلمين اليوم محاولتهم الهروب من واقعهم، والبحث عن أنماط مثالية من سالف الحياة الإسلامية على عهد التحضر الإسلامي، واعتقاد أن إصلاح الواقع وتغييره لا يكون إلا من خلال ذلك المثال على سبيل الاستنساخ لا الاستفادة من الفقه الذي تحقق على أساسه ذلك المثال[٧٥٤]، هذا الافتقاد للرؤية الشمولية على مستوى التصور والتطبيق، والعيش في حالة التبعيض[٧٥٥] أورث الأمة حرماناً وتخلفاً ونكوصاً، لأن طبيعة الإسلام تقتضي تحرراً من كل سلطان يقيد

---

[٧٥٠] -ينظر:هويدي،**القرآن والسلطان**،ص٢٥.

[٧٥١] -ينظر:جارودي،رجاء،**الإسلام هو الحل الوحيد للأزمات المتصاعدة في الغرب**،كتاب المختار،ص٢٦.

[٧٥٢] -ينظر:رضا،**المنار**،ج١٢،ص١٨٣.

[٧٥٣] -ينظر:ابن باديس،**مجالس التذكير**،**ص١٩٠**.

[٧٥٤] -ينظر:النجار،فقه التحضر،ص٤٥.

[٧٥٥] -ينظر:الطويل،نبيل صبحي(١٤٠٤):**الحرمان والتخلف في ديار المسلمين**،**ط١**،**قطر**:رئاسة المحاكم الشرعية،ص١٠ (كتاب الأمة).

انطلاق البشرية، أو يقعد بها عن التقدم الدائم في سبيل الخير[٧٥٦]، بما يرسخه في ثوابتها من تجرد في ولائها لله وحده.

على أن مكمن المشكلة في العقل المسلم، هي الخلط بين النص الإلهي الخالد المطلق المعصوم المجرد عن حدود الزمان والمكان، وبين الاجتهاد البشري المظنون النسبي المحدود المحكوم بحدود الزمان والمكان وظروف الحال، لتنتقل القداسة من النص المعصوم إلى الاجتهاد المظنون، مما يؤدي إلى العطالة العقلية والتقليد الجماعي والكسل الفكري، وتوقف الاجتهاد والإبداع، وشلل الفاعلية، ومطاردة عمليات التقويم والمراجعة والنقد والنقض، ويصبح الرجال وصور تدينهم واجتهادهم هم المعيار للحق ومعرفته، ويصبح أي نقد لهم ولممارساتهم نقداً لقيم الدين، فتتكرس الأخطاء، ويغيب الشهود على الذات-ناهيك عن الشهود على الآخر-وتُحاصر قيم الدين، ويُحال دون قدرتها على الإنتاج لكل عصر[٧٥٧]، ليعود ذات النغم **"ما سمعنا بهذا في آبائنا الأولين"**.

ومن الملاحظ في المواجهة بين الماضي المتجذر والجديد الحاضر أن ردود الفعل تنصب على الشخص الحامل للفكرة طعناً فيه، وامتهاناً له، وتقليلاً من شأنه، واحتقاراً لمنزلته، وتهويناً لمكانته، كي تذوب فكرته بذوبان وجوده في قومه **"ما هذا إلا بشرٌ مثلكم"{المؤمنون٢٤}"قد كنت فينا مرجوّاً قبل هذا"{هود٦٢}"أبعث الله بشراً رسولا"{الإسراء٩٤}**بل إنهم يتجاوزون ذاته للعبث في نواياه والتشكيك في كامل أهليته، محاولين نصب الشباك أمام العامة من ذوي العقول الضيقة، والأفهام البسيطة للحيلولة دون تأثرهم بما يُلقى عليهم من جديد المعاني، فيغدون-رغم ضعفهم-قوةً بمستمسكهم وقناعتهم، قد تهدّد وجود هؤلاء الكبراء، وتُفني سلطتهم، فينادون **" يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ "{المؤمنون٢٤}" إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ"{المؤمنون٢٥}**

إنها عثرات تلقى في طريق أصحاب الدعوات من قِبَل كُبراء القوم وسادتهم الذين عبّر عنهم القرآن ب(الملأ)، فصاحب فكرة الحق ما هو في نظرهم إلا محبٌّ

---

[٧٥٦] -ينظر:قطب،محمد(١٩٩٥):**شبهات حول الإسلام**،ص٢١،دار الشروق.

[٧٥٧] -ينظر:السامرائي،**نحن والحضارة**،ج١،ص٢٣،وينظر:حسنة،**الوراثة الحضارية**،ص١٣٥،وينظر:إقبال،محمد(٢٠٠٦):**تجديد التفكير الديني** في الإسلام،ص٤٩،وص٦٢-٦٣ ،(ترجمة: عباس محمود)،تونس:دار الجنوب .

للرياسة والمتبوعية، حريصٌ على سيادة قومه[٧٥٨]، دون أن يتملك-في معاييرهم-ما يؤهله لذلك، بل إنهم يتطاولون طعناً له في عقله من باب الترويج على العوام، لما يأتيه من أفعال على خلاف عاداتهم[٧٥٩]، ناهيك عن التقليل من قيمة مقالته وأطروحته لأنها صادرة من بشر، وإنما توزن قيمة المعاني بعِظَم مصدرها، حريصين على إغفال منبع الفكرة والموحي بها، إنها ذات العلة التي لا زال يعكف عليها المتقدمون والمتأخرون من داخل الملة وخارجها[٧٦٠]، فحرب الأفكار وتجددها وخلع عباءة التقليد عنها يمتد ميدانها ليشمل المؤمن بالفكرة والكافر بها، فكما سجلت الآيات عنفوان القلوب الجاحدة، تسجل الحياة بلادة القلوب الخامدة، كي تَجْمُد الحياة معهم وبهم، وتتسمَّر خطاها عند جيل معين من(آبائنا الأولين)متهمين كل داع إلى التحرر والانطلاق بالجنون، رغم أن الدعوة لا تتعدى صيحةٌ للتخلية بين القلب والدليل.

وكما يفتن الفرد بالفرد، كذلك تفتن الأمة بالأمة، كفتنة هذه الأمة بأمم حيث بلغ ضعف التفكير والإغراق في التقليد منزلة رأى فيها البعض أن حضارة الغرب هي آخر ما وصل إليه العقل البشري، وأنه لا منزلة وراءها، مع دعوتهم إلى تطبيقها برمتها[٧٦٢]، وأن المسلمين عاجزون عن مسايرة الرقيّ دون تقبل قواعده كاملة في جميع مناحي الحياة[٧٦٣]، ولن يُنجي من مثل هذا الانزلاق إلا إبراز البعد العقدي والثقافي المميّز لشخصية هذه الأمة[٧٦٤]، مع الحرص على التوفيق بين الماضي المتألق والحاضر المتخلف بالتعامل مع الموروث بشكل سليم منتج وفاعل.

---

[٧٥٨]-ينظر:الرازي،ج٢٣،ص٢٧١،وينظر:أبو حيان،ج٧،ص٥٥٧،وينظر:ابن عاشور ج١٨،ص٣٥.

[٧٥٩]-ينظر:الرازي،ج٢٣،ص٢٧١،وينظر:ابن عاشور،ج١٨،ص٣٦.

[٧٦٠]-ينظر: رضا،**المنار**،ج٧،ص٢٦١،وينظر:ابن عاشور،ج١٤،ص١٦٦.

[٧٦١]-ينظر:ابن باديس،**مجالس التذكير**،ص٢٤٢.

[٧٦٢]-ينظر:الندوي،أبوالحسن علي الحسني(١٩٦٧):**ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين**،ط٩،ص٢٩٢،دار السلام.

[٧٦٣]-ينظر:أسد،محمد،**الإسلام على مفترق الطرق**،ص٧٩.

[٧٦٤]-ينظر:حجاب،محمد منير(٢٠٠٤):**تجديد الخطاب الديني في ضوء الواقع المعاصر**،ط١،ص٦٤، سوهاج،القاهرة: دار الفجر.

المطلب الثاني:مفارقة بين العقل الصاعد والعقل الهابط:

قصة السامريّ:

يقول تعالى:"قَالُواْ مَآ أَخۡلَفۡنَا مَوۡعِدَكَ بِمَلۡكِنَا وَلَٰكِنَّا حُمِّلۡنَآ أَوۡزَارٗا مِّن زِينَةِ ٱلۡقَوۡمِ فَقَذَفۡنَٰهَا فَكَذَٰلِكَ أَلۡقَى ٱلسَّامِرِيُّ ﴿٨٧﴾ فَأَخۡرَجَ لَهُمۡ عِجۡلٗا جَسَدٗا لَّهُۥ خُوَارٞ فَقَالُواْ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمۡ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ ﴿٨٨﴾ أَفَلَا يَرَوۡنَ أَلَّا يَرۡجِعُ إِلَيۡهِمۡ قَوۡلٗا وَلَا يَمۡلِكُ لَهُمۡ ضَرّٗا وَلَا نَفۡعٗا ﴿٨٩﴾{طه}

حينما تعتاد النفس على الاستخذاء والاستعباد يصبح من العسير عليها أن تُمَلّك شأن اختيار الفكرة وسويّة الطريق، لأنها ستقف عاجزة أمام اتساع الفسحة الممتدة لها، وستلهث خلف كل ناعق دون أن تمنح ذاتها فرصة التمحيص والاختبار **"ما أخلفنا موعدك بملكنا"{طه٨٧} "**يلقون التهمة عنهم بهذا الاعتذار الصبياني البارد[٧٦٥]**"**ليتحوّل كل صاحب دعوة عند هؤلاء إلى علاّقة يحمّلونها فشلهم وتنكبهم وانحطاطهم، دون أن ينظروا إلى ما أنيط بهم من دور، وما وقع على كاهلهم من تبعة **"أفلا يرون ألا يرجع إليهم قولاً ولا يملك لهم ضرّاً ولا نفعا"{طه٨٩}.**

لقد أراد الإسلام للعقل أن ينهض من عقاله ويفيق من سباته، فدعاه إلى التفكير والتأمل، مؤكداً أن تعطيله عن مهمته إنما هو هبوطٌ بصاحبه إلى مستوى أقل من مستوى الحيوان، والتقليد مانعٌ للعقل من الانطلاق، معيقٌ له عن أداء مهمته[٧٦٦].

على أن ثمّة إشكالية خطيرة تحوّلت عند الكثيرين إلى مسلّمة، مورّثةً الأمة مزيداً من الجمود والتخلف، مفقدةً إياها الفاعلية المتأملة منها، هذه الإشكالية هي أن

---

[٧٦٥]-انظر:الخطيب،**التفسير القرآني**،ج٨،ص١٧٧.

[٧٦٦]-سيد سابق،**إسلامنا**،بيروت:دار الكتاب العربي،ص٢٤،وينظر:المدرسيّ،محمد تقيّ، **الفكر الإسلامي في مواجهة حضارية**،ص٥٧-٦٢ بيروت:دار العربي.

الوحي يقابل العقل، ومن ثمّ فعلى المسلم إما أن يختار الوحي، وإما أن يختار العقل، وكأن الله عز وجل قد خلق العقل للعطالة وعدم الاستخدام[٧٦٧].

وتأتي هذه الآيات لتنقل لنا عبر الزمن أن الدين برهان وليس تسليماً بدون تفكير، وما انصاع إليه بنو إسرائيل كان تسليماً واتباعاً دون إعمال للعقل أودى بهم خارج قطار التقدم، وكان سبباً في انهيار حضارتهم.

هذا التعطيل المطلق للفكر، والانسلاخ عن الثوابت، والتنكر للأصل الموروث-الذي كان سمة قوم موسى عليه السلام-إضافة إلى انبهارهم بالجديد المزيّف-وإن ظهر لهم بطلانه-هو ذاته حال الأمة في انسياقها خلف الغرب في حضارتهم بكل ما تحمله بين جنباتها من جميع أنواع الصراعات والنزاعات بين الإنسان ونفسه من ناحية، وبينه وبين الحياة والأحياء من ناحية أخرى، ليأتي الاقتباس من هذه الحضارة من قِبَل أفهام قد سادها الذل والصغار فلم تلتفت إلا للتوافه والملذات، لاهثة خلف الحرية التي يدّعونها، وهي ليست حرية العقل أو الفكر، بل حرية الغريزة في أن تطيش وتضطرم[٧٦٨].

وإن كنا على يقين بأن الغرب له منظومته الخاصة به، والتي تهيىء له من خلالها مراعاة مصالحه والحفاظ عليها[٧٦٩]، فإن ذلك يوجب علينا ألا نجري خلفه-جري بني إسرائيل خلف السامريّ-بل لابد لهذه العقول أن تتحرر بتخليص ولائها من شوائب التعدد وتوحيدها لله الواحد.

إن هذا العقل هو محل الوحي ووسيلة الاجتهاد، وموطن وضع الخطط والبرامج لتقويم الحياة، وإبطالُ عمله محاصرةً للوحي ورفعه من فاعلية التنزيل على الواقع وإصلاحه إلى خانة الترك[٧٧٠]، ومن ثمّ فإن العقل الذي نريده هو العقل الحر الباحث عن الحقيقة، الطليق من أسر التقليد واتباع الظنون والأهواء، لأن العقل المُكبَّل بأغلال الانبهار بفلسفة معينة، أو بثقافة بشرية، أو بتقليد الماضين، هو عقل غير مؤهل لقيادة

---

[٧٦٧]-انظر:حسنة،**الوراثة الحضارية**،ص١٩.

[٧٦٨]-ينظر:الغزالي،**الطاقات المعطلة**،ص٤٧.

[٧٦٩]-ينظر:التويجري،عبد العزيز بن عثمان(١٩٩٧):**آفاق مستقبل الحوار بين المسلمين والغرب**،ص٨،منشورات المنظمة الإسلامية للتربية،ايسيسكو <

[٧٧٠]-ينظر:حسنة،**الوراثة الحضارية**،ص٢٠.

نفسه، ناهيك عن قيادة أمته[٧٧١] "فالمقلد غير ثقة فيما قلّد فيه، وفي التقليد إبطال منفعة العقل لأنه خلق للتأمل والتدبر، وقبيح بمن أعطي شمعة أن يطفئها ويمشي في الظلمة[٧٧٢]".

وحضارة الغرب رغم كل ما فاض منها من مساوئ تعبث بمعاني الإنسانية الحقة، إلا أنها استطاعت المضيّ وإثبات الذات برفضها الجمود، ودعوتها إلى التطور، وإتاحتها الفرصة أمام أفرادها لمزيد من الابتكار والإنتاج، بما أتاحته له من مناخات نفسية وفكرية، ومنحته له من حريات تشعره بكرامته وقيمته، محررة إيّاه من الخوف والذل، هذه الأجواء حُرمها العقل المسلم لتجتمع عليه الموروثات الرديئة والمحدثات السخيفة، منهكة قواه، مضاعفة حُجُب الغفلة عليه، معقدة أسباب البلاء، مزيدة العبء والثقل على كاهل المصلحين.

المطلب الثالث: مفهوم التجديد

وهو المعنى الذي يمكن للأمة من خلال طرحه في ميادينها أن تنهض من كبوتها، وتصبح قادرة على إعادة مسك زمام الأمور وتوجيه دفّة الحياة، بعدما فقدت قيادتها وشهودها خلال القرون الماضية.

هذا المفهوم الذي يدور محوره حول التدين لا الدين، التدين الذي ناله من الزيادة والنقصان والمغالاة والغياب للكثير من المعاني، ما حمل أفراده على فتور الهمم، ودفعهم إلى انطفاء الفاعلية، بسبب الإلف وترسب العادات والتقاليد، والتي حالت دونهم ودون تحقيق التزامهم بكيفيته المطلوبة.

أما الدين وقيمه وثوابته، فهي مكتملة وكاملة ومحفوظة[٧٧٣]، ليبرز معنى التجديد للدين-بهذا الفهم-مثبتاً خلوده وخاتميته، مقدّماً البرهان تلو البرهان على قدرته وحده النهوض بأمته مهما حاولت التشريق بمفاهيمها أو التغريب، فليس لها من دوحة تأوي إليها سواه.

---

[٧٧١] -ينظر:الكرواني،سعيد(٢٠٠٧):**نحو تجديد الخطاب الديني**،ص٢٤٩،المملكة المغربية،منشورات وزارة الأوقاف،دار أبي رقراق.

[٧٧٢] -ابن الجوزي،عبد الرحمن بن علي بن محمد(١٩٨٥):**تلبيس إبليس**،**ط١**،ص١٠١،(ت:السيد الجميلي)،بيروت:دار الكتاب العربي .

[٧٧٣] -ينظر:خليل،عماد الدين(١٩٩٥):**رؤية إسلامية في قضايا معاصرة**،ط١،ص١٠-١٢،،قطر: وزارة الأوقاف .

هذا التجديد ليس بالمفهوم المستهجن الوارد الغريب، وإنما هو من صُلب الفَهْم الذي وجهنا إليه المصطفى-صلى الله عليه وسلم-حين قال: **"إن الإيمان ليخلق في جوف أحدكم كما يخلق الثوب الخلق،فاسألوا الله أن يجدد الإيمان في قلوبكم"**[٧٧٤]**"إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها"**[٧٧٥]

وقد تجلّى هذا المفهوم في الآيات من خلال تلوّن الخطاب القرآني بالصورة التي تحمل معها تجديداً لآليات الدعوة أثناء العمل على إبراز فكرة الحق من خلال مسايرة الواقع، مع الحرص على حسن توجيهه بامتلاك القدرة على وضع الخطط والبرامج في ضوء معايير ثابتة وأصول راسخة، ليتحقق مع الأصالة التجديد المطلوب ويتم في ظلها كسب المزيد من الأنصار، وتوسعة المساحة المطروحة لتحصيل الشهود الحضاري لهذه الأمة

المشهدالأول: نوح عليه السلام

قال تعالى:"قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ۝ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا ۝ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا ۝ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ۝ ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ۝ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ۝

---

[٧٧٤]-رواه الحاكم،وقال:رواته ثقات،ج١،ص٤٥،رقم الحديث٥.

[٧٧٥]-رونه أبو داود في سننه،ج٤،ص١٧٨،رقم الحديث:٤٢٩٣.

لا بد لصاحب الفكرة من إدراك الواقع المتغير والإقدام عليه بآلات فهم علمية، تناسب العقول المخاطبة وتخالط وجدانهم، فإن الأفكار مهما كانت عظيمة نفيسة إن لم تستطع معالجة الواقع بتقديم الحلول الأفضل فإنها لن تجد لها بين الأمم مكاناً.

وحتى تنال الفكرة مكانتها تحتاج إلى حامل مبدع لها، كالأنموذج الذي تقدّمه لنا الآيات، ممثّلة في نوح عليه السلام، الذي أدرك واقع قومه المزري وموروثهم العقيم المتجذر، فراح يراوغهم عن عقولهم وقلوبهم وأفهامهم وذكائهم بشتى الوسائل، فمن صيحة بالحق علانية، إلى إسرار به في خفاء، إلى جمع بين هذا وذاك، ليعطي كل مرحلة منها وقتاً كافياً طويلاً ممتداً حتى يستيقن ألا سامع له أبدا[٧٧٦]، فيمضي إلى وسيلة أخرى دون أن يضن بجهده أو فكره في زمن من ليل أو نهار، توسماً منه أن يقارب وقتاً يكونون فيه أصفى ذهناً وأنقى فؤاداً[٧٧٧].

لقد بذل نوح عليه السلام كل ما يمكنه في سبيل فكرته، ولكنه واجه صورة من صور البشرية العنيدة الضالة الذاهبة وراء القيادات المضللة[٧٧٨]، إنه الجمود حين يفسد الروح ويفسد معه الحياة، وإنه وجه من وجوه التقليد الذي قادهم إلى تصرفات لا يأتيها إلا الصبية في ألعابهم، فما توانَوا عن وضع الأصابع في الآذان خشية السماع والتأثر، وتغطية الوجوه بدل الأبدان خشية أن تقع الأبصار على الفم المتحرك بالحق فيلتقط الذهن إشارة التغيير.

وبالرغم من أن جهد نوح عليه السلام المضني لم يلق النجاح المطلوب، إلا أنه ترك منهجاً تأصيلياً للمصلحين على مدار التاريخ من بعده، فالحقيقة التي يسعون لترسيخها تستحق كل جهد وتضحية، ولو لم يكن ثمة ثمرة إلا قلب واحد يستضيء بها، فهي أهلٌ لهذا الجهد والعناء، إضافة إلى تبيينه قواعد أصيلة لا مندوحة عنها، فكما أن السبل الموصلة إلى الحقيقة عديدة ومتنوعة، من سبل فكرية إلى أخرى سلوكية[٧٧٩]، كذلك فإنها تؤكد على ضرورة التدرج في طرح الفكرة مع حسن ترتيبها، بسلاسة طرحها لسهولة وصولها إلى الأذهان، إضافة إلى خلوّها من المبالغة والخطأ والاستعلاء

---

[٧٧٦] -ينظر:تفسير مقاتل بن سليمان،ج٣،ص٤٠٢،وينظر:الماوردي،ج٦،ص١٠١،وينظر:الخطيب،ج١٥،ص١١٩٧.

[٧٧٧] -ينظر:أبو حيان،ج١٠،ص٢٨١،وينظر:ابن عاشور،ج٢٩،ص٣٨٠.

[٧٧٨] -ينظر:قطب،**الظلال**،ج٦،ص٣٧٠٦.

[٧٧٩] -ينظر:ابن عادل،**اللباب**،ج١٩،ص٣٨٠،وينظر:الرازي-ج/٣٠-ص/٦٥١.

والكبر[٧٨٠]، مؤكدة أن أسس الطرح القرآني لفكرته الحقة أبعد ما يكون عن سد الطريق على التفكير الإنساني، بل هي في الحقيقة تعمل كمنبه لهذا الفكر، إنها تشير إلى كون هذا الوجود خلقٌ يزداد ويترقى **"وقد خلقكم أطوارا"{نوح ١٤}** لتؤكد أن لكل جيل الحق في أن يهتدي بما ورثه من آثار أسلافه، دون أن يعيقه هذا الإرث عن التفكير لحل مشكلاته الخاصة[٧٨١].

المشهد االثاني: إبراهيم عليه السلام

يقول تعالى:"إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٦﴾ وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾

{الأنبياء}

مشهد من المشاهد القرآنية التي عرضت لحوار العقل الحر وهو يطرح فكرته بين يديْ قومه محاولاً إقناعهم بها، طارقاً كل السبل لتحقيق ذلك، فما ترك باباً من أبواب الفهم إلا حاول فتحه والولوج من خلاله إلى أعماقهم لتصويب مسارها، ولكن محاولاته كلها لم تفلح، فمن الصعب بمكان أن تغيّر النفس نهجاً دامت على السير عليه قروناً تتوارثه آباءٌ عن أجداد، لذا كان لا بد لإبراهيم عليه السلام-وكل داعية من بعده-أن يلجأ إلى تلوين خطابه، ليخترق من خلاله جبروت القلوب من ناحية، وعتوّ العادة من ناحية

---

[٧٨٠]-ينظر:الميداني،عبد الرحمن حبنكة(١٩٩٠):**نوح عليه السلام وقومه في القرآن المجيد**،ط١،ص٢٠١،،دمشق:دار القلم.

[٧٨١]-ينظر:إقبال،محمد،**تجديد التفكير الديني**،ص١٧٢-١٧٣

أخرى، وقد يكون أحد أشكال هذا الخطاب الطرق بعنف إن واجهت أفهاماً حديدية صلدة **"وتالله لأكيدن أصنامكم"** موائمة للملابسات والأوضاع وتحديداً للوجهة الأمثل للدخول إلى أعماقهم.

لقد انتقل إبراهيم عليه السلام بمرحلة التغيير من القول إلى الفعل معلناً عزمه على ذلك في صورة عملية لهدم الباطل ومحو آثاره، فلعله الأسلوب الأنجع والأقوم الذي يمكن أن يعامل به صِغار العقول[٧٨٢].

لقد مرّت تجربة إبراهيم عليه السلام مع قومه بمراحل عديدة، جال خلالها في ميادين نفوسهم وساحاتها، مفتشاً في كل زاوية منها على بذرة خير يستصلحها، خاطّاً للبشرية من بعده منهجية الحوار التي تعد أساس تثبيت القيم وترسيخ المبادئ، ليغدو هذا المنهج أصلاً أصيلاً في حضارة هذه الأمة بكل ما تقتضيه من رحابة صدر، وسماحة نفس، ورجاحة عقل، وثقة ويقين وثبات، وبكل ما يرمز إليه من القدرة على التكيف والتجاوب والتفاعل والتعامل المتحضر الراقي مع الأفكار والآراء[٧٨٣].

على أن لون الخطاب لابد أن يصمم بطريقة تلفت الانتباه بما تضمه من عناصر التوقيت والبراهين والكلمات وإثارة الحاجات الشخصية والاستمالات العقلية والقلبية والعاطفية[٧٨٤]،وتلكم سمة تنقلها لنا الآيات القرآنية في مشاهدها القصصية المتنوعة على ألسنة الرسل الكرام عليهم السلام.

إن مسألة الحوار مع الآخر لا تخصُّ عصراً بعينه، ولا حادثة بذاتها، وإنما هي تكليف شرعيّ يدفعنا إلى العناية بأدوات التقويم والقياس لواقع المجتمع وتحديد مواطن الخلل فيه لتتمكن من تصويب السهام إلى محالّها[٧٨٥]، وهذا يحتاج إلى مزيد من التفكير لتحقيق الإبداع ببلوغ المقصود.

---

[٧٨٢] -ينظر:المراغي،ج١٧،ص٤٦،وينظر:ابن عاشور،ج١٧،ص٧١،الخطيب،ج٩،ص٩١٣

[٧٨٣] -ينظر:التويجري،عبد العزيز بن عثمان(٢٠٠٢):**تأملات في قضايا معاصرة**،ط١،ص٧٥،دار الشروق

[٧٨٤] -ينظر:،حجاب،محمد منير،**تجديد الخطاب الديني**،ص٢٥٦

[٧٨٥] -ينظر:حسنة،**الوراثة الحضارية**،ص٦٢-٩٤.

لقد عبّر القرآن الكريم عن هذا المعنى بقوله سبحانه: **"وتالله لأكيدن"** إيذاناً بصعوبة اغتنام الفرصة، وتوقفها على استعمال الحيلة في كل زمان[٧٨٦]، وقد شهد الله سبحانه لإبراهيم بكمال العقل وتمام الفهم الذي لا يتأتى معه إلا سويّة المسلك وصواب الفعل **"ولقد آتينا إبراهيم رشده"{الأنبياء٥١}** بتوفيقه للحق وإنارة سبل الرشاد له، والاهتداء لوجوه الصلاح في الدين والدنيا مسترشدً بالنواميس الإلهية[٧٨٧]، فمن السهل الإيحاء بفكرة وقتية في عقل جماعة ما، ولكن من الصعب جداً تمكين معتقد دائم في قلوبها، أو هدم اعتقاد تمكّن منها[٧٨٨].

على أنه لا بد للأمة في نهوضها من أن تحسن قراءة الخطاب القرآني لتتقن فن الاستشهاد به في محله، وإلا فإنها ستودي بذاتها إلى مزيد من الضياع والبلبلة، بل والكوارث الاجتماعية التي تضاعف من الغياب الحضاري لها.

المشهد الثالث:سليمان عليه السلام

قال تعالى:" قَالَ نَكِّرُواْ لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِيٓ أَمْ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٤١﴾ فَلَمَّا جَآءَتْ قِيلَ أَهَٰكَذَا عَرْشُكِۖ قَالَتْ كَأَنَّهُۥ هُوَۚ وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴿٤٢﴾ وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴿٤٣﴾ قِيلَ لَهَا ٱدْخُلِى ٱلصَّرْحَۖ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَاۚ قَالَ إِنَّهُۥ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَۗ قَالَتْ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٤﴾ **{النمل}**

---

[٧٨٦]-ينظر:المراغي،ج١٧،ص٤٦.

[٧٨٧]-ينظر:المصدر السابق،ج١٧،ص٤٣.

[٧٨٨]-ينظر:التهامي نقرة،**سيكيولوجية القصة**،ص١١٤.

يمثل هذا المشهد جانباً إيجابياً، وأنموذجاً مثالياً للداعية الفذّ الذي لا يتوانى عن سلوك سُبُل تحمل الجدّة في جوهرها ومظهرها لأجل الولوج من خلالها إلى غايته المنشودة، دون أن يخلّ ذلك بأصالتها وعراقتها المستمدة من ثوابتها الخالدة.

لقد بلغت بلقيس في قومها مكانة لا تطالها الأعناق، فكانت الملكة التي تأمر وتنهى وإليها تنتهي الأمور.

وهؤلاء القوم لا بد لخطابهم من لون يتناسب مع كل منهم، فهم ليسوا بالبسطاء والعامة، ولا المتسولين وأصحاب الحاجة، وإنما هم السلطة والشرعية ومصدر التوجيه.

لقد أدرك صاحب الفكرة-سليمان عليه السلام-ذلك فخاطب عقلها بذكائه، وحرّك مغاليق فؤادها بمفتاح براعته ليصل إلى المطلوب ويحقق المنشود.."**أهكذا عرشك**" وهي تعلم يقيناً أيّ حراسة أقامتها على عرشها، وأيّ مساحة تفصلها عنه، وقد رأت ما عليه من الزيادة والنقصان، فكان جواب العقل الذكيّ للعقل الذكيّ "**كأنه هو**" لتتجلى لها القدرة الإلهية فعلاً يُرى لا قولاً يُحكى، فيلتقط الذهن المتوقد الإشارة ويعي[٧٨٩].

إن موروثات الآباء والأجداد من الضلال هي التي غلبت على هذا العقل وما فيه من ذكاء وما اجتمع له من علم[٧٩٠] "**وصدّها ما كانت تعبد من دون الله**" ليأتيها الدرس الثاني "**ادخلي الصرح**" منطقٌ عمليٌّ آخر، باستعراض لمظهر آخر من مظاهر القوة الخارقة التي تؤيد سليمان، لا لبسط نفوذه وفرض هيمنته واستعباد الأمم من دونه، وإنما لتحقيق فاعلية الفكرة التي آمن بها ولها أسلم.

إنه الكشف عن الملكات الإنسانية في مكنوناتها وما فيها من ذكاء في جوّ من الإرادة المطلقة والحرية الميسرة[٧٩١]، وكما قال لوبون:"إن للأسلحة النفسية قدرة أعظم من المدافع، غير أن استعمال مفتاح العوامل النفسية صعب لا يتسنّى إلا بكثير من المهارة والحذق[٧٩٢]" تلك المهارة التي اكتسبها سليمان فبهر بها مدعوّته بما أراها من آيات سلّمت معها له بحقه، وتنازلت وقومها عن باطلها، لما رأت من أمر ناقض للعادة،

---

[٧٨٩]-ينظر:الزمخشري،ج٣،ص٣٦٧،وينظر:ابن كثير،ج٦،ص١٩٤،وينظر:أبو حيان،ج٨،ص٢٣٩.

[٧٩٠]-ينظر:الخطيب،**التفسير القرآني**،ج١٠،ص٢٤٧.

[٧٩١]-ينظر:الغزالي،**الطاقات المعطلة**،ص٤٢.

[٧٩٢]-ينظر:التهامي نقرة،**سيكيولوجية القصة**،ص٢٤.

علمت من خلاله أن له ملك أعزُّ من ملكها، وسلطانٌ أعزُّ من سلطانها، فزادها ذلك استعظاماً للحق، وتحققاً لنبوّة صاحبه، وثباتاً على الدين[٧٩٣].

إنه إدراكٌ من سليمان عليه السلام للواقع الذي يعايشه ويخاطبه، استطاع معه أن يحقق النتائج الإيجابية التي رفعت أمة بكاملها من وهدة النكوص إلى قمة النهوض بحسن الاستدعاء.

وفي هذا درس بليغ لأفراد الأمة الربانية وهم يحرصون على إصلاح واقعهم، منطلقين من تصورات غائمة لهذا الواقع،محكومة بنظرة جميلة، تُلمِّح إلى مظاهر الخلل، وتَبني تقويماً أميل إلى المعيارية منه إلى الوصفية الكاشفة، لِتَغلب بذلك نزعة الرفض والإلغاء، هذه النظرة التي لن تمكّن من صياغة العلاج المناسب القادر على التصدي لطوفان العولمة الجامح، والذي يتدفق بعنف محاولاً السيطرة على الفتات المتبقي من العالم الإسلامي[٧٩٤].

لا بد لحاملي فكرة الحق الربانية من تجديد وسائل عملهم، وتطوير مناهج تفكيرهم قبل خطواتهم ليتمكنوا من مجابهة القادم، وعدم الوقوف عند الحد من آثاره السلبية، بل الحرص على تخطيه لتطويعه للمنظومة الربانية، ففي تراثنا الزاخر قواعد عامة علينا ألا نغفل إسقاطها على واقعنا، ومعالجتها بلغة العصر وعلى ضوء مستجداته، لنحقق من خلال أصالتها مع تجديد آلياتها شهوداً ونهوضاً تاقت إليه الأمة منذ قرون.

---

[٧٩٣] ينظر:القشيري،ج٣،ص٤٠،وينظر:الزمخشري،ج٣،ص٣٧١،وينظر:الرازي،ج٢٤،ص٥٥٩،وينظر:المراغي،ج١٩، ص١٤٤.

وينظر:الزحيلي،**الوسيط**،ج٢،ص١٨٧٧

[٧٩٤] -ينظر:النجار،**فقه التدين**،ج٢،ص٧٣.

الخاتمة

هذه الأمة قد يعتريها المرض، ويقعد بها الوهن، ويضعفها الوباء، ولكنها أمة لا تموت لأنها تستمد قوتها من الله ومراقبته، وتقوم على أساس الإيمان به، فبالرغم من أن الأمة الإسلامية اليوم تعيش تحدّياً حضارياً شاملاً يهدف إلى اكتساحها حتى لا تعود قادرة على تجديد نفسها مرة أخرى، إلا أن النقطة التي تقرر مصيرها تكمن في الفكرة الحضارية التي تقوم عليها، رغم أن هذه الفكرة مهما بلغت حيويتها لن تجدي نفعاً إن لم تتحول إلى فعل وعمل من خلال تفعيلها لإرادة إنسانها تفعيلاً ممزوجاً يدفعه إلى الإنحاز.

فعقيدة المسلم-والتي هي فكرته ومحور حياته-ليست مفاهيم تنحصر قيمها في التصديق القلبي، وإنما بما يحدثه الإيمان من أثر شامل في الحياة يُنزل القضايا ذات الصلات المتعددة بالكون والاجتماع في الوعي العقدي للأمة، ليغدو تحقيق مقتضياتها محدِّداً من محدّدات الفصل بين الإيمان والكفر، مما يكون له بالغ الأثر في النزوع إلى العمل والإنجاز والتعمير.

على أن هذا الفهم أصابه الاضطراب والتحريف، كما أصابه الانكماش والاختصار، فكان لذلك انعكاس سلبي على الأمة في مسيرتها الحضارية لتقع في مستنقع الوهن الحضاري، ببروز من لا يعرف إلا حقه وينكر واجبه، بروز ذلكم الإنسان المستهلك وغياب الإنسان المنتج، ولن يتحقق للأمة نهوضها إلا بتصويب تلك المعادلة، وإعادة صياغة الشخصية المسلمة والتي تشكل قاعدة الانطلاق للحضارة، وكلما تحررت هذه الشخصية من قيد الذل، وإسار الوهن، وضعف الاستعباد،كلما كانت قادرة على المضيّ بعيداً عن ركاب التقليد وقوافل الإتباع، منطلقة محلّقة مخطِّطة لمستقبلها بملء إرادتها.

تلكم ذاتها المعالم التي ما فتئت القصة القرآنية تعمل على لفت الأنظار إليها وتوجيه العقول إلى اليقين بها، كي تحيلها مناهج عملية، وخطوات تدريجية ترقى الشعوب مدارجها كي ترتقي بها قمتها المنشودة.

وكـي لا تـذهب المعـالم الربانيـة بعيداً عـن وقـائع الحيـاة البشـرية، نلمـح فـي كـل خطـوة علـى الـدرب حقـائق تحتـاج إلـى أفهـام وبصـائر تَعِيَهـا، تقـف معهـا وبهـا كـي تجـد الحلول، وتخرج من أزماتها قوية فتية.

لا عجب إنه الكتاب الربانيّ الخالد، والدستور الكامل الصـامد، الـذي مـا تطاولـت إليـه يـد وضـيع إلا عـادت خاسـئة واهيـة، لأن الـرد يـأتي مشـهداً منظـوراً، لا تنظيـراً ولا تحـويرا، ومـا ثـورات الشـعوب اليـوم إلا برهانـاً عمليـاً علـى مضـيّ السـنة الربانيـة لبـدء ارتفـاع مؤشـر الحضـارة مـن خـلال إنسـانها الحـر الأبـيّ المستعصـي علـى كـل معـاني الامتهـان، إنهـا ذات البدايـة لكـل إشـراقة، والله غالـب علـى أمـره ولكـن أكثـر النـاس لا يعلمون...

أهم نتائج الدراسة:

من خلال ما طُرح خلال الدراسة يمكننا الخروج بأهم النتائج على النحو التالي:

أولاً: إن الحضارة الحقة تقتضي قاعدة أساسية من التحرر الحقيقي الكامل للإنسان والكرامة المطلقة لكل فرد في المجتمع، وهذا لن يكون إلا في ظل الحاكمية لله وحده.

ثانياُ: إن الشهود الحضاري للأمة الإسلامية يتطلب منها تحديد المداخل الحضارية القائمة، ومنحها حاجاتها المفقودة باسترداد إنسانية الإنسان.

ثالثاُ: إن مؤشر صعود الحضارات وهبوطها متوقف على جهد إنسانها وبذله وفعاليته

رابعاُ: إن أخطر الإصابات الحضارية على الإطلاق تلكم التي تلحق بالنفس والروح والبناء الداخلي للإنسان.

خامساُ: إن من أهم الأسس التي بني عليها المنهج القرآني في الارتقاء الحضاري، هو التأكيد على وحدة الغاية التي تربط قلوب المؤمنين لتكون الدافع والضابط لنهضة الأمة.

سادساُ: إن الذي ينقص مسلم اليوم هو منطق العمل والحركة لا منطق الفكرة، فهو لا يفكر ليعمل بل ليقول كلاما مجرداً.

سابعاُ: إن البشرية لا تستجيب عادة لمنهج مقروء أو مسموع وإنما تستجيب لمنهج حي متحرك متمثل في حياة جماعة من البشر.

ثامناُ: إن الإمكان الحضاري، وامتلاك القدرة على القلاع من جديـــد، يتحقـــق كلما توفرت وسائل إحداث التفاعل بين الإنسان والإسلام.

تاسعاُ: إن القفز فوق التجارب السابقة، وعدم اعتبارها، وعدم دراسة الأســـباب التي صنعتها والنظر في علل الأشياء والظروف التي حاطت بها، كان وراء الكثير من التعثر والإخفاق وتكرار الأخطاء .

عاشراُ: إن الحرص على اكتشاف القوانين والسنن الاجتماعيـــة التـــي تحكـــم التخلف والركود كما تحكم النهوض لهو بداية الطريق للخروج من الأزمـــة واســـتعادة الشهود الحضاري للأمة.

قائمة المصادر والمراجع

- اشفيتسر، إلبرت(١٩٨٠)، **فلسفة الحضارة**، ط٢، (ترجمه عن الألمانية:عبد الرحمن بدوي) دار الأندلس.

- الأزدي، أبو الحسن مقاتل بن سليمان بن بشير(ت١٥٠هـ)، **تفسير مقاتل بن سليمان** ط١،١/٣،(تحقيق:أحمد فريد)، بيروت:دار الكتب العلمية،٢٠٠٣م.

- أسد،محمد(١٩٨١)، **الإسلام على مفترق الطرق**، (ت:عمر فروخ)، بيروت: دار العلم للملايين.

- الأشقر، عمر سليمان(١٩٨٣)، **العقيدة في الله**، ط٤، الكويت: مكتبة الفلاح.

- الأصفهاني، الحسين بن محمد(٢٠٠٥)، **المفردات في غريب القرآن**، ط٥، (تحقيق:محمد خليل عيتاني)، بيروت: دار المعرفة .

- الألوسي، محمود بن عبد الله(ت١٤١٥هـ)، **روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني**،(ت:علي عبد الباري عطية)، دار الكتب العلمية.

- الأميري، عمر بهاء الدين(١٩٨٣)، **الإسلام وأزمة الحضارة**، ط١، قطر: مؤسسةالشرق.

- إقبال، محمد(٢٠٠٦)، **تجديد التفكير الديني في الإسلام**، (ترجمة: عباس محمود)، تونس: دار الجنوب.

- ابن باديس، عبد الحميد بن محمد ،(ت٣٥٩)، **مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير**،الجزائر: دار الرشيد للكتاب والقرآن، ٢٠٠٩.

- الباقلاني، محمد بن الطيب، **إعجاز القرآن**، (ت:أحمد صقر)، دار المعارف: القاهرة.

- بحر العلوم، السيد محمد(٢٠٠٠)، **آفاق حضارية للنظرة السياسية في الإسلام**، لندن: معهد الدراسات العربية.

- البخاري، محمد بن إسماعيل(ت٢٥٦)، **الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وأيامه**، ط١،٩/١، القاهرة: دار الشعب،١٩٨٧م

- البستاني، بطرس(١٩٨٣)، **محيط المحيط** ، بيروت: مكتبة لبنان.

- البغوي، أبو محمد الحسين بن مسعود بن محمد(ت٥١٠هـ)، **معالم التنزيل في تفسير القرآن** ط١،٥/١، (المحقق:عبد الرزاق المهدي)، بيروت: دار إحياء التراث العربي،١٤٢٠.

- البقاعي، برهان الدين أبي الحسن إبراهيم بن عمر، **نظم الدرر في تناسب الآيات والسور**،٨/١ (تحقيق:عبد الرزاق غالب المهدي)، بيروت: دار الكتب العلمية،١٩٩٥م.

- البنا، حسن، **مجموعة رسائل الإمام الشهيد**، القاهرة: المكتبة التوفيقية.

- بيجوفتش، علي عزت(رئيس البوسنة والهرسك)، (١٩٩٤)، **الإسلام بين الشرق والغرب**، ط١،(ترجمة:محمد يوسف عدس)، مؤسسة بافاريا.

- البيضاوى، عبد الله بن أبي القاسم عمر بن محمد(ت٦٨٥)، **أنوار التنزيل وأسرار التأويل**،٥/١، بيروت: دار الفكر.

- البيهقي، أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي، **السنن الكبرى**، ط١،١٠/١،حيدر آباد: مجلس دائرة المعارف النظامية،١٣٣٤هـ.

- البيومي، محمد رجب، **من القيم الإنسانية في الإسلام**، عمان، ٢٠٠٥.

- الترابي، حسن(١٩٨٣)، **الإيمان وأثره في حياة الإنسان**، ط١٣، الكويت: دار القلم.

- الترمذي، محمد بن عيسى، **الجامع الصحيح سنن الترمذي**،٥/١، (تحقيق:أحمد محمد شاكر وآخرون)، بيروت: دار إحياء التراث العربي.

- التويجري، عبد العزيز بن عثمان(١٩٩٧)، **آفاق مستقبل الحوار بين المسلمين والغرب**، منشورات المنظمة الإسلامية للتربية،ايسيسكو.

- التويجري، عبد العزيز بن عثمان(٢٠٠٢)، **تأملات في قضايا معاصرة**، ط١، دار الشروق.

- الجاحظ، أبو عثمان، **البيان والتبيين**، (ت:عبد السلام هارون)، دار الكتب العلمية، ١٩٩٨.

- جارودي، رجاء، **الإسلام هو الحل الوحيد للأزمات المتصاعدة في الغرب**، كتاب المختار.

- الجرجاني، علي بن محمد(١٤٠٥)، **التعريفات**، ط١، (تحقيق:إبراهيم الأبياري)، بيروت:دار الكتاب العربي.

- ابن الجزري،محمد بن محمد،**النشر في القراءات العشر**، (تحقيق:علي محمد الضباع)، بيروت:دار الكتب العلمية.

- ابن الجوزي، عبد الرحمن بن علي بن محمد(١٩٨٥)، **تلبيس إبليس**، ط١،(ت:السيد الجميلي) بيروت: دار الكتاب العربي.

- الجوهري، إسماعيل بن حماد(ت٣٩٣هـ)، **الصحاح-تاج اللغة وصحاح العربية**،٦/١، ط٤، بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٩٠.

- أبو جيب، سعدي(١٩٨٢)، **القاموس الفقهي لغة واصطلاحا**، ط١، دمشق: دار الفكر.

- حافظ، عماد زهير، **القصص القرآني بين الآباء والأبناء**، دمشق: دارالقلم.

- الحاكم، محمد بن عبدالله، **المستدرك على الصحيحين**، ط١،٤/١، (تحقيق:مصطفى عبد القادر عطا)، بيروت: دار الكتب العلمية،١٩٩٠.

- حجاب، محمد منير(٢٠٠٤)، **تجديد الخطاب الديني في ضوء الواقع المعاصر**، ط١، سوهاج، القاهرة:دار الفجر.

- حجازى، محمد محمود، **التفسير الواضح**،٣/١، دار الجيل الجديد.

- ابن حجر العسقلاني، أحمد بن علي(١٣٧٩)، **فتح الباري شرح صحيح البخاري**، بيروت: دار المعرفة.

- حسنة، عمر عبيد(٢٠٠٣)، **الوراثة الحضارية**، ط١، بيروت، دمشق، عمان: المكتب الإسلامي.

- حقي، إسماعيل بن مصطفى(ت١١٢٧)، **روح البيان**،١٠/١، دار إحياءالتراث العربى.

- ابن حنبل، أحمد، **مسند الإمام أحمد بن حنبل**،٦/١،(ت: شعيب الأرنؤوط)، القاهرة: مؤسسة قرطبة.

- أبو حيان، محمد بن يوسف(ت٧٩٥)، **البحر المحيط**،٨/١، دار الفكر.

- أبوحيان، محمد بن يوسف، **البحر المحيط**، ط١،٨/١،١(تحقيق:عادل أحمد عبد الموجود،علي محمد معوض)، بيروت: دار الكتب العلمية،٢٠٠١م

- الخازن، علاء الدين علي بن محمد بن إبراهيم(ت٧٩١)، **لباب التأويل في معاني التنزيل**،٤/١،(تحقيق:تصحيح محمد على شاهين)، بيروت: دار الكتب العلمية،١٤١٥ هـ

- الخالدي، صلاح(١٩٨٨)، **القصص القرآني عرض وقائع وتحليل** أحداث، ط١، دمشق: دار القلم، بيروت: الدار الشامية

- الخالدي، صلاح عبد الفتاح،(١٩٨٣)، **نظرية التصوير الفني عند سيد قطب**، ط١،عمان: دار الفرقان

- ابن خالويه، الحسين بن أحمد، **الحجة في القراءات السبع**، ط٤، (تحقيق:عبد العال سالم مكرم)، بيروت: دار الشروق، ١٤٠١هـ

- خضري، جمال(٢٠١٠)، **المقاييس الأسلوبية في الدراسات القرآنية**، ط١، بيروت: المؤسسة الجامعية للدراسات.

- الخضري، محمد الأمين(١٩٨٩)، **من أسرار الحروف في الذكر الحكيم**، ط١، القاهرة: مكتبة وهبة.

- الخطابي، بيان **إعجاز القرآن، ضمن ثلاث رسائل**، ط٤، (ت:محمد خلف الله ومحمد زغلول سلاّم)، مصر: دار المعارف ،١٩٩١.

- الخطيب البغدادي، أحمد بن علي بن ثابت(١٣٩٧)، **اقتضاء العلم العمل**، ط٤، (ت:ناصر الدين الألباني)، المكتب الإسلامي: بيروت.

- الخطيب، عبد الكريم(١٩٦١)، **السياسة المالية في الإسلام وصلتها بالمعاملات المعاصرة**، القاهرة .

- الخطيب، عبد الكريم،١ /١٦، **التفسير القرآني للقرآن**، القاهرة: دار الفكر العربي

- الخطيب، عبد الكريم، **القصص القرآني في منطوقه ومفهومه**، بيروت: دار المعرفة.

- خلاّف، عبد الوهاب، **علم أصول الفقه**، ط٧ ، استانبول: المكتبة الإسلامية.

- ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد(١٩٦٧)، **المقدمة**، دار الكتاب اللبناني: بيروت

- خلف الله، محمد أحمد(١٩٩٩)، **الفن القصصي في القرآن الكريم**، ط٤، (ت:خليل عبد الكريم)، دار سيناء

- خليل، عماد الدين(١٩٩٥)، **رؤية إسلامية في قضايا معاصرة**، ط١، قطر: وزارة الأوقاف.

- خليل، عماد الدين(٢٠٠٥)، **التفسير الإسلامي للتاريخ**، ط٢، بغداد: مطبعة الميناء

- خليل، عمادالدين(١٤٠٣)، **حول إعادة تشكيل العقل المسلم**، قطر: رئاسة المحاكم الشرعية والشؤون الدينية.

- أبي داود، سليمان بن الأشعث، **سنن أبي داود**، ٤/١، بيروت: دار الكتاب العربي.

- داوود، منى بنت عبد الله ، (١٩٩٨)، **منهج الدعوة إلى العقيدة في ضوء القصص القرآني"قصص أولي العزم من الرسل"**، ط١، بيروت: دار ابن حزم.

- الدجاني، زاهية راغب(١٩٩٣)، **أحسن القصص بين إعجاز القرآن وتحريف التوراة**، ط١، بيروت: دار التقريب بين المذاهب الإسلامية.

- دراز، محمد عبد الله(١٩٨٩)، **دراسات إسلامية في العلاقات الاجتماعية والدولية** ، الاسكندرية: دار المعرفة الجامعية.

- دروزة، محمد عزت(١٣٨٣ هـ)، **التفسير الحديث**، القاهرة: دار إحياء الكتب العربية، دمشق: دار الغرب الإسلامي

- الديرزوري، عبد القادر ملاحويش آل غازي(١٣٨٢هـ)، **بيان المعاني**، دمشق: مطبعة الترقي.

-ديورانت، ول وإبريل(١٩٨٨)، **قصة الحضارة،نشأة الحضارة** ،(تقديم:د.محيي الدين صابر، ترجمة:د.زكي نجيب)، بيروت: دار الجيل.

- الرازي، محمد بن أبي بكر بن عبدالقادر(ت٦٠٦)، **مختار الصحاح**، (ت:محمود خاطر)، مكتبة لبنان: بيروت،١٩٩٥م.

- الرازي، محمد بن عمر(ت٦٠٦)، **مفاتيح الغيب**، ط١،٣٢/١، بيروت: دار الكتب العلمية، ٢٠٠٠

- رضا ، محمد رشيد بن علي(١٩٩٠)، **المنار**،١٢/١، الهيئة المصرية العامة للكتاب.

- زايد، فهد خليل(٢٠٠٧)، **أسرار القصة القرآنية** ،عمان: دار يافا العلمية.

- الزحيلي، وهبة بن مصطفى(١٤١٨)، **التفسير المنير**،٣٠/١، ط٢، بيروت، دمشق: دار الفكر المعاصر.

- الزحيلي، وهبة بن مصطفى(١٤٢٢ هـ)**التفسير الوسيط**،، ط١، دمشق، دار الفكر.

-الزمخشري، محمود بن عمر(ت٥٣٨)، **أساس البلاغة**، بيروت: دار صادر،١٩٦٥م.

- الزمخشري، محمود بن عمر(ت٥٣٨)، **الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل**،٤/١، (تحقيق : عبد الرزاق المهدي) بيروت: دار إحياء التراث العربي.

- ابن أبي زمنين،محمد بن عبد الله(ت٣٩٩)،**مختصر تفسير يحيي بن سلاّم**،(تحقيق:محمد حسن إسماعيل، أحمد فريد المزيدي)، بيروت:دار الكتب العلمية، ٢٠٠٣.

- أبو زهرة، محمد، **زهرة التفاسير**،١٠/١،دار الفكر العربي.

- الزين، سميح عاطف(٢٠٠٥)، **قصص الأنبياء في القرآن الكريم**، ط٧، القاهرة: مجمع البيان الحديث،دار الكتاب المصري.

- سابق، سيد، **إسلامنا**، بيروت: دار الكتاب العربي.

- السامرائي، فاضل صالح(١٩٩٨)، **لمسات بيانية في نصوص من التنزيل**، ط٥، دار عمار

- السامرائي، نعمان عبد الرزاق(٢٠٠١)، **نحن والحضارة والشهود**، ط١، ٢/١، قطر: وزارة الأوقاف.

- أبو السعود، محمد بن محمد العمادي(ت٩٨٢)، **إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم**، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

- سفر، محمود محمد(١٩٨٠)، **الحضارة تحد**، ط١، تهامة: السعودية.

- سفر، محمود محمد(١٩٨٨)، **دراسة في البناء الحضاري**، ط١، قطر: رئاسة المحاكم الشرعية.

- سفر، محمود(٢٠٠٥)، **الإصلاح رهان حضاري**، ط١، بيروت، دار النفائس.- سلطح، فضل الله محمد(٢٠٠٧)، **سياسة الإسلام بين الأنا والآخر**، ط١، الإسكندرية: دار الوفاء.

- السمرقندي، أبو الليث نصر بن محمد بن إبراهيم(ت٣٧٣)، **بحر العلوم**،٣/١،(تحقيق:محمود مطرجي)، بيروت: دار الفكر

- السمعاني، أبو المظفر منصور بن محمد بن عبد الجبار(ت٤٨٩)، **تفسير القرآن**، ٦/١،(تحقيق: ياسر بن إبراهيم ،غنيم بن عباس بن غنيم)، الرياض: دارالوطن، ١٩٩٧م

- ابن سيده، علي بن إسماعيل النحوي(١٩٩٦)، **المخصص**، ط١، (ت:خليل إبراهيم جفال)، بيروت: دار إحياء التراث العربي.

- الشحود، علي بن نايف، **الإعجاز اللغوي والبياني في القرآن.**

- الشعراوي، محمد متولي، **تفسير الشعراوي**، **٢٠/١**، القاهرة،١٩٩١م.

- الشناوي، فهمي، **الفقه السياسي**، القاهرة: المختار الإسلامي للنشر والتوزيع.

- الشنتوت، خالد أحمد(٢٠٠٠)، **التربية السياسية في المجتمع المسلم**، ط١، الأردن: دار البيارق.

- الشنقيطي، محمد الأمين بن محمد(١٩٩٥)، **أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن**،٩/١، بيروت: دار الفكر.

- الشوكاني، محمد بن علي، **فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير**،٥/١، بيروت: دارالمعرفة

- ابن شيبة، عبد الله بن محمد(ت٢٣٥ هـ) **مُصنف ابن أبي شيبة**،٨/١، (تحقيق محمد عوامة)الدار السلفية الهندية القديمة، ودار القبلة.

- الصدر، محمد باقر(١٩٨١)، **المدرسة القرآنية**، ط٢، بيروت: دار التعارف.

- الصدر، محمد باقر(١٩٩٠)، **الإسلام يقود الحياة**، بيروت: دار التعارف للمطبوعات.

- علي بن أبي طالب(١٨٨٥)، **نهج البلاغة**، جمعه من كلامه: السيد المرتضى، المطبعة الأدبية: بيروت.

- الطبري، محمد بن جرير(ت٣١٠)، **جامع البيان في تفسير القرآن**،١ط١، ٢٤/،(ت:أحمد محمد شاكر)، مؤسسة الرسالة،٢٠٠٠.

- الطرطوسي، أبو بكر(١٩٩٠)، **سراج الملوك**، (ت:جعفر البياتي،رياض الرايس)، لندن

- طعيمة، صابر(١٩٧٤)، **الإسلام ومشكلات السياسة**، بيروت: دار الجيل.

- الطنطاوى، محمد سيد، **التفسير الوسيط للقرآن الكريم**،١/١٥، القاهرة.

- الطويل، نبيل صبحي(١٤٠٤)، **الحرمان والتخلف في ديار المسلمين**، ط١، قطر: رئاسة المحاكم الشرعية، كتاب الأمة.

- الطيبي، عكاشة عبد المنان(١٩٩٢)، **قصص القرآن من ظلال القرآن**، بيروت: دار اليوسف.

- الظواهري، كاظم(١٩٩١)، **بدائع الإضمار القصصي في القرآن**، ط١

- ابن عادل، أبو حفص عمر بن على(ت٨٨٠)، **تفسير اللباب في علوم الكتاب**، ٢٠/١، بيروت: دار الكتب العلمية.

- عارف، نصر محمد(١٩٩٤)، **الحضارة-الثقافة المدنية-دراسة لسيرة المصطلح ودلالة المفهوم**، ط٢، عمان: المعهد العالمي للفكر الإسلامي.

- ابن عاشور، محمد الطاهر(٢٠٠٠)، **التحرير والتنوير**، ط١، ٣٠/١، بيروت: مؤسسة التاريخ العربي.

- ابن عاشور، محمد الفاضل(١٩٨٢)، **ومضات فكر**، تونس: الدار العربية للكتاب التونسي/تونس.

- ابن عاشور، محمد الفاضل(٢٠٠٥)، **روح الحضارة الإسلامية**، ط٤، بيروت: الدار العربية للعلوم، المعهدالعالمي للفكر الإسلامي، الولايات المتحدة الأمريكية.

- عباس، فضل حسن(١٩٩٢)، **القصص القرآني إيحاؤه ونفحاته**، ط٢، عمان: دار الفرقان.

- عباس، فضل حسن(٢٠٠٤)، **إعجاز القرآن الكريم**، ط٥، عمان: دار الفرقان.

- ابن عبد ربه، أحمد بن محمد(١٩٨٣)، **العقد الفريد**، ط١، ٩/١، (تحقيق:مفيد محمد قميحة)، بيروت: دار الكتب العلمية.

- عبدالرحمن، طه(٢٠٠٩)، **سؤال الأخلاق**، ط٤، المغرب، البيضاء: المركز الثقافي العربي.

- العبيدي، خالد فائق صديق(٢٠٠٤)، **تفصيل النحاس والحديد في الكتاب المجيد**، ط١، دار الكتب العلمية.

- ابن عجيبة، أحمد بن محمد بن المهدي(ت١٢٢٤)، **البحر المديد**، ط٢، ٨/١، بيروت: دار الكتب العلمية،٢٠٠٢ .

- ابن عربي، محمد بن عبد الله، **أحكام القرآن**، ٤/١، (ت:علي محمد البجاوي)، دار المعرفة.

- عرجون، محمد الصادق، (١٩٧١)، **سنن الله في المجتمع من خلال القرآن**، ط١، جدة: الدار السعودية.

- ابن عطية، عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن(ت٥٤٢)، **المحرر الوجيز**، ط١، (ت:عبد السلام عبد الشافي محمد)، دار الكتب العلمية،١٩٩٣.

- عمارة، محمد(١٩٨٥)، **عمر بن عبد العزيز(ضمير الأمة وخامس الراشدين)**، بيروت: دار الوحدة.

- عمارة، محمد(٢٠٠٣)، **في فقه الحضارة الإسلامية**، ط١، مكتبة الشروق الدولية.

- الغزالي، عبد الحميد(٢٠٠٠)، **حول أساسيات المشروع الإسلامي لنهضة الأمة/قراءة في فكر الإمام البنا**، المركز الإسلامي للدراسات والبحوث: دار التوزيع والنشر الإسلامية.

- الغزالي، محمد(١٩٨٤)، **علل وأدوية**، ط١، قطر: دار إحياء التراث الإسلامي.

- الغزالي، محمد(١٩٩٧)، **الإسلام والاستبداد السياسي**، ط١، دار نهضة نصر للطباعة والنشر.

- الغزالي، محمد(١٩٩٨)، **الطاقات المعطلة**، دار نهضة مصر للطباعة.

- الغضبان، منير(٢٠٠٣)، **التربية السياسية**، ط١، دار الوفاء.

- غويل، إبراهيم بشير(١٩٧٦)، **معالجة الإسلام لمشكلات الاقتصاد**، ط١، بيروت: مؤسسة الرسالة.

- الفارس، أحمد محمد، **النماذج الإنسانية في القرآن**، بيروت: دار الفكر.

- الفراء، أبو زكريا يحيى بن زياد(ت٢٠٧)، **معانى القرآن**،١ /٣،(تحقيق:أحمد يوسف نجاتى، محمدعلى نجار، عبدالفتاح إسماعيل شلبى)، مصر: دارالمصرية للتأليف والترجمة.

- فقي، إبراهيم(٢٠٠٠)، **قوة التحكم في الذات**، المركز الكندي للتنمية، دمشق: دار منار.

- فيروز آبادي، محمد بن يعقوب، **القاموس المحيط**، بيروت:دار الجيل.

- فيروز آبادي، مجد الدين محمد بن يعقوب(١٣٨٧)، **بصائر ذوي التمييز في كتاب الله العزيز**، ت:محمد علي النجار

-ا لقاسمي، محمد جمال الدين(١٩٨٧)، **محاسن التأويل**، ط٣، (ت:محمد فؤاد عبد الباقي)، بيروت: دار الفكر.

- القرضاوي، يوسف(١٩٩٥)، **دور القيم والأخلاق في الاقتصاد الإسلامي**، ط١، القاهرة: مكتبة وهبة.

- القرضاوي، يوسف(١٩٩٨)، **الإسلام حضارة الغد**، ط٣، بيروت: المكتب الإسلامي.

- القرضاوي، يوسف،**شريعة الإسلام صالحة للتطبيق في كل زمان ومكان**، القاهرة: دار الصحوة.

- القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر(ت٦٧١هـ)، **الجامع لأحكام القرآن**،ط٢، ٢٠/١، (تحقيق : أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش)، القاهرة: دار الكتب المصرية،١٩٦٤.

- القشيرى، عبد الكريم بن هوازن(ت٤٥٦)، **لطائف الإشارات**،(تحقيق إبراهيم بسيونى)، مصر: الهيئة المصرية العامة للكتاب.

- قطب، سيد(١٩٦٤)، **معالم في الطريق**، ط١، **مصر: مكتبة وهبة**.

- **قطب، سيد(١٩٦٨)، خصائص** التصور الإسلامي، ط٣.

- قطب، سيد(١٩٧٨)، **العدالة الاجتماعية في الإسلام**، ط٥، القاهرة: دار الشروق.

- قطب، سيد(١٩٨٤)، **في التاريخ فكرة ومنهاج**، بيروت، القاهرة: دار الشروق.

- قطب، سيد(١٩٨٨)، **في ظلال القرآن**، ط١٥،٦/١، بيروت: دار الشروق.

- قطب، سيد، **الإسلام ومشكلات الحضارة**، بيروت، القاهرة: دار الشروق.

- قطب، سيد، **التصوير الفني في القرآن**، دار الشروق.

- قطب، سيد، **مشاهد القيامة في القرآن**، دار الشروق.

- قطب، محمد علي، **يوسف وامرأة العزيز**، القاهرة: مكتبة القرآن.

- قطب، محمد(١٩٨١)، **منهج التربية الإسلامية**، ط٥، بيروت، القاهرة: دار الشروق.

- قطب، محمد(١٩٩٥)، **شبهات حول الإسلام**، دار الشروق.

- كاريل، ألكسيس، **الإنسان ذلك المجهول**، (ترجمة:عادل شفيق، دون(ط-ت).

- ابن كثير، إسماعيل بن عمر(ت٧٧٤)، **تفسير القرآن العظيم**، ط٢، (ت:سامي محمد سلامة)، دار طيبة،١٩٩٩ .

- كرواني، سعيد(٢٠٠٧)، **نحو تجديد الخطاب الديني**، المملكة المغربية، منشورات وزارة الأوقاف، دار أبي رقراق.

- الكفوي، أبو البقاء أيوب بن موسى(١٨٣٧)، **الكليات**، دار الطباعة: القاهرة.

- الكواكبي، عبد الرحمن(١٩٩٣)، **طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد**، ط٣، بيروت: دار النفائس.

- الكيلاني، إبراهيم زيد، (٢٠٠٤)، **خصائص الأمة الحضارية كما تبينها سورة المائدة**، ط.١

- الكيلاني، ماجد عرسان(١٩٩٨)، **فلسفة التربية الإسلامية**، بيروت: مؤسسة الريّان.

- مؤنس، حسين(١٩٨٧)، **الحضارة**، الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب.

- ابن ماجه، محمد بن يزيد، **سنن ابن ماجه**،٢/١،(تحقيق:محمد فؤاد عبد الباقي)، بيروت: دار الفكر.

- الماوردي، أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب(ت٩٥٠)،**النكت والعيون**،٦/١،(تحقيق : السيد بن عبد المقصود بن عبد الرحيم)، بيروت: دار الكتب العلمية.

- الماوردي، أبو الحسن(١٩٧٩)، **أدب الدنيا والدين**، دار إحياء التراث العربي.

- المبارك، محمد(١٩٧٨)، **نظام الإسلام**، ط٢، بيروت: دار الفكر.

- المدرسيّ، محمد تقيّ، **الفكر الإسلامي في مواجهة حضارية**، بيروت: دار التربي.

- المراغى، أحمد مصطفى، **تفسير المراغي**،١ /٣٠، مصر: مطبعة مصطفى البابى.

- مسلم، أبو الحسين مسلم بن الحجاج بن القشيري، **الجامع الصحيح**،٨/١، بيروت: دار الجيل، دار الأفاق الجديدة.

- مصطفى، الزيات، عبد القادر، النجار،إبراهيم، أحمد حسن،حامد، محمد علي، **المعجم الوسيط**،(تحقيق:مجمع اللغة العربية)، دار الدعوة .

- المظهري، محمد ثناء الله، **تفسير المظهرى**،(تحقيق:غلام نبى تونسى)، بيروت: دار إحياء التراث العربي، ٢٠٠٤ م.

- المغربي، الحسين بن علي، **من رسالة السياسة-ضمن كتاب(من تراث الفقه السياسي في الإسلام)**، (ت:فؤاد عبد المنعم أحمد)، الإسكندرية: مؤسسة شباب الجامعة.

- مقلد، طه عبد الفتاح، **القصص القرآني بين المفسرين والقصاص قديماً وحديثاً**، دون ط

- أبو المكارم، زيدان(١٩٥٩)، **بناء الاقتصاد في الإسلام**، مصر: دار الجهاد.

- ابن منظور، جمال الدين محمد مكرم، **لسان العرب**،١٥/١،بيروت: دار صادر.

- المودودي، أبو الأعلى(١٩٦٧)، **أسس الاقتصاد بين الإسلام والنظم المعاصرة**، ط٢،(ت:محمد عاصم الحداد).

- موسى، سلامة(١٩٢٧)، **الثقافة والحضارة**،القاهرة:مجلة الهلال.-الميداني، عبد الرحمن حبنكة(١٩٩٠)، **نوح عليه السلام وقومه في القرآن المجيد**، ط١، دمشق: دار القلم.

- بن نبي، مالك(١٩٦٩)، **شروط النهضة**، ط٣، (ترجمة:عمر كامل مسقاوي-عبد الصبور شاهين)، دار الفكر.

- النجار، عبد المجيد(١٩٩٧)، **الإيمان بالله وأثره في الحياة**، ط١، دار الغرب العربي.

- النجار، زغلول راغب(١٤٠٣)، **قضية التخلف العلمي والتقني في العالم الإسلامي المعاصر**، قطر: رئاسة المحاكم الشرعية والشؤون الدينية.

- النجار،عبد المجيد(١٩٩٩)، **فقه التحضر الإسلامي، من سلسلة الشهود الحضاري**، ط١،٣/١، بيروت: دار الغرب الإسلامي.

- النجار، عبد المجيد(٢٠٠٥)، **خلافة الإنسان بين الوحي والعقل**، ط٣، الدار العربية للعلوم.

- النجار، عبد المجيد، **فقه التدين فهماً وتنزيلا**، ط١،٢/١، قطر: رئاسة المحاكم الشرعية والشؤون الدينية.

- النجار،عبد الهادي علي(١٩٨٣)، **الإسلام والاقتصاد**، الكويت، المجلس الوطني للثقافة.

- الندوي، أبوالحسن علي الحسني(١٩٦٧)، **ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين**، ط٩، دار السلام.

- النسائي، أحمد بن شعيب،**المجتبى من السنن**، ط٢،٨/١،(تحقيق:عبدالفتاح أبو غدة)، حلب: مكتب المطبوعات الإسلامية،١٩٨٦ .

- النسفي، عبدالله بن أحمد بن محمود(ت٧١٠)، **مدارك التنزيل وحقائق التأويل**،١ /٤.

- نقرة، التهامي(١٩٧١)، **سيكيولوجية القصة**، رسالة دكتوراه، جامعة الجزائر، الشركة التونسية للتوزيع.

- نوفل، أحمد(١٩٩٩)، **سورة يوسف(دراسة تحليلية)**، ط٢، عمان: دار الفرقان.

- نوفل، أحمد(٢٠٠٥)، **تفسير سورة القصص**، ط١، الأردن: مركز حراء جمعية المحافظة على القرآن الكريم.

- النيسابورى، أبو إسحاق أحمد بن إبراهيم(ت٣١٨)، **الكشف والبيان عن تفسير القرآن**، ط١،١٠/١،(تحقيق:ابن عاشور) بيروت: دار إحياء التراث العربي،٢٠٠٢م.

- النيسابوري، الحسن بن محمد(ت٣١٨)، **غرائب القرآن ورغائب الفرقان**، ط١،(ت:زكريا عمران) بيروت: دار الكتب العلمية،١٩٩٦ .

- أبو هلال العسكري، الحسن بن عبد الله، الفروق اللغوية، القاهرة:مكتبة القدس، ١٩٩٤.

- هويدي، فهمي(١٩٩٩)، **القرآن والسلطان**، ط٢، القاهرة: دار الشروق.

- وجدي، محمد فريد(١٩٧١)، **دائرة معارف القرن العشرين**، ط٣، بيروت: دار المعرفة.

- الوكيل، محمد السيد(١٩٨٦)، **قواعد البناء في المجتمع الإسلامي**، ط١، دار الوفاء للطباعة.

- الوكيل، محمد السيد،(١٩٩٤)، **نظرات في أحسن القصص**، ط١، دمشق: دار القلم.

- ولسن، كولن(١٩٧١)، **سقوط الحضارة**، ط٢،(ترجمة: أنيس حسن)، دار الآداب.

- أبو يعلى، أحمد بن علي(١٩٨٤) **مسند أبي يعلى**، (ت:حسن سليم أسد)، دمشق: دار المأمون للتراث.

- يوسف، محمد خير رمضان(١٩٩٤)، **ذو القرنين القائد الفاتح والحاكم الصالح**، ط٢، دمشق: دار القلم.

Construction of Civilization in the Quranic Stories

Prepared By

Iman Abdelatif Shalaby

Supervised By

Ahmad Shukry

Abstract

This study explores the concept of civilization through the Quranic stories. It tries to reveal the foundations and pillars it needs during the stage of foundation.

This comes through talking about the way of activating these principles and bringing them to the practical level in the real life within the frame of divinity; the distinguishing feature of the Islamic civilization and its inner transformation logic.

These rules and principles however included characters which gave Islamic civilization a unique position and distinguished it from other thoughts. Comprehensiveness, realistic, and accuracy are the characters which rooted it in the history and made it so strong standing in the face of the challenges impossible to demolish even with the all calamities and crisis.

It represents the divine protection for this civilization which made all barriers easy to overcome. This gave Islamic civilization the strength to stand again actively to accomplish the meaning of witnessing over other nations.

The study concluded that it is so important to adopt the divinity idea in order transform it form the literal theoretical into

the practical level. It also concluded that all challenges and barriers facing the Islamic *Ummah* today is no more than what is described in the Quranic stories in its historical contexts to guide the nations to the means of survival and renaissance.